جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٨٢٩

الاتجاه الشعبي
في شعر العصر العباسي الأول

٠٠٢٨١٧

رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير

٨٠٩

إعداد
طاهر حجار خرفان

إشراف
د. محمود الربداوي

دمشق ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الإهداء

الى زوجتي الطيبة مع كل حبي ..
الى أخي عبد القادر الذي لم أنسى فضله عليّ ما حييت

طاهر

كلمة شكر

لا أظن ان للكلمات قدرة على التعبير عن
مدى شكري لاستاذي الدكتور
محمود الربداوي الذي ظل دائماً يوجهني
بكل عطف وحنان والذي أخذت من
جهده ووقته الكثير الكثير

طاهر محمد

فهـــرس الموضـــوعـــات

	الصفحة
المقدمـــة :	٦
الباب الاول : عوامل الاتجاه الشعبي	١٢ — ١٠٣
التمهيـد : نظرة على ثقافة العصر العباسي الاول .	١٣
الفصل الاول : الحالة الاقتصادية :	٢٣ — ٤٧
آ ـ الصناعة والتجارة	٢٥
ب ـ الزراعة والاقطاع	٣٠
جـ ـ موارد بيت المال	٣٢
د ـ الخـراج	٣٤
هـ ـ ظاهرة الاستصفاء	٤٥
الفصل الثاني : الحالة السياسيـة :	٤٧ — ٧٢
١ ـ التمهيـد	٤٩
٢ ـ الواجهة السياسية	٥٥
الفصل الثالث : الحالة الاجتماعيـــة	٧٣ — ١٠٣
ـ تركيبة المجتمع العباسـي	٧٤
١ ـ الفقر ومظاهره	٨٠
٢ ـ تبذير مال المسلمين ومظاهر الترف	٩٤
٣ ـ العدالة والقضاء	٩٩
الباب الثاني : الاتجاه الشعبي ..	١٠٤ — ٣٠٤
التمهيـد : تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي	١٠٥

	الصفحة
الفصل الأول : اغراض الاتجاه الشعبي :	١٣١ — ٢١٧
١ — الفقر ومظاهره	١٣٣
٢ — العمل	١٦٢
٣ — المدح والهجاء	١٧١
٤ — رثاء المتاع	١٩٥
٥ — التعامل مع البيئة الشعبية	٢٠٠
٦ — الفكاهة والتنذر	٢٠٣
٧ — تسلط المال	٢١٣
الفصل الثاني : خصائص الاتجاه الشعبي الفنية :	٢١٨ — ٢٧٠
آ — الاوزان	٢٢٠
ب — القوافي	٢٣١
جـ — الالفاظ	٢٣٥
د — في ثنايا الشعر	٢٤٨
هـ — بناء القصيدة	٢٦٧
الفصل الثالث : مواقف شعراء الاتجاه الشعبي	٢٧١ — ٣٠٤
١ — الموقف اللامبالي	٢٧٤
٢ — الموقف الحيادي	٢٨٥
٣ — الموقف المتمرد	٢٩٩
الخاتمة :	٣٠٥
فهرس المصادر والمراجع	٣٠٩

المقدمـــــــة

ان اختيارنا للعصر العباسي الاول ميدانا لبحثنا لم يأت اعتباطـــا بل جاء لاسباب كثيرة منها الاستقرار السياسي النسبي الذى عرفه هـــــذا العصر والذى كان له دور كبير في بروز كل ماكان يختمر من قبل من اتجاهات وتيارات فكرية وفنية ، ومنها ان في هذا العصر بدات تتضح معالـــــم المجتمع الجديد اكثر من اى وقت سابق،فقد كانت الدولـة الامويـــــة من قبل عربية في معالمها العامة بينما شارك فيانشاء الدولـــــة العباسية عدة شعوب،ولم تكنهذه المشاركة صورية كما كانت من قبـــل بل كانت فعلية فيالحكم والسياسة وما الى ذلك .

ان العصر العباسي الاول كان اهم عصر وضحت فيه بنى المجتمع الاسلامي الجديد بجميع تناقضاته لان ماقبله كان يعتمد على العنصر العربـــي وحده فيتسيير الامور المختلفة في اغلب الاحيان ولان مابعده كان عهـــد تفرقة وتشتت . ان هذا العصر هو العصر الذهبي فيتاريخ الحكم العربـي فقد امتد فيه نفوذ الخلافة العباسية علىجميع الاقاليم باستثنـــاء الاندلس وهذا ماجعل راية الاسلام مرفرفة علىجميع تلك الاقاليم وبذلـــك صـــارت تلك الشعوب المنضوية تحت هذه الراية تمتزج بعضها ببعـــض وتتبادل التاثير فنتج عن ذلك كله حضارة عربيـة اسلاميـة كبيرة قدمـت للانسانية خدمات جليلة .

ومجتمع بهذا الاتساع والتنوع كان لابد ان يحدث فيه صراع اوصراعات عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وكل هذه الامور تساعد علـــــى تطور الفن وبالتالي علىتطور الشعر . وليس غريبا ان نجد عدة ثورات في هذا العصر منها ماكان منطلقه السياسة ومنها ماكان منطلقـــــة الاوضاع الاجتماعية للفئات الكادحة . وقد عظم امر بعض الثورات

حتى جعل الخلافة تأرق في بغداد وتهدد بالسقوط عدة مرات •

وما بحثنا هذا الا محاولة لمعرفة رأى الشعراء في تلك الاحداث وموقفهم منها، الا ان دراسة كهذه تعترضها صعوبات كثيرة منها مايلي :

١- جهلنا بكثير مما كان يعتمل داخل ذلك المجتمع العريض والمتنوع الجنسيات والاتجاهات لان كتب التاريخ التي وصلت الينا عن تلك الفترة كانت تؤرخ فيمعظمها للاحداث والاشخاص وتهمل المجتمع وفئاته المختلفة والمتعددة • ان المؤرخين القدامى ، وتبعهم في ذلك المحدثون ، لم يكونوا فيتواريخهم يحاولون معرفة الدوافع التيتقف وراء سلوك بعض الشخصيات فيتاريخنا وبالتالي لم يكونوا يبحثون في الاسباب والامور التي جعلت تلك الاحداث تحدث على ذلك النحو • وبعبارة اخرى لم يكونوا يبررون وقوعها بذكر اسبابها الحقيقية • لقد كانوا في معظم الاحيان يذكرون الحادثة مجردة من ابعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكانوا مثلا يذكرون الثورات مجردة من كل اسبابها بحيث تصبح في منهجهم ذاك حادثة مبتورة تافهة •

وكان علينا لفهم الشعر الشعبي ، لسان حال الجماهير الكادحة في ذلك العصر ، ان نفهم المجتمع كله بتراكيبه المختلفة وبعاداته وتقاليده وكل مايعتمل داخله من طموحات وصراعات وتضارب مصالح وتطاحن للطبقات فيمابينها • ومن هنا كان الشعر العربي عموما يصلح ليكون مصدرا هاما لكتابة تاريخ تلك الحقب من تطور الامة العربية الاسلامية لان الشاعر كان محكوما عليه ان يصدر عن مجتمعه وبالتالي فهو يؤرخ له بطريقة فنية •

٢- وزيادة على افتقار تلك الكتب التي ارخت للعصور القديمة الى منهج سليم وتبريرات معقولة فان الذين كتبوها كانوا بشرا قبل

كل شيء وهذا ماجعل بعضهم يتبع بعض الاهواء فيبرز مايتلاءم مع اتجاهه ويهمل كل ماخالفه . ويكفي هنا ان نتذكر موقف المؤرخين من الدعوة العباسية وانتصارها على بني امية،فقد اختلف فيها المؤرخون بحيث راح بعضهم يرد كل الفضل في انتصارها الى العنصر الفارسي وحده . ومثل هذه الامور تجعلنا نشك فيكثير من النصوص المبثوثة فيكتب التاريخ تلك ، ويمكن ان نقول الشيء نفسه عن كتب الادب فهي ايضا لم تكن بمعزل عما كان يجرى فيتلك الفترة .

٣- وفوق هذا فان تلك النصوص التي قد تفيدنا شيئا في هذا البحث قليلة جدا ونقصد بها اشعار الشعراء الشعبيين لذلك العصر .
وليست هذه الندرة نتيجة قلة في انتاجهم بل لاسباب اخرى منها ان المؤرخين والمصنفين كانوا يهملون هذا الشعر لتفاهته في نظرهم لانه لايتناول المواضيع الجادة والرصينة كماكانوا يريدون من الشعر. وهذا الاهمال ناتج بدوره عن العقلية السائدة آنذاك والتي لاتعير العامة وجمهور الناس اى اهتمام بل تعتبر كل ماله علاقة بالعامة شيئا ساقطا لايستحق الذكر والنشر .

٤- ومن الصعوبات الاخرى ايضا اننا لم نجد دراسات من هذا النوع تدرس اداب الشعوب فيتلك الحقب وتتخذ قدوة لنا وان وجد بعضها فهو لايفي بالغرض . وهذا ماجعلنا امام وضع صعب اذ كان علينا ان نتلمس الطريق دون مساعدة لان الدراسات التي تتناول الشعر في العصور القديمة كان اغلبها ينصب على الشعراء المشاهير.وتجدر الاشارة هنا الى اننا لم نستطع الحصول على بعض المراجع والمصادر والتي كانت ستفيدنا في هذا البحث لانها في اقطار اخرى ودول اخرى او لانها مخطوطة لم تر النور بعد .

هذه مجمل الصعوبات التي واجهتنا فيهذا البحث ونحن متأكدون

ان بعض الجوانب ناقصة فيه ولذا نرجو من القارئ الكريم ان يقدر هذه الظروف ويغفر لنا هذا النقص.

وبعد فاننا قسمنا هذا البحث الى بابين يتناول الباب الاول العوامل المؤثرة في الادب الشعبي للعصر العباسي . ويتناول الباب الثاني الشعر في حد ذاته . وقد مهدنا للباب الاول بنظرة بسيطة عن ثقافة العصر العباسي الاول حيث تطرقنا لنشوء الدراسات الدينية واللغوية وما يتبعها .

اما الفصل الاول من الباب الاول فقد مهدنا له هو الاخر باهمية دراسة الاوضاع الاقتصادية.

وكان الفصل الاول خاصا بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر حتى فيالانتاج الادبي وبالتالي فيالشعر الشعبي ، فاعطينا لمحة عن الصناعة التي تطورت نسبيافي ذلك العصر بحيث ظهرت بعض المعامل في مناطق كثيرة من الامبراطورية الاسلامية اضافة لتطور الحرف اليدوية . ثم تناولنا الزراعة والاقطاع حيث بينا ان الدولة كانت تعتبر نفسها المالك الاكبر للارض تتصرف فيها كما تشاء وتقطعها من تشاء . ثم عرفنا موارد بيت المال كالزكاة والفيء والخمس الخ ... وركزنا على الخراج الذى كان اهم مورد لبيت مال المسلمين من حيث قوانينه وطرق جبايته والزيادة فيه وثورة الفلاحين والمزارعين بسبب ذلك، ثم ذكرنا تبذير مال المسلمين من قبل الخليفة واتباعه في امور لاتعود على الرعية بفائدةثم ذكرنا ظاهرة مصادرة اموال الاغنياء في ذلك الوقت .

وكان الفصل الثاني خاصا بالعوامل السياسية حيث تحدثنا باختصار عن تنظيم الدعوة العباسية ونجاحها وماتبعها من فتك بالامويين.

وبعدها اعطينا لمحة عن الواجهة السياسية العامة لتلك الفترة حيث عظم تذمر الناس من العباسيين بعد الفرح والابتهاج بانتصار تلك الدعوة ، ثم تعرضنا للاحزاب الكبرى فيذلك العصر حيث كان الحزب الحاكم يواجه احزاب المعارضة بكل عنف وكانت هذه الاحزاب بدورها تهتبل الفرصة للاطاحة بالنظام القائم حيث حدثت عدة ثورات للشيعة والخوارج ، حزبي المعارضة الكبيرين ، وكان بعضها خطيرا للغاية • ثم ذكرنا الثورات والانتفاضات الشعبية التي لم تكن تابعة لهذه الاحزاب والتي جاءت نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لذلك العصر •

وجاء الفصل الثالث للتعريف بالاوضاع الاجتماعية لذلك العصر فبينا اول الامر (الطبقات) والفئات التي يتكون منها المجتمع العباسي فيتلك الفترة ثم تحدثنا عن مظاهر الفقر وانعكاسها على الشعر الشعبي ثم مظاهر الترف والغنى واخيرا اعطينا لمحة عن ظروف القضاء والعدالة والحسبة •

اما الباب الثاني فقد مهدنا له بتحديد مفهوم الشعر الشعبي في ذلك العصر ففرقنا بينه وبين الشعر الرسمي وبينه وبين الشعر الذاتي • وقد بينا ان الشعر الرسمي يكون دائما داعية للسلطات القائمة شرط ان تكون هذه السلطات في تنافر مع الشعب أي مع الرعية ، وبينا ان الشعر الذاتي ينطلق من وجدان الفرد الذاتي • اما في تعريف الشعر الشعبي فقد جعلنا الجماعة منطلقيا لكل تحديد على ان يكون هذا الشعر نابعا منها بالدرجة الاولى وليس عنها • وهنا تصديا لبعض التعريفات الشائعة عن الادب الشعبي والتي تحمل في طياتها مغالطات واضحة كجعل الشعر الشعبي هوماجاء مكتوبا بالعامية وكان مجهول المؤلف ، لان الكتابة بالعامية او بالفصحى ليست هي الدليل على شعبية الشعر بل الدليل هو محتوى ذلك الشعر،وهنا ناقشنا قضية الفصاحة والعامية

في اللغة واقترحنا ان مفهوم الفصاحة يجب ان يتغير عبر العصور تبعا لتغير المجتمع الذي ينتج هذه اللغة اوتلك • ثم بينا ان جهل المؤلف اومعرفته بالنسبة الينا لايغير شيئا في هذه القضية • وبعد ذلك ناقشنا بعض الآراء في شعبية الشعر عند بعض الباحثين •

وكان الفصل الاول خاصا باغراض هذا الاتجاه الشعرية كوصف الفقر ومظاهره والحث على العمل والمدح والهجاء والرثاء ووصف تسلط المال والتنمر والفكاهة •

وكان الفصل الثاني منه خاصا بالخصائص الفنية لذلك الاتجاه كالتجديد في الاوزان واستعمال القصير منها وتطور القصيدة والمبالغة وما الى ذلك •

اما الفصل الثالث والاخير فكان خاصا بمواقف الشعراء الشعبيين من الاوضاع المختلفة المحيطة بهم حيث استنتجنا ان مواقفهم كانت ثلاثة :هي الموقف اللامبالي او الساخر والذي لم يكن يعير تلك المشاكل اى اهتمام او هو يبدو وكأنه لايعيرها اى اهتمام وانما كان في الحقيقة يعبر عنها بطريقته الساخرة تلك،واتخذنا لهذا الموقف مثالا ابادلامة زند بن الجون • وكان الموقف الثاني هو الحيادى السلبي وهذا يضم شعراء الزهد لتلك الفترة الا بعض الاستثناءات في ذلك • وكان الموقف الاخير هوالشاعر المتمرد الذي لم يكتف بالنقد والشعر والتعبيرعماتعانيه منه الجماهير العريضة فيذلك العصر بل رفع السلاح فيوجه تلك الاوضاع القاسية ، وكان ابو عطاء السندى مثالنا لهذا الموقف •

.....

.....

•

الباب الاول
عوامل الاتجاه الشعبي

التمهيد : ثقافة العصر العباسي الاول

الفصل الاول : العوامل الاقتصادية

الفصل الثاني : العوامل السياسية

الفصل الثالث : العوامل الاجتماعية

تمهيد

نظرة على ثقافة العصر العباسي الاول

تحن الان امام عصر تشكلت مختلف مناحيه فاكتملت له خصوصياته وبرزت معالمه واضحة للعيان • لقد انضوى عدد من الاجناس في ذلك العصر تحت راية الاسلام اذ اصبحت تلك الشعوب تنتمي الى مجتمع واحد بعد ان كانت من قبل متنافرة ودائمة الغارات والحروب ضد بعضها البعض • ساعد دخولها تحت هيمنة الاسلام اذا على وجود نوع من الاستقرار كان من قبل مفقودا في اغلب الاحيان • وطبيعي جدا في مثل هذه الحال ان يتم الاحتكاك بين تلك الشعوب بالمخالطة وبالمصاهرة مثلا او بالجوار او بالتحالف او بالموالاة الخ .... لقد انتشر الاسلام ايام الامويين انتشارا سريعا فشمل مناطق شاسعة تسكنها مجموعة من الشعوب مختلفة اللغات واللهجات • وبما ان الاسلام جاء بلغة العرب ، وخاصة القرآن الكريم ، فان تلك الشعوب وجدت نفسها مدفوعة الى تعلم اللغة العربية حتى تستطيع القيام بأمورها الدينية والدنيوية معا خاصة اذا علمنا ان حكام الاقاليم في العهد الاموي كانوا من العرب • وكان لابد من نشر الاسلام وتعاليمه بتعليم القرآن والحديث والشريعة وما الى ذلك •

وهكذا نشأت العلوم الدينية في وقت مبكر اى في الوقت الذى احتاجت فيه الشعوب الداخلة حديثا في الاسلام الى مشرعين لهذا الدين ومعلمين له • حدث هذا في البدايات الاولى اما في العصر العباسي ، بعد ان استقرت الاحوال والف الناس الاوضاع الجديدة ، فقد تطورت الامور واصبحت الشريعة مقننة مدونة تعاليمها • وكان من اهم نتائج ذلك الوضع السياسي والاقتصادى والاجتماعي الجديد ان ظهرت المذاهب الاربعة (الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي) . وقد كان للحديث اثر كبير على نشوء

تلك العلوم الدينية ، فقد نال الحديث الشريف،وهو احد مصادر التشريع الاسلامي ، القسط الوافر من الدراسات والتصنيف والتبويب وما الى ذلك حيث ظهرت فيالعصر العباسي الاول مجموعة من المصنفين منهم : عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج (١٥٠ هـ) ومعمر بن راشد (١٥٣ هـ) وسعيد بن ابي عروبة (١٥٦ هـ) والربيع بن صبيح (١٦٠ هـ) وحماد بن سلمة (١٦٥هـ) وسفيان الثورى (١٦١ هـ) وعبد الرحمن الاوزاعي (١٥٧ هـ) والليث بن سعد (١٧٥ هـ) ومالك بن انس (١٧٩ هـ) وسفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) وعبد الرزاق الصنعاني (٢١١ هـ) وعبدالله بن مبارك (١٨١ هـ) وهشيم بن بشير (١٨٣ هـ) ويحيى بن زكريا بن ابي زائدة (١٨٣ هـ) ومحمد بن فضيل بن غزوان (١٩٨ هـ) ووكيع بن الجراح (١٩٦ هـ) وعبدالله بن وهب وغيرهم كثير (١) ...

وقد تناول هؤلاء المصنفون الحديث بتنظيمه وتبويبه وتأكيده وتفسيره اضافة الىشرح القرآن وتفسيره وذكر اسباب نزوله وما الى ذلك من العلوم الدينية الكثيرة جدا .

وكانت هذه الدراسات الدينية من الاسباب الهامة فيتطور الدراسات اللغوية لدى العرب دون ان يكون لاى ثقافة اجنبية دور مباشر في ذلك خاصة في البدايات الاولى لان الامور فيما بعد تطورت اذ تأثرت تلك العلوم بثقافات اجنبية وخاصة الثقافة اليونانية .

لقد قلنا ان الدراسات الدينية كانت من اهم الاسباب في نشوء الدراسات اللغوية وذلك " لحاجة الشعوب الاجنبية التي دخلت في الاسلام الى تعلم لغة القرآن الكريم ثم ماكان من شيوع اللحن على السنة الموالي المستعربين وعلى السنة بعض العرب انفسهم لاختلاطهم بالعناصر الاجنبية وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم ." (٢) .

---

١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص :١٢٧ دار المعارف بمصر ط٦ قاهرة ٩٧٦

٢) شوقي ضيف: المرجع نفسه ص : ١١٨

لقد برز الاهتمام بهذه العلوم منذ العصر الأموي وربما قبل ذلك كما في الرواية التي ترد نشأة النحو الى علي بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي .

لكن ازدهار هذه العلوم اللغوية (اللغة ـ الشعر ـ النحو ـ الصرف الخ ..) قد تم فعلا في العصر العباسي الأول حيث انتظمت الدراسات فتخصص بعض القوم في مختلف ميادينها . وقد نالت مدينتا البصرة والكوفة قصب السبق في ذلك ، حيث حدث احتكاك كبير فيهما بين مختلف الثقافات ، وهكذا حدثت حركة تأليف كبيرة في هاتين الحاضرتين كان من اعلامها في البصرة في علم اللغة ابو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ أو ١٥٩ هـ) وهو احد القراء السبعة ، وخلف الاحمر (١٨٠ هـ) والأصمعي (٢١٢ هـ او ٢١٤ هـ) وأبو زيد القرشي وابو عبيدة ومحمد بن سلام الجمحي ، اما في الكوفة فقد برز حماد الراوية والمفضل الضبي وأبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي ، والخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) . اما علماء النحو فقد اشتهر منهم في البصرة عيسى بن عمرو الثقفي (١٤٩ هـ) وسيبويه صاحب الكتاب ، أما في الكوفة فأبو جعفر الرواسي ومعاذ بن مسلم الهراء والكسائي (١٨٩هـ) والفراء (٢٠٧هـ) وغيرهم كثير(١) . ألفت مصنفات عديدة في هذه المجالات بقي منها مجموعة لا بأس بها ، وان دلت على شيء فانما تدل على مدى التطور الحضاري الذي حدث في ذلك العصر .

كان انتشار الاسلام سريعا في بقاع عديدة فتعرب أهلها لسانا وفكرا بسرعة أيضا ، ودليلنا على ذلك كثرة المتخصصين في العلوم اللغوية والدينية من غير العرب ، فقد كان عدد منهم من الفرس ومن غيرهم من الجنسيات اضافة الى ان الذين بقوا على دينهم تعلموا العربية أيضا وألفوا بها(٢) .

---

(١) ـ شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص : ١١٩ ـ ١٢٤

(٢) ـ المرجع نفسه : ص ٨٩ ـ ٩٢ .

ان هؤلاء القوم الذين تعلموا العربية لم ينسوا علومهم وثقافاتهم التيكانت موجودة قبل الاسلام ولم يهملوها بل حاولوا نقلها الى العرب بجميع الطرق ، وهكذا ساعد الاحتكاك المباشر بين العرب وغيرهم على دخول كثير من المفاهيم والمعارف على الثقافة العربية زيادة على حركة الترجمة التي كان لها دور كبير فينشوء بعض العلوم وفي تطور بعضها الاخر وازدهاره • لقد بدأت حركة الترجمة منذ عهد مبكر زمن الامويين واغلب الظن انها بدأت منذ الفتوحات الاولى التيقام بها المسلمون خارج جزيرة العرب كفارس ومصر • لكن الذى وصل الينا ان ماسرجويه ، السرياني اليهودى ، نقل الى العربية كتاب اهرن القس بن اعين ، ايام الخليفة الاموى مروان بن الحكم ، كما نقلت بعض كتب الطب والتنجيم والكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية الذى كان يبحث عن الذهب (١) •••

ولعل السبب فيقلة الترجمة فيذلك العصر ان الدولة الاموية كانت دولة عربية خالصة بمعنى انها تعتمد في كل امورها على العرب وعلى المعارف العربية فقط ، ولعلها كانت ترى فيالترجمة ماينقص من هيبتها زيادة على ان العربية لم تكن قد تغلغلت بعد في نفوس المستعربين •

اما فيزمن العباسيين الاوائل فقد تغيرت الامور واصبحت الترجمة احدى ميزات ذلك العصر الهامة ، وربما كان للدور الذى قام به الموالي على الصعيدين العسكرى والسياسي دخل كبير فيذلك ، فاننا نعرف جميعا ان الثورة العباسية نجحت على اكتاف الموالي والفرس منهم خاصة وهذا ما ازاح ذلك الحاجز الذى كان يشل حركتهم ويمنعهم من المشاركة الفعلية فيالحياة بجميع مناحيها • ان الثورة العباسية ردت الاعتبار لاولئك الموالي وربما كانت الشعوبية احدى النتائج الهامة لرد الاعتبار هذا •

---

١) محمد نبيه حجابة معالم الشعر واعلامه ص : ٢٧ دار المعارف بمصرط ٢ القاهرة ١٩٧٣
وشوقي ضيف المرجع السابق ص ١٠٩ •

ان الاسلام دين يشجع على طلب العلم ونشره ، ولذا كان من واجب المسلمين الاوائل الفاتحين ان ينشروا العلم وان يشجعوا الناس عليه ،فقد كانوا كلما فتحوا مصرا من الامصار ينشرون علمهم اولا ثم يأخذون ما وجدوه من علوم لدى تلك الشعوب • وقد كان بعض تلك الشعوب ذا حضارات عظيمة كاليونان والفرس والهند ، وهكذا راح العرب ينهلون من ذلك المعين الخصب على شرط الا يتعارض مع تعاليم الاسلام الحنيف • وفعلا ، فقد ترجموا ما يخدم الاسلام فقط ومن ذلك اهمالهم للادب اليوناني الذي كان فيه الكثير من الخروج على الروح الاسلامية ، وحتى الفلسفة اليونانية التي اولعوا بها جعلوها تتماشى مع الاسلام بدليل ان بعض الفلاسفة المسلمين حاول التوفيق بين الفلسفة والدين •

ان اهم ثقافة اثرت في الفكر الاسلامي هي الثقافة اليونانية وكل ذلك عن طريق الترجمة (١) المباشرة اوغير المباشرة • وقد كان لمنطق ارسطو الحصة القصوى في ذلك التاثير اذ تأثرت به جميع العلوم العربية (٢)•

اما الثقافة الفارسية فقد اثرت في السلوك العربي ايما تأثير اذ اخذ العرب عن الفرس كل ما يفيدهم في الحياة من نظم وعادات وتقاليد ومطعم وملبس (٣) الخ ••• وبعبارة اخرى فانهم اخذوا عنهم الجانب المادي من حضارتهم بدليل كثرة المصطلحات الحياتية التي دخلت اللغة العربية عن طريقهم • وكان الفرس من جهتهم اكثر الشعوب تأثرا بالاسلام وبالعرب ، فقد اقبلوا على الثقافة العربية ينهلون منها بنهم وشغف كبيرين ، فتعلموا اللغة واتقنوها حتى صاروا من اشهر العلماء فيها وكان

---

١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٩٦

٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٣٠

٣) شوقي ضيف : المرجع السابق ص ٩٥

بعضهم مازال يحافظ على لغته الفارسية فقاموا بنقل بعض علومهم الى العربية (١) ..

اما الهند فقد كانت هي ايضا ذات حضارة عظيمة تجلت في الدراسات اللغوية والفلسفية والسحر والتنجيم والقصص الشعبي . وقد تأثر بها العرب ايضا عن طريق الترجمة او الاحتكاك المباشر (٢) فقد كان للعرب ولع شديد بالقصص الهندي ككتاب كليلة ودمنة والف ليلة وليلة وقصة هبوط آدم والسندباد الخ ...(٣) ..

وقد كانت الفلسفة الهندية قريبة من الانسان على خلاف الفلسفة اليونانية التي اتجهت نحو السماء وقد كانت كثيرا ماتأتي فيشكل حكم محبوكة اهتم بها العرب كثيرا واستفادوا منها (٤) ..

لقد انتقلت تلك المعارف والعلوم اذا عن طريق الترجمة التي كان للخلفاء دور كبير فيها ، اذ شجعها العباسيون . وقد اشتهر من الخلفاء في هذا المجال ابو جعفر المنصور والمامون ، ففي عهد المنصور ترجم كتاب السند هند وهو كتاب في حركات الكواكب (٥) قام بترجمته ابراهيم الفزاري . ولما عرض المنصور بمعدته استدعي الطبيب جورجيوس بن بختيشوع الذي ترجم له عدة كتب في هذا المجال خاصة وان جورجيوس هذا كان يعرف من اللغات العربية واليونانية والفارسية والسريانية (٦) .

---

١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٣٢

٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٩٤

٣) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٣٨

٤) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٣٨

٥) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٠-٥٣١ مط دار الفكر ١٩٧٣

٦) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ٥٣٠-٥٣١

وكذلك ترجم له كليلة ودمنه والسند هند الانفي الذكر وترجمت ايضا كتب ارسطاليس فيالمنطق وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الارثماطيقي وكتاب اوقليديس الخ ... (١) ومن اشهر المترجمين قبل خلافة المأمون يوحنا البطريق ومحمد الفزاري وعبدالله بن المقفع الذى ترجم اضافة الوكليلة ودمنة كتب المنطق الثلاثة (المقولات) و (العبارة او القضايا التصديقية) و (القياس) كماترجم كتاب المدخل المعروف بايساغوجي لفورفوريوس الصورى . وكذلك جورجيس بن جبريل ويوحنا بن ماسويه وصالح بن بهلة ، صاحب الرشيد ، ومنكه طبيبه الهندى (٢) . ونقل كذلك الحجاج بن مطر في عهد الرشيد كتاب اقليدس كما نقل بعض كتب افلاطون واهم كتبجالينوس في الطب (٣) ...

اما الترجمة في عهد المأمون فقد قفزت قفزة عظيمة وجبارة لان الخليفة اهتم بها اهتماما استثنائيا، فقد كان مولعا بالعلوم كما نعرف وكانت مجالسه تزخر بالعلماء من جميع الاصناف وقد خصص للترجمة دورا وجلب اليها امهر المترجمين كما بعث في الافاقيطلب الكتب واجرىعلى القائمين بتلك العملية ارزاقا حتى يتفرغوا لعملهم فقط (٤) .

لقد تطورت الترجمة فيعهده كماونوعا فمن حيث الكم ترجمت كتب عديدة جدا في جميع التخصصات ومن حيث النوع اهتم المترجمون بالنقل السليم للافكار ولم تعد العملية مجرد نقل حر في كماكانت من قبل . واهم المترجمين في عهده هم قسطا بن لوقا البعلبكي وعبدالمسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن اسحق وابنه اسحق وثابت قرة وحبيش بن الاعسم (٥) ...

---

١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١١٠

٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٢٨

٣) انور الرفاعي : الاسلام فيحضارته ونظمه ص ٥٣١

٤) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ٥٣٢

٥) محمد نبيه حجاب: المرجع السابق ص ٢٩

واحمد بن محمد الفرغاني وبختيشوع جورجيوس والحسن بن سهل بن نوبخت وموسى بن شاكر وبنوه محمد واحمد والحسن وغيرهم ...(١)

وهكذا ساعدت الترجمة على تبلور بعض العلوم العربية التي ظهرت بعد الاسلام وبسببه كعلم الكلام وعلوم اللغة عامة لان المسلمين لم ينشروا الاسلام وحده فقط بل كانوا اينما حلوا يبنون المساجد ، والمسجد في القديم هو المدرسة التي تخرج منها الاف العلماء في جميع التخصصات ، فبعد ان استتب الامر للمسلمين في البقاع المفتوحة "انشأوا في جميع المدن المهمة مراكز للتعليم" ... (٢) والامر الذى ساعد ايضا على ذلك هو شيوع الورق وظهور المكتبات العامة ، فقد انشأ الفضل بن يحيى البرمكي مصنعا للورق في بغداد وانشئت دار الحكمة منذ عهد الرشيد وهي عبارة عن مكتبة ضخمة كانت تهتم بالكتب المترجمة يرتادها طلاب العلم والمعرفة ، ومن ذلك ايضا مكتبة اسحاق بن سليمان العباسي ومكتبة يحيى بن خالد البرمكي ومكتبة الواقدى المؤرخ المشهور (٣) ..

وشيء كهذا كان لابد ان يؤثر في المسار الثقافي لتلك الحقبة من تطور العرب والحضارة العربية خاصة وان العرب لم يقفوا عند ما ترجموه لان الذى حدث انهم استفادوا كثيرا من ذلك التراث ثم تجاوزوه على عكس ما حدث لاروبة في العصور الوسطى (٤) ...

وتعددت مجالات التطور في ذلك العصر فظهرت في شكل علوم كثيرة ، فقد ظهرت مثلا كتب التاريخ والسير والمغازى ، واشهر من كتب فيها قاضي

---

١) انور الرفاعي الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٣

٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٤٣٣ ترجمة عادل زعيتر مط البابي

٣) شوقي ضيف: العصر العباسي الاول ص ١٠٣

٤) غوستاف لوبون : المرجع نفسه ص ٤٣٤

المأمون محمد بن عمر الواقدى (٢٠٧ هـ) وتلميذه محمد بن سعد. (٢٣٠ هـ)(١)

اما الفلك فقد بلغ اوجه فيتلك الايام ، ومن اشهر علماء ذلك العصر فيهذا المجال البتاني" الذي كان له من الشأن بين العرب ما لبطليموس بين الاغارقة" (٢) .. ونبغ فيه كذلك ابناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين عينوا مبادرة الاعتداليين بضبط لم يكن معروفا من قبل ووضعوا تقاويم لاماكن النجوم وقاسوا عرض بغداد وقيدوه ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة اى برقم يصح بعشر ثوان تقريبا (٣) . وقد اسس المأمون مرصدا كبيرا اوكل اشرافه الى يحيى بن ابي منصور واشتغل فيه مجموعة من مشاهير الفلكيين مثل علي بن عيسى الاسطرلابي ومحمد بن موسى الخوارزمي والعباس بن سعيد الجوهرى ، وكان هذا المرصد بمثابة مدرسة كبيرة في الفلك تخرج المتخصصين فيهذا العلم (٤) ..

اما الرياضيات فقد كانت من الشهرة ماجعلها تنتشر بسرعة بين الناس، وقد كان للعرب فضل كبير على الانسانية فيهذا المجال،فقد عرفت اروبة الجبر عن طريقهم وعن طريق كتاب محمد بن موسى الذى امره المأمون ان يؤلفه بعبارة سهلة حتى يستفيد منه الناس(٥) .. اما في الهندسة فقد" ادخلوا المماس الى علم المثلثات واقاموا الجيوب مقام الاوتار وطبقوا علم الجبر على الهندسة وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا في مباحث المخروطات وحولوا علم المثلثات الكرية بردهم حل مثلثات الاضلاع الى بضع نظريات اساسية تكون قاعدة له"(٦) ...

---

١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١٢٥

٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٥٧

٣) غوستاف لوبون : المرجع نفسه ص ٤٥٧

٤) شوقي ضيف : المرجع نفسه ص ١١٥

٥) غوستاف لوبون : المرجع نفسه ص ٤٥٥

٦) غوستاف لوبون : المرجع نفسه ص ٤٥٥

ولادا عي لتعداد كل المجالات الاخرى التي برز فيها العرب كالطب والفيزياء والكيمياء والميكانيكا وماشابه ذلك ، فالمراد ان نبين مدى التطور الذى حصل فيذلك العصر بسبب تمازج الثقافات المختلفة مع بعضها بعض ..

وسوف يكون الشعر باعتباره مجالا من مجالات الثقافة متأثرا حتما بهذه العلوم والاكتشافات فهو لايعيش بمعزل عن البيئة التي نشأ فيها ، وهذا ماسنراه فيالفصول القادمة .

ان هذه الحركة الكبيرة النشطة فيمختلف المجالات جاءت نتيجة ظروف وعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة بحيث تضافرت كلها علىانجاح الحضارة العربية وتطورها ....

.....

.....

الفصـــــل الاول

الحالة الاقتصاديـة في العصر العباسي الاول

- اهميـة دراسـة الاوضاع الاقتصاديـة .

آ - الصناعـة والتجارة

ب - الزراعـة والاقطاع

جـ - موارد بيت المـال

د - الخـراج :

١ - تعريف الخراج

٢ - طرق الخراج

٣ - التشدد فيالخراج

٤ - الزيادة فيالخراج

٥ - خراج الاقاليـم

هـ - ظاهرة الاستصفاء .

xxxxxxxxxxxxxxxxx

xxxxxxxx

مدخل: اهمية دراسة الاوضاع الاقتصادية

تقاس المجتمعات في رقيها وانحطاطها بمستوى اقتصادها وبمدالة توزيع فرائد هذا الاقتصاد على مختلف فئات الشعب ، فاذا حدث هذا كان المجتمع راقيا يشعر فيه الجميع بالسعادة والرفاه والافهو مجتمع محكوم عليه وعلى حكامه بالاخفاق والتدهور .

ان الظروف الاقتصادية تلعب دورا هاما فيتشكيل عقلية المجتمعات ولذا كانت دراستها والقاء الضوء عليها ضرورية في بحث كالذى نتناوله لاننا سنركز اهتمامنا على جماعة منالشعراء قاسمهم المشترك هوالمعاناة من الاختلال الاقتصادى فيعصرهم .

ولابد ان نحدد في البداية نموذج الاقتصاد فيذلك العصر اى بعبارة اخرى ماهي ملامحه ومعالمه ؟ هل كان عبوديا او اقطاعيا او رأسماليا ام كان كلهذه مجتمعة؟ ان المتتبع لظواهر الاقتصاد في ذلك العصر يرى ان الطابع المهيمن هو" اسلوب الانتاج الاقطاعي المتداخل مع بقايا العبودية المنحلة والقطاع التجارى المتنامي الىجانب نمو الصناعات الحرفية المتطورة نسبيا ... (١) فالاقطاع اذاكان يلعب الدور الاكبر في ذلك العصر ، لا لكونه يحكم زمام الامور بواسطة فئة تحافظ على مصالحه بل لان الدولة نفسها كانت هي المالك الاكبر والمستثمر الاول للاراضي المتمثلة في قطائع الخليفة واهله واعوانه من وزراء وقواد وجميع رجالات الدولة.(٢)

١) حسينمروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلاميةج١ص٣٨ دار الفارابي ط اولى بيروت ١٩٧٨

٢) حسين مروة: المرجع نفسه ج ٢ ص ١٣ دار الفارابي ط اولى بيروت ١٩٧٩

ومن اجل هذا كانت الدولة تقوم من حين لاخر باستصلاحات مختلفة وتقيم انظمة سقاية ذات حجوم ونوعيات عالية (١) لم تأت لصالح الملاكين المتوسطين والفلاحين الصغار بل جاءت لصالح الدولة نفسها حتى تزيد من انتاج اراضيها، وهذا الاهتمام بالزراعة كان على حساب القطاعات الاخرى كالصناعة والتجارة على الرغم من انها - اى هذه القطاعات - عرفت انتعاشا ملحوظا في ذلك العصر مما ادى الى تطور الاقتصاد النقدى وازدهار رأسمال تجارى قوى ، الامر الذى كان له دور كبير في تطور الدولة العباسية (٢).. وكل هذه الاوضاع الجديدة تركت بصماتها واضحة على الحياة الاجتماعية في جميع ميادينها مما في ذلك الفن بجميع اجناسه المعروفة في ذلك العصر. والفن ايضا لايمكن الا ان تنعكس عليه ظواهر عصره ومنها "الاعتبارات الاقتصادية المهيئة للظروف التي ينتعش بها .." (٣) ولادا عي للاستشهاد هنا بالنظريات التي جاءت في هذا الصدد اذ يكفينا ان في شعرنا القديم اشارات كثيرة الى هذا الواقع سوف نتعرض لها فيما يلي من فصول .

آ - الصناعة والتجارة

الى جانب الحرف اليدوية التي تطورت كثيرا في العصر العباسي الاول نجد صناعات متطورة منتظمة نسبيا في مصانع منتشرة على امتداد الامبراطورية الاسلامية شرقا وغربا (٤) .. فقد برزت صناعة السكر في

---

١) طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ص ١٨١ مط دار دمشق دمشق ١٩٧١

٢) طيب تيزيني : المرجع نفسه ص ١٨٢

٣) محمد نجيب البهبيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى ص ٣٧٤ مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ .

٤) طيب تيزيني : المرجع السابق ص ٢ .

فارس ، وظهر الزجاج في سورية وفلسطين ، كما انتج الملون منه في بغداد والبصرة ،وطور العرب صناعة الورق التي اخذوها عن الصينيين فظهرت باشكال مختلفة كالورق الحريري وورق الكتابة والورق المقوى الخ ... وازدهرت صناعة الروائح والعطور وهيتتطلب معارف كيماوية دقيقة (١) .. وتفننوا ايضا فيصناعة الذهب كما استخرجوا " الفضة والنحاس والحديد والخزف والمرمر ... والملح والكبريت ... والقار والنفط (٢) ..... وانشئت ايضا دور للطراز والسجاجيد والمنسوجات الصوفية (٣) على اختلاف انواعها ، واشتهر نبيذ شيراز فصدر الى البلاد البعيدة (٤) وبذلك اصبحت بغداد عاصمة الخلافة" مركز منطقة واسعة تضم مدنا صناعية عديدة" (٥) وكانت هذه المصانع كلها تشغل يدا عاملة متنوعة من عرب وموال ينتمون الى الشعوب التي دخلت في الاسلام حديثا .

---

١) ى : هل : الحضارة العربية ص ٩٣ ترجمة احمد العدوى مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ و حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الاجتماعي والسياسي والثقافي ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ مكتبة النهضة المصرية ط رابعة القاهرة ١٩٦٤

٢- سيديو : خلاصة تاريخ العرب : ص ١١٣ مط مصطفى فندى ط اولى القاهرة ١٣٠٩ هـ

٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩

٤ - غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٧٣٠

٥ - ريجاردكوك : بغداد مدينة السلام ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ترجمة فوءاد جميل مط شفيق ط اولى بغداد ١٩٦٢ .

ويمكن تقسيم تلك الصناعات الى المجموعات التالية :

آ- الصناعات المعدنية في دمشق والموصل ، ففي الاولى صنعت الاسلحة وفي الثانية صنعت الادوات النحاسية.(١)

ب- الصناعات النسيجية: حيث اشتهرت الانسجة الحريرية المشجرة في الشام وفارس والانسجة الكتانية فيمصر وفارس كذلك والاقمشة القطنية فيالعراق وخراسان (٢) .

جـ- الصناعات الغذائية ؛ فقد صنع الزيت وماء الورد في الشام وفارس زيادة علىصناعة العطور (٣) .

د- الصناعات المختلفة ؛ فقد اشتهر الزجاج والصابون المصنعان في الشام والبصرة ، والخزف والفخار في مصر وفارس والجلود والسروج فيالشام ايضا ومصر وكذلك صناعة القوارب والمراكب ... الخ (٤) ..

اما المعادن فقد كانت تستخرج من مناطق عديدة توزعت كما يلي:

- المغرب العربي : الذهب والفضة والمرجان .
- مصر والسودان : الذهب والفضة والزبرجد والشب والنطرون .
- الشام : الحديد والرخام والكبريت .
- الكويت وعمان : اللؤلؤ.
- الحجاز : الذهب .
- اليمن : العقيق والعنبر .
- كرمان : الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر .

---

١) انور الرفاعي: الاسلام فيحضارته ونظمه ص : ٣٠٢
٢) المرجع نفسه ص ٣٠١
٣) المرجع نفسه ص٣٠٢
٤) المرجع نفسه ص٣٠٣

- فارس : الفضة والحديد والرصاص والكبريت ،
- بلاد ماوراء النهر: الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجرى ٠
- خراسان : الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنشادر والزئبق (١) ٠٠٠٠

ويبدو ان هذه الصناعات لم تكن كلها ملكا للدولة بل كانت ملكا خاصا لبعض الناس بدليل الضرائب التي كانت تفرض عليها ٠ وتجدر الملاحظة ايضا الى ان هذه الصناعات كان اغلبها يتبع الطرق البدائية ان لم نقل كلها وهذا يعني استخدام اليد العاملة بكثرة الامر الذى يولد على امتداد الامبراطورية الاسلامية فئة كبيرة للعمال من المفروض ان يكون لها دور في الاحداث الكبيرة التي عرفتها المنطقة فيذلك العصر، ولكن هذا لايعني اننا نتناسى الفترة التاريخية اى ان القوة العاملة فيتلك المرحلة لم تكن تملك الوعي الكافي باهميتها وبدورها في المجتمع ، ومن المؤسف ان المصادر القديمة لم تشر الوهذه الفئة ولا الى الظروف التي كانت تعمل فيها ولا الى الاساليب المتبعة فيالعمل فيمثل تلك الورشات ٠

وطبعي لدى وجود صناعة كهذه ان تنشط الحركة التجارية بين اقاليم الدولة الاسلامية اولا وبين هذه الدولة ودول اخرى ثانيا ، فقد اصبحت العاصمة بغداد " محطة البضائع المجلوبة ٠٠٠ وسوقا يتم فيه تبادلها وشراؤها " ٠٠(٢) ٠

ولهذا تعددت طرق التجارة بين هذه الاقاليم والدول ويكفي ان نتذكر رحلات التجارة التيكانت العربتقوم بها صيفا وشتاء علىالرغم من قلة المساحة التيكانوا يحتلونها بالمقارنة مع ماصارت عليه الدولة الاسلامية من اتساع وتنوع في العصر العباسي الاول ٠

---

١) انور الرفاعي: الاسلام فيحضارته ونظمه ص٢٩٦

٢) ريجاردكوك : بغداد مدينة السلام ج ١ ص: ٦٩ - ٧٠

وهذه قائمة بالمواد التي كانت تجلب من البلدان المختلفة الى بلاد الاسلام :

آ- كانت تجلب من الهند مواد كالذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل (١) والياقوت والالماس والعقاقير والارز(٢) .

ب- وكان يجلب من الصين المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة والخزف (٣) ..وكثرت مواد الصناعة الصينية حتى اقيم بسبب ذلك في شرقي بغداد سوق صيني كامل (٤) .

جـ- وكان يجلب مما يعرف الان بالاتحاد السوفييتي السمور الاسود وجلود الخز والثعالب والبلور والرقيق (٥).

د- ومن بلاد ماوراء النهر كان يجلب الورق والسمور والسنجاب والثعالب والمسك.(٦)

هـ- ومن فارس الادهان والزيوت العطرية والقطن والصوف والحرير وسبائك الفضة والخفاف والسمور والامشاط والبسط (٧) ..

و- ومن الحبشة العقيق والعاج والجلود المدبوغة.(٨)

---

١) انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٩ - ٣١١

٢) انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥١ دار العلم للملايين ط ١١ بيروت ١٩٧٧

٣) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ٣٠٩ - ١١

٤) ى- هل : الحضارة العربية ص ٩١

٥ - انور الرفاعي: المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١١

٦ - ٧ - ٨ - انور الرفاعي: المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١١

ى - ومن سواحل افريقيا الشرقية العطور والاطياب وخشب الابنوس وريش النعام والذهب والعاج اضافة الى الرقيق الاسود (١) ...

ك - ومن ارمينية البسط والوسائد والمقاعد.(٢)

ل - ومن مصر الحصر.(٣) .

ونظرا لكثرة هذه الواردات وتنوع مصادرها فقد فرضت على الاسواق ضريبة كالتي فرضت على الارض ويروى (٤) ان اول من فعل ذلك هو الخليفة ابو جعفر المنصور .

ب - الزراعة والاقطاع

كانت الزراعة هي العمود الفقري في اقتصاد العصر العباسي الاول ولم تكن هذه ميزة خاصة به وحده بل ان الانسانية كلها كانت تمر في ذلك الزمن بالمرحلة نفسها تقريبا ، حيث كان اعتمادها الاساسي على الزراعة قبل كل شيء ، وكذلك الحال في العصر العباسي مع العلم ان الزراعة على الرغم من التطور النسبي لم ترق الى المستوى الذي يجعلها تأخذ الصدارة . وكانت الزراعة ايضا اكبر مصدر لجلب الاموال الى السلطة الحاكمة عن طريق الضرائب المطبقة عليها . ومن هنا نعرف مدى الاهمية التي اعطيت للزراعة كتشجيعها بجميع الوسائل (٥) ،حيث كانت الدولة ، كما قلنا سابقا

---

١ - ٢ - انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٩ - ٣١١

٣ - انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥١

٤- محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٣١ مط الانجلو المصرية ط ٢ القاهرة ١٩٦١

٥ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الاجتماعي والسياسي والثقافي الخ.. ج ٢ ص ٢٧٧ وانيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥٢

هي المالك الاكبر للارض تتصرف فيها كما تشاء وكذلك تتصرف في المشتغلين فيها . ويمكن هنا ان نذكر قضية الاقطاعات المعروفة فيذلك العصر، فقد ذكرت لنا مصادر التاريخ ان مناطق بكاملها كانت تقطع لبعض الاشخاص كتعويض على ولائهم للسلطان (١) .

وكانت الاراضي توخذ عنوة اذا كان بعض الولاة يغتصبها من اصحابها ويقطعها آخرين (٢) نظرا للاستقلال الذى كانوا يتمتعون به في اطار الدولة الواحدة . وهذا ما يسميه حسين مروة بالاقطاعية اللامركزية (٣) مما يساعد الولاة والعمال على التحول الى ملاكين كبار للارض ، ومن اجل المحافظة على مراتبهم تلك راحوا يرشون مركز السلطة في دار الخلافة بالاموال والهدايا التي اخذوها بالقوة من اصحابها ، فمن ذلك ان هارون الرشيد كان مرة جالسا للنظر في الهدايا وكان بجانبه يحيى البرمكي ، فقال الرشيد :" اين كانت هذه الاشياء ايام ابنك الفضل؟ فقال يحيى: اطال عمر امير المؤمنين ، لقد كانت هذه الاشياء ايام ولاية ابني الفضل في بيوت اهلها في مدن العراق وخراسان :"... (٤) . وكانت هذه الهدايا التي تحدث عنها الرشيد كثيرة جدا وربما غالى الرواة فيها بعض الشيء لكنها مع ذلك تبين لنا ان الولاة كانوا يأخذونها من اصحابها ويرشون بها الخليفة حتى يحافظوا على مراتبهم . وهذا يعني من جهة اخرى انهم كانوا يستعملون جميع الوسائل الممكنة للحصول على الاموال حتى

---

١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ مكتبة الخانجي ط اولى القاهرة ١٩٣١ .

٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص : ٧٢ المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٦هـ

٣) حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ ص ٢٤

٤) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت مك الانجلو المصرية ١٩٥٦ .

اثقلوا كواهل الفلاحين وجماهير الكادحين بالضرائب زيادة على سوء طرق جبايتها .

جـ - موارد بيت المـــال

اهم موارد بيت المال في ذلك العصر هي الخراج والعشور (١) والزكاة والغنيمة والجزية والفيء والمكوس واحياء الموات واستخراج المعادن الخ ... (٢) ويمكن ان نعرف هذه الامور باختصار كما يلي:

ا - اما العشر فهو ضريبة على الارض مقدارها عشر غلتها نقدا او عينا وهي تؤخذ على الاراضي التي اسلم اهلها وهم عليها بدون حرب، والتي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم وارض الموات اذا كانت فيها رض عشر الخ (٣) ..

ب - اما الزكاة : فهي ضريبة فرضها الله على المسلمين جميعا وهي احد اركان الاسلام الخمسة التعبدية وهي ذات مصادر خمسة هي:

١- زكاة السوائم والمواشي .

٢ - زكاة النقد (الفضة والذهب ، بعد ان يحول الحول ومقدارها ١/٤٠ او ٢ر٥ ٪ .

٣ - زكاة التجارة ومقدارها ١/٤٠ او ٢ر٥ ٪ بعد بلوغ النصاب وبعد ان يحول عليها الحول .

٤ - زكاة المعادن والركاز اى المعادن الغفل والكنوز .

٥ - زكاة الزرع والثمار بعد بلوغ حد معين. (٤)

ويتم انفاق الزكاة حسب قوله تعالى : " انما الصدقات للفقراء

---

١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٧٧

٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص : ١٧٢

٣)٤) انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٢٣ - ٢٢٥

والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم "(٨) .

جـ - اما الغنيمة فهي مايكسبه المسلمون في الحرب وهي تتكون من اربعة اقسام هي : (اسرى ، سبي ، ارضين ،اموال) (١)

د - واما الجزية فهي مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم وهي تقابل الزكاة عند المسلمين وتسقط اذا اسلموا ولا تؤخذ على النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين والعميان والمجانين ورجال الدين الخ .. (٢) .

هـ - اما الفيء فهو كل مال وصل من المشركين الى المسلمين عفوا من غير قتال الخ ... (٣) .

و - اما المكوس فهي ضريبة عن كل تجارة برا او بحرا وهي اعشار السفن واعشار البضائع الواردة الى بلاد الاسلام واخماس المعادن الباطنة وغلة المستغلات والاموال التي لا وريث لها ومايخرج من البحر الخ..(٤)

ونظرا لاهمية هذا القطاع فقد اهتمت الدولة العباسية بالمسائل المالية اهتماما بالغا ، واوضح دليل على ذلك هو البيانات المفصلة التي وصلت الينا عن دخل الدولة العباسية والتي ذكرتها مصادر عديدة عربية واجنبية (٥) . واموال بيت المال ، نقدية اوعينية كثيرة جدا حتى تبدو خيالية لاتكاد تصدق ، فلو عرفنا فقط تركات الخلفاء ، وهي مبالغ كانوا يقتطعونها من بيت المال ، بل كان بيت المال بيتهم يتصرفون فيه كما يشاؤون ، لاندهشنا لتلك المبالغ . فقد ذكر ان تركة المنصور كانت ستمئة مليون درهم واربعة عشر مليون دينار فاذا فرضنا الدينار مساويا خمسة عشر درهما كان المجموع (٨١٠) مليون درهم واذا فرضنا الدرهم يساوى اربعة قروش مصرية ونصف القرش حاليا او خمسة

---

١ - ٢ - ٣ - ٤ - انور الرفاعي :الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٢٣ - ٢٣٢

٥ - ى - هل : الحضارة العربية ص : ٨٩

٨) - سورة التوبة آية (٦٠)

عشرة قرشا سوريا كان المجموع خمسمئة الف ليرة سورية ومئة وواحد وعشرين مليون ليرة سورية (٥٠٠ ٠٠ ١٢١٥) وهو مبلغ عظيم في ذلك الوقت ولانستبعد امكانية المغالاة فيمثل هذه الارقام لكن الدولة في ذلك الوقت امتدت رقعتها شرقا وغربا وشملت مناطق غنية ولم يكن الحصول على تلك المبالغ شيئا مستحيلا ٠

ويروى(١) ايضا ان المحمول الى بيت المال فيعهد الرشيد كان سبعة الاف وخمسئة قنطارا سنويا وذلك يعادل الكثير غير الضريبة العينية التي تشمل الحبوب والانسجة وغيرهما٠وقد بلغ دخل الدولة الاجمالي في عهد الرشيد في بعض السنين (٣١٢٠٠٠ ٥٣٠) درهما و (٤٥٠٠٠٠٠) دينارا (٢) هذا وكانت تركة الرشيد على الرغم من التبذير والاسراف اللذين شهرا بهما تسعمئة مليون درهما (٩٠٠٠٠٠٠٠٠) درهما (٣) ٠

وكان اهم مورد لجلب المال هو الخراج ولذا سنتوقف عنده بعض الشيء ٠

د ـ الخـــراج

آ ـ تعريف الخراج :

هو مقدار معين من المال اومن المحصول اومنهما معا يؤخذ عن الارض التي فتحها المسلمون عنوة اذا ما عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ويؤخذ عن الارض التي افاء بها الله على المسلمين

---

١) احمد شلبي : في قصور الخلفاء العباسيين ص٦٦ـ٦٧ مك الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤

٢) احمد فريد رفاعي: عصر المأمون ج ١ ص ١٣٥ مط دار الكتب المصرية طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٨٨ ٠

٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٨٨ تحقيق مصطفى السقا ، مط مصطفى البابي الحلبي ط اولى القاهرة ١٩٣٨ ٠

فملكوها وصالحوا اهلها على ان يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه الى بيت المال (١) اما الارض التي لاخراج عليها فتسمى عشرية حيث تأخذ الدولة عشر منتوجها .

٢- طرق الخراج :

كان الخراج منذ فجر الدولة الاسلامية الى عهد الخليفة المهدى يستعمل طريقة المساحة ومعناها ضريبة معينة تقدر على مساحة معينة من الارض تجبى سنويا دون النظر الى العوامل الطبيعية والظروف الخاصة بالارض واصحابها .(٢) والتي كانت تؤثر على انتاج الارض اذ كثيرا ما كانت تختلف كميات المحصول من سنة لاخرى لكن الدولة لم تكن تراعي ذلك حيث بقيت الضريبة ثابتة ، وفي هذا اجحاف وضرر لاهل الخراج .

ولما تولى المهدي الخلافة اراد ان يبدأ عهده بتحسين ظروف معيشة الرعية حتى يمتص غضبها ونقمتها وحتى لايترك للخصوم فرصة يؤلبون بها الناس على السلطة اومنفذا للداعين الى العدالة يدخلون منه في صراع مع العباسيين ونفوذهم . بدأ عهده اذا بالعدول عن نظام المساحة والعمل بنظام المقاسمة (٣) ، فحدث بذلك تطور بالغ الاهمية بين السلطة والرعية لان هذا النظام كان عموما ومن حيث المبدأ ، فيسالح الفلاحين والمزارعين ، حيث تتقاسم الدولة مع الافراد المنتجين ماينتج من محصول بنسب متفق عليها بغض النظر عن مقدار المساحة وبهذا يتغير الخراج بتغير كميات المحصول .(٤)

---

١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٢٦٥ مكتبة النهضة المصرية طاولى القاهرة ١٩٣٩

٢) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية فيالدولة الاسلامية ص٤١٧

٣) ضياء الدين الريس : المرجع نفسه ص٤١٦ - ٤١٧

٤- ضياء الدين الريس : المرجع نفسه ص : ٤١٧

وقام بتنفيذ هذا النظام ابو عبيد الله ، وزير المهدى ، فحدد نسب المقاسمة كما يلي : النصف على الاراضي التي تسقى سيحا (١) والثلث على الاراضي التي تسقى بالدوالي * والربع على تلك التي تسقى بالدواليب(٢).

٣- التشدد في الخراج :

رأينا من قبل ما امتلأت به خزائن الدولة من مبالغ ضخمة وكان اغلبها جاء من الخراج الذي كان ينقل سنويا الى مركز الخلافة بعد ان يصرف شيء منه على الاقاليم وكان في كل اقليم عامل او عمال يقومون بجباية الخراج وكانت مهمتهم هي الحصول على الضريبة المفروضة بشتى الوسائل والطرق ومنها التعذيب الجسدي بجميع اصنافه ، فقد ذكر الجهشياري (٣) ان المهدى امر ان يعامل اهل الخراج باللين واليسر ويبعث بالرسل الى جميع العمال برفع العذاب عنهم ، وهذا دليل واضح على ان المزارعين كانوا يعذبون في جميع الاقاليم . لم يستفد المزارعون من هذا القرار العادل لان المصادر التاريخية تنبئنا انهم بقوا يعذبون على امتداد الدولة العباسية . كان هذا القرار شعاع نور بسيط في ليل طويل من الظلم والاضطهاد والتعسف في جباية الخراج ، جعل خزائن الدولة تمتلئ بالدراهم وبدنانير الذهب على حساب الجماهير الكادحة .

وبهذا وقعت الدولة في خطأ كبير ، فانهاكها للمزارعين هو انهاك لها ايضا ، اذ جلا اكثر الناس عن الاراضي بسبب القهر وثقل الضرائب فتركوها خرابا. ولعل اصدق تعبير عن هذه الفكرة ما قاله جعفر بن يحيى من ان :

---

١) سيحا : اى تسقى بالماء الجاري (لسان العرب)

* الدوالي: جمع دالية وهي شيء يتخذ من خوص وخشب يسقى به بحبال تشد في رأس جذع طويل) (كتاب الخراج ليحيى بن آدم تحقيق ابي الاشبال احمد محمد شاكر ص ١١٥ المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ هـ .

٢) ضياء الدين الريس: الخراج والنظم الاسلامية ص ٤٢١

٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٤٢-١٤٣

" الخراج عماد الملوك ... واسرع الامور فيخراب البلاد تعطيل الارضيين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ، ومثل السلطان اذا اجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع ، فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية اخرى ، وما ادخل على نفسه من الضعف والوجع اعظم مما دفع عن نفسه من الم الجوع ..... واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء فيالسلطان"(١) .

ولاهمية الخراج طلب هارون الرشيد من ابي يوسف ، قاضي القضاة ان يؤلف له كتابا فيهذا الشان ، وموضوعات هذا الكتاب تغنينا عن التعليق عليه حيث تتناول موارد بيت المالوالطرق المثلى لجبايتها والشؤون التيتصرففيها . لكن الذى يهمنا منه ان صاحبه شاهد معاصر على الاساليب البشعة التيكان يتبعها عمال الخراج فيالحصول علىالاموال حين يقول : " انهم ـ (عمال الخراج) ـ يأخذون ذلك فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدى" (٢) ويقول ايضا : " انهم يقيمون اهلالخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام" (٣) .

حدث كلهذا بعد ان اصدر المهدى امره بالكف عن تعذيب المزارعين الذين كانوا قبله يعذبون بالسياط والزنابير والسنانير.(٤)

---

١) الابشيهي : المستطرف فيكل فن مستظرف : ج ١ ص ١٠٨ مط دار الفكر بيروت مصورة عن مط الاستقامة مصر ١٣٧٩ هـ .

٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص١٢٨

٣) ابويوسف : المرجع نفسه : ص ١٣١

٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٤٢ ـ ١٤٣

وتجد على امتداد العصر العباسي الاول نصوصا كثيرة تدل على التشدد واستعمال جميع الطرق والحيل لاخذ اموال الناس ، ففي سنة (١٥٥ هـ) لجأ المنصور الى حيلة اراد بها معرفة عدد سكان البصرة والكوفة حتى يجبيهم عن اخرهم ، فأمر ان يقسم فيهم خمسة دراهم لكل فرد ، فلما عرف عددهم امر بجبايتهم اربعين درهما لكل فرد فقال شاعر منهم بسخرية موءلمة :(١)

يا لقومي ما لقينا ... من اميم المومنينا
قسم الخمسة فينا ... وجبانا الاربعينا

ويذكر الكندى (٢) ان موسى بن مصعب تشدد في استخراج الخراج بمصر وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به ولجأ الى الرشوة في الاحكام وجعل ضريبة على الاسواق والدواب مما جعل الشاعر يقول :

لو يعلم المهدى ما الذى ... يفعله موسى وايوب
بأرض مصر حين حلا بها ... لم يتهم في النصح يعقوب

وطبعي ان امرا كهذا كان سيواجه من قبل المزارعين والفلاحين بالرفض الذى يتمثل عادة في الامتناع عن دفع الخراج اولا ثم الثورة على صاحب تلك القوانين الجائرة ثانيا .

وهذا الخليفة هارون الرشيد نفسه عندما عاد مرة الى بغداد من احدى رحلاته اخذ الناس بالبقايا فتم استخراجها بالضرب والحبس .(٣) وفي عهده ايضا اساء واليه على الموصل ، يحيى بن سعيد ، السيرة في اهلها وظلم الناس وطالبهم بخراج سنين مضت فجلا اكثر اهل البلد .(٤) وفي عهد الرشيد كذلك عين على خراج مصر اسحاق بن سليمان الهاشمي

---

١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ج ٨ ص٤٦ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥ مط دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥

٢) الكندى: الولاة والقضاة ص١٢٥ مط الاباء اليسوعيين تهذيب رفن كست بيروت ١٩٠٨

٣) الطبرى : المصدر السابق ج ٨ ص : ٢٧٢

٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٦ ص : ١٥٣

بعد عزل عبدالله بن المسيب ،فاخذ اسحاق هذا فيما عادة النظر في امر خراجها فلم يرض ماكان يوخذ منهم من قبل وزاد عليهم زيادة فاحشة فكرهه الناس لذلك وسأموه فخرجت عليه جماعة من اهل الحوف من قبيلتي قيس وقضاعة فحاربهم.(١) وكان على خراسان علي بن عيسى الذى قتل اهلها وجمع اموالا جليلة وحمل الى الرشيد الف بدرة حريرية فيها عشرة الاف درهم.(٢) وفي زمن الواثق بالله كان محمد بن عبدالملك الزيات يعذب المصادرين والناس في تنور به مسامير . (٣) .

هذه فكرة بسيطة عن الاساليب التي كان يلجأ اليها عمال الخراج والولاة في استخراج الخراج من المزارعين ، وامر كهذا كان لابد ان يعود على الاقتصاد الوطني للدولة الاسلامية بنتائج سلبية لان تلك القوانين الجائرة والتي اثقلت كاهل الفلاحين جعلتهم يرحلون ويتخلون عن فلاحة الارض زيادة على الثورات التي تسببت فيها تلك المعاملات القاسية .

٤- الزيادة في الخراج:

هذا التشدد في جباية الخراج مرده الى ان المزارعين لم يكونوا يستطيعون دفع ما فرض عليهم من الضرائب التي كان بعض العمال او الولاة يزيدون فيها باستمرار ،فنتج عن ذلك كثير من التذمر الذى تلته الانتفاضات والثورات .

---

١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص٨٧ دار الكتب المصرية ط اولى القاهرة ١٩٣٠

٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٢٨

٣) ابن الطقطقي : الفخرى في الاداب السلطانية ص٢١٤ المط الرحمانية مصر ١٩٢٧

والامثلة علىتلك الزيادة المجحفة فيالخراج كثيرة جدا فكماذكرنا سابقا لم يرض والي مصر ، اسحاقبن سليمان به بما كان يؤخذ من قبل فزاد علىالقومزيادة ادت بهم الىالخروج عليه ومحاربته (١)
وامتنعوا مرة اخرى عن اداء ضريبة الخراج في ولاية الحسين بن جميل مما اضطر الدولة لمحاربتهم واخذها بالقوة .(٢) وحتى الخليفة المأمون نفسه له قصة مع اهل قم الذين طمعوافي انيخفض عنهمالخراج كمافعل معاهل الري ، لكنه لميستجب لطلبهم ، فامتنعوا عن تأدية مافرض عليهم فوجه المأمون اليهم الجيوش وزاد عليهم في الخراج فجبوا سبعة الاف الف درهم بعد ان كانوا يتظلمون من الفي الف درهم .(٣) .

ولاداعي للاكثار من الامثلة ففي هذا الكفاية .والملاحظ ان المصادر ذكرت لنا احوال اهل مصر اكثر من غيرهم حتى بدوا وكأنهم هم وحدهم الذين كانوايثورون علىتلك القوانين الضريبية الظالمة . لكن من المؤكد ان سكان الاقاليم الاخرى كانوا يلجؤون ايضا الى الثورة اذا ماأحسوا بالظلم علىالرغم من ان المصادر لم تذكر ذلك الا قليلا لان الكتب التي وصلت الينا كتبها اما مصريون او عراقيونبمعنى اخر كتبها من كانوا يسكنون مصر اوالعراق ولميقيض للاقاليم الاخرى رجال ليكتبوا عنها او ان ماكتب عنهاقد ضاع لان العادة عند المؤلفين القدامى جرت علىكتابة تواريخ الاقاليم كتاريخ الموصل أوتاريخ واسط وما الىذلك .

---

١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص : ٨٧
٢) الكندى: الولاة والقضاة : ص : ١٤٣
٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص٦١٤

٥ ـ خراج الاقاليم :

كان خراج الولايات اما نقديا اوعينيا اوهما معا ، وكان هذا الخراج يوءتى به الى دار الخلافة ببغداد في اوقات محددة . ويذكر لنا الثعالبي نماذج من ذلك ، فقد كان يحمل سنويا ثلاثون الف تفاحة مع خراج حمص ودمشق الذى بلغ اربعمئة الف دينار(١) . وكان خراج الاهواز سنويا خمسة وعشرين الف درهم مع ثلاثين الف رطل من السكر (٢) ، وكان يحمل مع خراج ارمينية والذى قدره ١٣ الف الف درهم ثلاثون بساطا محفورا وثمانون قطعة من الرقم وثلاثون بازيا ، وكان خراج اصبهان واحدا وعشرين مليون درهم مع عشرين الفرطل من العسل ومثلها من الشمع .(٣) وبلغ خراج الموصل اربعة وعشرين مليون درهم مع عشرين الف رطل من العسل .(٤) وحمل من الرى مئة الف من الرمان والفرطل من الخوخ المقدد مع خراجها الذى كان اثنى عشر مليون درهم (٥) . اما مصر فقد كان يضرب بها المثل في الكثرة عينا ونقدا ، فقد كانت الخيل والدواب ودق الطرز مع خراجها الذى بلغ في بعض السنين اربعة ملايين دينار (٦) .

---

١) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص: ٥٣٢ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ م

٢) المرجع نفسه ص ٥٣٧

٣) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٨

٤) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٨

٥) الثعالبي: المرجع نفسه ص ٥٣٩

٦) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٠

وربما كانت هذه الارقام مبالغا فيها غير ان كتب التاريخ حفظت لنا قائمتين للخراج فيعهدى الرشيد والمأمون تؤكدان الوحد هذه الارقام، والملاحظ ان القائمتين متشابهتان وربما كانتا في عهد خليفة واحد ، وهما :

اولا : صورة لقائمة من قوائم الخراج فيعهد الرشيد (١) :

١ ـ اثمان وغلات السواد :	٨٠ ٧٨٠ ٠٠٠	درهم
٢ ـ ابواب المال بالسواد :	١٤ ٨٠٠ ٠٠٠	=
٣ ـ كسكر :	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	=
٤ ـ كوردجلة :	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	=
٥ ـ حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	=
٦ ـ الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٧ ـ فارس :	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٨ ـ كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	=
٩ ـ مكران	٤٠٠ ٠٠٠	=
١٠ ـ السند وما يليها :	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	=
١١ـ سجستان	٤ ٦٠٠ ٠٠٠	=
١٢ـ خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	=
١٣ ـ جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	=
١٤ ـ قومس	١ ٥٠٠ ٠٠٠	=
١٥ ـ طبرستان والريان ودنباوند	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	=
١٦ ـ الرى	١٢ ٠٠٠	=
١٧ ـ اصفهان	١٢ ٠٠٠	=
١٨ ـ همذان ودستبي	١١ ٨٠٠ ٠٠٠	=
١٩ ـ البصرة والكوفة	٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠	=

١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٨١ حتى ص ٢٨٨

٢٠ ـ شهرزور وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	درهم
٢١ ـ الموصل وما يليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٢٢ ـ الجزيرة والديارات والفرات :	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٢٣ ـ اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٢٤ ـ موقان وكرخ	٣٠٠ ٠٠٠	=
٢٥ ـ جيلان	(مئة رأس الخ ..)؟	
٢٦ ـ ارمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	درهم
٢٧ ـ قنسرين والعواصم	٤٩٠ ٠٠٠	دينار
٢٨ ـ حمص	٣٢٠ ٠٠٠	=
٢٩ ـ دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	دينار
٣٠ ـ الاردن	٩٦ ٠٠٠	=
٣١ ـ فلسطين	٣٢٠ ٠٠٠	=
٣٢ ـ مصر	١ ٩٠٠ ٠٠٠	=
٣٣ ـ برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	درهم
٣٤ ـ افريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٣٥ ـ اليمن سوى الثياب	٨٧٠ ٠٠٠	دينار
٣٦ ـ مكة والمدينة	٣٠٠ ٠٠٠	=

ويكون الورق * مع العين اوقيمة العين : خمس مئة الف الف وثلاثين الف الف وثلاث مائة الف واثني عشر الف درهم اوبلغة عصرنا : خمسة مئة وثلاثون مليون درهم وثلاث مئة واثنى عشر الف درهم .

صورة اخرى لقائمة من قوائم الخراج ولكن في عهد المأمون : (١)

---

*الورق : الدراهم المضروبة وربما سميت الفضة ورقا (لسان العرب)

١) احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون : ج ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢

١ ـ السواد	٢٧٫٨٠٠٫٠٠٠	درهم
٢ ـ كسكر	١١٫٦٠٠٫٠٠٠	=
٣ ـ كوردجلة	٢٠٫٨٠٠٫٠٠٠	=
٤ ـ حلوان	٤٫٨٠٠٫٠٠٠	=
٥ ـ الاهواز	٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٦ ـ فارس	٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٧ ـ كرمسان	٤٫٢٠٠٫٠٠٠	=
٨ ـ مكران	٤٠٠٫٠٠٠	=
٩ ـ السند وسايليه	١٦٫٥٠٠٫٠٠٠	=
١٠ ـ سجستان	٤٫٠٠٠٫٠٠٠	=
١١ ـ خراسان	٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠	=
١٢ ـ جرجان	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠	=
١٣ ـ قومس	١٫٥٠٠٫٠٠٠	=
١٤ـ طبرستان والريان ودنباوند	٦٫٣٠٠٫٠٠٠	=
١٥ ـ الري	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠	=
١٦ ـ همذان	١١٫٣٠٠٫٠٠٠	=
١٧ ـ البصرة والكوفة	١٠٫٧٠٠٫٠٠٠	=
١٨ ـ شهرزور	٦٫٧٠٠٫٠٠٠	=
١٩ ـ الموصل ومايليها	٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٢٠ـ اذربيجان	٤٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٢١ ـ الجزيرة	٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٢٢ ـ ارمينية	١٣٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٢٣ ـ برقة	١٫٠٠٠٫٠٠٠	=
٢٤ـ افريقية	١٣٫٠٠٠٫٠٠٠	=

ـ ٢٥ قنسرين	٤٠٠ر٠٠٠	دينار
٢٦ ـ دمشق	٤٢٠ر٠٠٠	=
٢٧ ـ الاردن	٩٧ر٠٠٠	=
٢٨ ـ فلسطين	٣١٠ر٠٠٠	=
٢٩ ـ مصر	٢ر٩٢٠ر٠٠٠	=
٣٠ ـ اليمن	٣٧٠ر٠٠٠	=
٣١ ـ الحجاز	٣٠٠ر٠٠٠	=

ويكون المجموع بالدراهم بعد تحويل الدنانير على اساس ان الدينار يساوى ١٥ درهما : اربع مئة وثمانية وتسعين مليون وثمان مئة وخمسة وخمسين الف درهم اى : (٤٩٨ر٨٥٥ر٠٠٠) درهم .

و ـ ظاهرة الاستصفاء

انها ظاهرة قلما نجا منها وزير حتى في العصور المتخلفة للدولة العباسية ولعل السبب في ذلك دون تعميم ـ يعود الى تكالب اولئك الوزراء على جمع الاموال بشتى الطرق مطبقين بذلك مبدأ الخليفة المنصور نفسه حين اوصى ابنه المهدى بانه لايزال عزيزا مادام بيت ماله عامرا .(١) وهي ظاهرة قديمة بدأت مع فجر الدولة الاسلامية فقد كان عمر بن الخطاب يحاسب الولاة لدى عزلهم ويأخذ منهم مازاد على اموالهم الاصلية . اما في العصر العباسي الاول فانها سنة سنها ابوجعفر المنصور بعزل وزيره الموريانى ومصادرته واستصفاء ماله وحبسه ..(٢) ولاتهمنا كثيرا الاسباب

---

١) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤١٥

٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص ٢٤

التيكان الخلفاء يعزلون من اجلها وزراءهم فربما كانت وجيهة كشكوى الناس من ظلم بعضهم وبطشه وربما كانت ذاتية او لظروف سياسية معينة او فقط من أجل الحصول على المال لان هذه الظاهرة عمت بعد ذلك سائر رجالات الحكومة بل وحتى الرعية واصبحت اسرع مصدر للحصول على المال.(١) لكن الذي يهمنا هو تلك الاموال المكدسة التي وجدت عندهم لدى عزلهم واستصفائهم • من اين اخذوها وكيف تحصلوا عليها ؟ فقد عزل المهدى ابراهيم بن صالح والية على مصر واخذ منه ومن عماله ثلاث مئة الف دينار. (٢) اما جعفر بن يحيى فقد وجد فيداره بركة فيها اربعة الاف دينار وزن كل واحد منها مئة دينار ودينار كتب على الوجه الاول منه :

واصفر من دار الملوك يلوح على وجهه جعفر

وعلى وجهه الثاني كتب :

يزيد على المئة واحدا اذا نالـه معسر يسر(٣)

ويروى ايضا ان عثمان بن عمارة كان على سجستان ايام الرشيد فطولب بخمسة الاف درهم وحبس. (٤)

وفي عهد المأمون طغى والي اذربيجان ، علي بن هشام ، طغيانا شديدا فظلم الناس واخذ منهم الاموال مما حمل المأمون على قتله .(٥)

---

١) احمد فريد رفاعي: عصر المأمون ج١ ص ٣١٢

٢) ابن تغرى بردى : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٩ وما بعدها

٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٤١

٤ ـ ابن الجراح : الورقة ص١٦ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج مط دار المعارف ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٣

٥ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٢٦

وفي ايام المعتصم عزل الوزير الفضل بن مروان وصودر فأخذت منه اموال كثيرة يقول البيهقي (١) انها بلغت مليونا وستمائة الف دينار بينما يقول ابن تغرى بردى (٢) انها كانت عشرة الاف الف دينار .

اما الواثق فقد التفت الى الكتاب فحبسهم، فقد اخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار ومن سليمان بن وهب اربعة عشر الف دينار، ومن ابراهيم بن رياح وكتابه مئة الف دينار ومن احمد بن الخصيب وكتابه مليون دينار و من نجاح ستين الف دينار ومن ابي الوزير مئة واربعين الف دينار (٣) .

كما لاحظنا من قبل كانت الاموال التي تاتي الى دار الخلافة كثيرة جدا ومع ذلك فقد كان الخلفاء يلجؤون الى ظاهرة الاستصفاء هذه وذلك لانهم كانوا بحاجة الى المال باستمرار وهذا ناتج عن سوء التخطيط لانهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من تلك الاموال. ثم انهم كانوا يبذرونها في وجوه لا نفع عاما فيها بل كان بعضهم يصرفها على ملذاته ويهمل حق الشعب في تلك الاموال ، هذا مع العلم ان الفقه الاسلامي حدد وجوه صرف اموال المسلمين. وكانت هذه التحديدات معروفة لكن احدا لم يكن يطبقها من الخلفاء العباسيين الا في بعض الامور النادرة .

---

١) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٥٣٠ دار صادر بيروت ١٩٧٠

٢) ابن تغربردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٣٣

٣) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٧ ص ١٠

الفصل الثاني
الحالة السياسية

١ - تمهيد :

آ - تنظيم الدعوة العباسية

ب - الانقلاب الاموي

٢ - الواجهة السياسية :

آ - تذمر الناس من بني العباس

ب - الحزب الحاكم : العباسيون

ج - احزاب المعارضة :

١ - الشيعة

٢ - الخوارج

د - الثورات والانتفاضات .

تمهيـــد :

دام حكم بني امية حوالي مئة عام اى منذ مقتل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الى ان انتصر السفاح على مروان بن محمد ، لكن في الحقيقة دام حكمهم اكثر من ذلك ، فمنذ ان اصبح عثمان بن عفان خليفة وشوكتهم تزداد قوة ، فجعلوا من الشام مركزا لهم وبقي معاوية ابن ابي سفيان فيها مدة طويلة يتصرف وكانه هو الخليفة .

لقد عانى الشعب خلال حكمهم وعرف الويلات تلو الويلات وخاصة اولئك الوافدون الجدد على الاسلام اذ كانت دولة بني امية تتعصب للعرب، ولعل هذه المقولة التي اطلقها الجاحظ فيها شيء من المبالغة لان العرب لم يستفيدوا من بني امية اللهم اولئك الاغنياء الذين هم في اغلب الاحيان رؤساء قبائل ، اما عامة العرب فكانت غيرهم من الموالي .

لقد ناقض الامويون تعاليم الاسلام باحياء العصبيات القبلية ويكفينا ان نتذكر نقائض جرير والفرزدق والاخطل ومدى انتشار انصار كل واحد منهم بين الناس لنعرف مدى تلك الهوة التي حفرها بنو امية حتى يستطيعوا السيطرة على الملك لانهم كانوا يضربون العصبيات بعضها ببعض فيلهو القوم عن المطالبة بتحسين اوضاعهم وما شابه ذلك .

ثم ان بني امية هم اول سلالة حكمت المسلمين والعرب و جعلت الخلافة وراثية فياسرة واحدة مما جعل الثورات عليهم تزداد يوما بعد يوم وخاصة من قبل الخوارج والشيعة حتى او هنوهم وتسببوا في انهزامهم اخيرا امام بني العباس .

.....

آ - تنظيم الدعوة العباسية

ليس في نيتنا ان نخوض في هذه المسألة التي تحدث عنها عدد كثير من الباحثين لكننا مع ذلك نقول ان الدعوة العباسية استفادت جدا من الحركات الثورية قبلها واعتبرت بها فتجنبت الاخطاء التي وقعت فيها تلك الثورات ، كانت الحركات من قبل تأتي محدودة في الزمان والمكان اذ انها تنحصر في منطقة كالحجاز او الشام وترتكز في غالبيتها على العصبية العربية ولم تكن لها الجيوش الكافية والمنظمة تنظيما يساعدها على مواجهة القوات الحكومية على الرغم من شجاعة افرادها وصحة مبادئهم وبكلمة واحدة كان ينقصها التخطيط الكافي المتاني الذي يأخذ بالحسبان جميع الاحتمالات ويحتاط لشتى الظروف حتى يكسب لها النجاح .

الحركة العباسية قديمة في الزمن اي ليست وليدة الفترة التي ظفت فيها على السطح . كان القائمون عليها يخططون فيصمت متبعين مبدأ التقية حتى حانت الفرصة المناسبة فانقضوا على اعدائهم وخصومهم الامويين ولولا كفاءتهم لما استطاعوا التغلب عليهم، فمن ذلك انهم اهتبلوا الفرصة التي كان فيها البيت الاموي ضعيفا منقسما على نفسه .

لانريد ان نبحث في الاسباب التي جعلت الثورة العباسية تنتصر لكن لابأس لو قلنا انها كانت اي الثورة العباسية، اعلنت برنامجا خاصا ساعدها على الانتصار بحيث استطاعت بفضله ان تكسب الجماهير وان تجلب اليها العديد من المتذمرين . واهم ما في هذا البرنامج هو تغيير الاوضاع التي كان يعيشها المجتمع العربي الاسلامي آنذاك فقد كانت الدولة تعامل المسلمين من غير العرب على انهم في مستوى اقل من العرب ، وكانوا

يحرمونمن المناصب والمسؤوليات . اما العرب فقد كانوا يقاسون من الظلم ابنا وعدم تطبيق الشريعة الاسلامية فيجميع الامور زيادة على الاوضاع الاقتصادية المتردية التيكانوا يعانون منها جميعا ، عربا وغير عرب

واستغل العباسيون ورقة اخرى رابحة وهي قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن نعرف مدى احترام الناس لهذه القرابة وكيف كانت ومازالت مثلا يحرك الجماهير ويدفع في قلوبهم الشجاعة والحرارة والطمأنينة . كانوا يتبركون بهذه القرابة ويرون فيها خلاصا لهم ولاننسى ان شعار الدعوة العباسية كان : " الرضا من آل محمد " .

وكان ظاهر البرنامج براقا فقد كان العباسيون ينادون بحقهم الوراثي فيالخلافة على الرغم من ان الرسول (ص) نفى ان يورث الانبياء . وكانوا يروجون ان بني امية سلبوا السلطة وليسوا بأهل لها وانهم ظلموا الناس وقهروهم واثقلوا عليهم بالضرائب ؛ استغل العباسيون اذا كل تلك الاوضاع ، فقد وجدوا في السخط العارم على بني امية خير معين يستقون منه الانصار ويكونون منه الجيوش ويجمعون الاموال الامر الذى جعل هذه العناصر التي دخلت حلبة الحكم والسياسة ومنهم الفرس - تلعب في مستقبل الدولة العباسية ادوارا خطيرة وتحتل المناصب العالية حتى استحوذت علىالسلطة في اخر المطاف .

واشترك اخيرا في الثورة الفقراء والمعدمون من فلاحين وعبيد ، والاغنياء المتوسطون الذين لم يكن لهم نفوذ في العهد الاموى ، والعرب وغير العرب اضافة الىجميع الفئات التي كانت ثائرة من قبل على الامويين .

بعد انتصار الثورة حصر العباسيون السلطة فيهم بعد ان كانوا ينادون للرضا من آل محمد فابعدوا الشيعة بمختلف فروعها . وبدهي

انهم جعلوا هذا الرضا منهم ، وكان عليهم حينئذ ان يظهروا بمظهر الائمة الاتقياء ، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، وعلى هذا الاساس كان لخلفاء بني العباس وجهان بعد تلك الدعاية الضخمة التي قاموا بها اثناء ثورتهم من ان اولئك الملوك الامويين ابتعدوا بالخلافة الاسلامية عن اصولها وجعلوها كسوورية وراثية ، وبعد كل هذا نجد للعباسيين حياتين ، عامة وخاصة ، فمن جهة كان حكمهم يتخذ صيغة (التيوقراطية) بمعنى انهم خلفاء الله في ارضه وكانت هذه الصيغة هي : الشكل التاريخي (الايديولوجي) لهذه السيطرة (١) ومن جهة ثانية كانت لهم " شخصية مستورة هي شخصية الملوك المترفين المدفوعين اجتماعيا وموضوعيا لان يستمتعوا بكل ما تحت ايديهم من الخيرات المادية التي تجبى لهم من جهد الاخرين."(٢) .

وقد وقع العباسيون فيالمزالقنفسها التي وصموابها النظام السابق، فقد ادى نظامهم الى" حكم استبدادي من طراز اكاسرة الفرس السابقين" (٣).

---

١) حسين مروة : النزعات المادية فيالفلسفة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٨

٢) المرجع نفسه : ج ٢ ص ١٩٨

٣) ى - هل : الحضارة العربية ص : ٨١

ب - الفتك بالامويين

كانت معركة الزاب هي الفيصل فيالصراع الذى برز الى السطح بين العباسيين والامويين ،فيومها انهزمت جيوش مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية وتفرقت فلوله وبدأ الانتقام الكبير من المنهزمين حتى ان بعض المؤرخين يسمي اول خليفة عباسي بالسفاح لكثرة ماسفك من دماء بني امية واعماله السيف فيهم(١) وان كانت هناك تفسيرات اخرى لهذا اللقب .

وامر السفاح ولاته فيّ الامصار والاقاليم بتتبع الامويين والقضاء عليهم اينما كانوا ، واستغل بعض الشعراء هذه المناسبة فراحوا يحرضون على قطع شجرة بني امية واستئصالها . فقد ذكر ابن الاثير ان سديفا الشاعر دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك وقد اكرمه فقال سديف :

لايغرنك من ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لاترى فوق ظهرها امويا

فقال سليمان : " قتلتنيياشيخ ." ودخل السفاح واخذ سليمان فقتل(٢).
وهناك رواية اخرى تحكى ان الشاعر العبدى دخل على عبدالله بن علي بفلسطين وعنده من بني امية اثنان وثمانون رجلا فانشد الشاعر قائلا :

---

١) سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص ١٠٦

٢) ابن الاثير : الكامل ٤٢٩/٥ وابن الطقطقي : الفخرى في الاداب السلطانية ص ١٠٩
وابن العماد : شذرات الذهب فياخبار من ذهب ١٨٧/١ مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٠ هـ

اما الدعاة الى الجنان فهاشم ... وبنو امية من دعاة النار
بنو امية دوحة ملعونة ... ولهاشم في الناس عود نضار
أ أمي مالك من قرار فالحقي ... بالجن صاغرة بأرض وبار
ولئن رحلت لترحلين ذميمة ... وكذا المقام بذلة وصغار

فأمر عبدالله جنده فوضعوا على بني امية السيف حتى ماتوا. (١)

وثمة رواية اخرى حول عبدالله بن علي بفلسطين حين دخل عليه شبل بن عبدالله مولى بني هاشم وعنده من بني امية ثمانون رجلا فانشد شبل هذه الابيات وهم على الطعام: (٢)

لاتقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل نقلة وغراس
اقصهم ايها الخليفة واقطع ... عنك بالسيف شأفة الارجاس
ذلها اظهر التودد منها ... وبها منكم كحر الهواجس
ولقد غاظني وغاظ سرائي ... قربهم من نمارق وكراسي
انزلوها بحيث انزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس

وقال احد شيعة بني العباس كذلك: (٣)

اياكم ان تلينوا لاعتذارهم ... فليس ذلك الا الخوف والطمع
لو انهم امنوا ابدوا عداوتهم ... لكنهم قمعوا بالذل فانقمعوا
اليس في الف شهر قد مضت لهم ... سقوكم جرعا من بعدها جرع

---

١) ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ٤٧/١ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد مط حجازي ط ١ القاهرة ١٩٣٤
٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٤٣/٥ وتنسبها ابن المعتز الى سديف ابن ميمون (طبقات الشعراء ص ٣٩ دار المعارف ط ٢ القاهرة ١٩٦٨
٣) الاصفهاني: الاغاني ج ٤ ص ٣٥١ طبعة مصورة عن دار الكتب .

حتى اذاما انقضت ايام مدتهمُ منّوا اليكم بالارحام التي قطعوا
هيهات لابد ان يسقوا بكأسهمُ ربا وان يحصد الزرع الذى زرعوا
اياكمُ ان يقول الناس انهمُ قد حكموا ثم ماضروا ولا نفعوا

ولكن يجب الا نظن ان هؤلاء الامويين قتلوا بسبب هذا الشعر فما قول سديف وشبل الا حلقة بسيطة في سلسلة الانتقام التي كان يبيت لها العباسيون منذزمن طويل والتي اوجبتها ظروف موضوعية وذاتية معا .

٢ ـ الواجهة السياسية

آ ـ تذمر الناس من بني العباس :

قبل ان نتحدث عن الاحزاب السياسية في العصر العباسي الاول لابد لنا من نظرة سريعة عن موقف الناس من العباسيين والذى يمكن ان يدفعهم لان ينضموا لهذا الحزب او لذاك . لقد انتصر العباسيون بسبب برنامجهم المعلن وهو (الدعوة للرضا من آل محمد) حيث يجلب هذا الرضا الطمأنينة للعباد ويقيم العدل والعدالة بينهما ويرسي المساواة التي نادى بها الاسلام والتي خرج عنها بنو امية فينظر الكثير من الشعوب الداخلة في الاسلام حديثا ، فمن ذلك انشطت ظاهرة استفحلت فيما بعدوهي ظاهرة الشعوبية التي ينظر اليها الكثير من الباحثين على انها سلبية وهي كذلك غير انها جاءت نتيجة ظروف معينة تسببت فيها سياسة الامويين من قبل والعباسيين من بعد ، وكان من بعض معانيها الاستقلال الوطني اوالوطنية .

جاءت الدعوة العباسية اذا مطمحا لمختلف الشعوب التي كانت تهيمن

عليها السيادة الاموية ، دعوة تفاءل الناس بقرابة القائمين عليها من الرسول (ص) ، وكانت آمالهم عريضة في التغيير من ذلك الوضع ونشدان المثل الاعلى للعدالة والمساواة .

وبعد فترة استتب الامر للحكام الجدد وهلل الناس لذلك لكن انكشف الامر في فترة قصيرة وجلا كل خفي فتبين للقوم ان ليس" جور النظام العباسي وعسفه ... بأقل من النظام الاموى . " (١) فبعد سنة واحدة فقط من تولي بني العباسي السلطة بقيادة السفاح " خرج شريك بن شيخ المهرى ببخارى على ابي مسلم ونقم عليه وقال : ما على هذا اتبعنا آل محمد ، ان تسفك الدماء وان يعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه اكثر من ثلاثين الفا ... " (٢) وهكذا بدأ التذمر ينتشر شيئا فشيئا بين الناس حتى تحول فيما بعد الى ثورات كثيرة انهكت الدولة العباسية. فقد ذكر الاصمعي ان المنصور" لقي اعرابيا بالشام فقال : احمد الله يا اعرابي الذى رفع عنكم الطاعون بولايتنا اهل البيت ، قال : ان الله لايجمع علينا خسفا وسوء كيل ،ولايتكم والطاعون " (٣) .
وهذا دليل واضح على ان الناس لم يكونوا راضين عن ولاية بني العباس والاسباب التي دعت الناس الى السخط كثيرة منها ظلم الولاة في جباية الخراج والزيادة فيه كما ذكرنا سلفا ومنها الزيادة في الاسعار مثلا حيث يقول ابو العطاء السندى :

---

١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس ج ١ ص : ١٧٠ - ١٧١ طبع وكالة المطبوعات ط اولى الكويت ١٩٧٣

٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٤٨

٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ مط دار الفكر ١٩٧٤

بني هاشم عودوا الى نخلاتكم فقد قام سعر التمر ما بدرهم
فان قلتم رهط النبي وقومه فان النصارى رهط عيسى بن مريم(١)

ولاننسى ان هذا الشاعر مدحهم فيالبداية ثم انقلب عليهم حين لم يجد في حكمهم خيرا ومن حقه ان يكون كذلك فعوض ان يزيد العباسيون من رفاهية الرعية باتباع سياسة حكيمة في الامور الاقتصادية ، وجدنا الخليفة المنصور يلزم الناس بلبس القلانس الطوال التي كانوا يعملونها من القصب والورق ويكسونها بالسواد ، شعار العباسيين ،حتى قال ابودلامة ساخرا : (٢)

وكنا نرجي من امام زيادة فزاد الامام المصطفى فيالقلانس
تراها علوهام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

وخيب العباسيون كذلك رجاء القوم في اقامة العدل والمساواة بينهم حتىقال ابو العطاء السندى مرة اخرى : (٣)

ياليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

---

١) يوسف خليف : حياة الشعر فيالكوفة الىنهاية القرن الثاني الهجرى ص ٤٣٩ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ م

٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص٤٢ وابن الاثير:الكامل ٦١/٥ والحصرى القيراوني: جمع الجواهر في الملح والنوادر(ذيل زهر الاداب) ص١٠٧ مط عيسى البابي الحلبي ط ١ القاهرة ١٩٥٢ وابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ٢٠/٢ .

٣) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص ١٧١

ويماثله حسرة مطيع بن اياس حين يقول : (١)

حبذا عيشنا الذى زال عنا	حبذا ذاك لاحبذا ذا
اين هذا من ذاك سقيا لذا	ك ولسنا نقول سقيا لهذا

وتتساوى الامور فيعين المستهل بن الكميت حين رأى ان العباسيين لم يغيروا شيئا من شقاء الناس وخوفهم حين يقول : (٢)

اذا نحن خفنا فيزمان عدوكم	وخفناكم ان البلاء لراكد

هذا الحنين الذى نلمسه فيشعر هؤلاء الشعراء الى العهد السابق ليس فيالحقيقة حنينا الىالماضي وتمنيا برجوعه لكنه يأس من الحاضر ومرارة منه لانهم حين شعروا بالظلم اثناء الحكم السابق ثاروا عليه واستطاعوا ازاحته ، اما الحكم الجديد فقد خدعهم بشعاراته بحيث ساعدوه على الاستيلاء علىالسلطة ومنهنا جاءت خيبتهم لان لهم يدا في هذا الوضع الجديد ، حينئذ شعروا بالمسؤولية فاحتد الصراع في انفسهم وراحوا فيلحظات اليأس الكبرى يتمنون عودة الحكم السابق ويبكونه . لكنهم مع ذلك تحلوا بشجاعة نادرة عند اعلامهم على سخطهم.وتعددت الامثلة في التصدى للسلطان لدى عامة الناسفقد ذكر الطبرى ان المهدى خطب يوما فقال: " عباد الله ، اتقوا الله ، فقام اليه رجل فقال : وانت فاتق الله ، فانك تعمل بغير الحق " (٣) ولقي مرة شعيب بن حرب هارون الرشيد فقال له : " ياهارون ، قد اتعبت الامة والبهائم ، فقال: ممن الرجل؟ فقلت : رجل من المسلمين ...." (٤) .

---

١) البهبيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى ص ٣٧٣

٢) ابن الجراح : الورقة ص ٨٣

٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٨١/٨

٤) شوقي ابو خليل :هارون الرشيد ص ٤٨ دار الفكر ط اولى دمشق ١٩٧٧

ولم ينحصر هذا السخط في الخلفاء فحسبك تعداهم الى كل من لـــه علاقـة بالسلطـة من امراء وقواد وعمال وولاة الا ان الناس كانوا يرجعون اللوم كله الى الخليفـة ، رأس السلطـة ، الذى عينهم جميعا كما قـــال احد الشعراء: (١)

ان الامير اذا استعان بخائن كان الامير شريكه فيالمأثم

وقريب من هذا المعنى ماقاله احمد بن ابراهيم : (٢)

اميرنا يرتشي وحاكمنـا يلوط والرأس شر ما رأس

وانفجر هذا السخط لديه حتى قال من القصيدة نفسها : (٣)

انطقني الدهر بعد اخراس لنائبات اطلن وسواسـي

لا احسب الجور ينقضي وعلى الامة وال من آل عبـــــــــاس

ويثور بعضهم الاخر على النظام الملكي من اساسه ويرى فيه الشر اينمـا حل مستفيدا بذلك من اى القرآن الكريم كما يقول الشاعر (٤) .

ان الملوك بلاء حيثما حلـوا فلا يكن لك في افنائهم ظـل

---

١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس : ق ١ ص٥٧٤ تحقيق محمـد مرسي الخولي الدار المصرية للتأليف والترجمة

٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٢ ص : ٣٢٩ المطبعـــة البهية المصرية القاهرة ١٣٤٦ هـ

٣) المسعودى : المصدر نفسه ج ٢ ص : ٤١

وابن العماد : شذرات الذهب فياخبار من ذهب / ٤١/٢

٤) ابن عبدالبر القرطبي : المصدر السابق ق ١ ص٣٤٠ .

ب : الحزب الحاكم : العباسيون

ان التركيبة السياسية في العصر العباسي متشعبة متعددة معقدة كتعقيد مجتمعهم نفسه ، لكننا لو نظرنا الى واجهتهم السياسية لوجدناها تزخر بما يلي : حزب حاكم واحزاب معارضة فيها الشورى وفيها المسالم وفيها السرى وفيها الذى يعمل في وضح النهار ، لان بني العباس لم يلقوا ابدا التأييد الكامل اللهم الا في ايامهم الاولى حيث كان لهم انصار كثيرون،وبفضل قوة اولئك الانصار استطاعوا ان يعتلوا العرش لمدة من الزمن طويلة لانجد لها مثيلا لدى السلالات الاخرى التي وصلت الى الحكم في تاريخ العرب ،وان كان عصرهم الذهبي يتمثل في القرن الاول لخلافتهم الممتدة مابين حكمي السفاح والواثق حيث كان الخليفة هو صاحب الكلمة المطلقة وصاحب الامر والنهي دون منازع ، وكان مطاعا تنفذ اوامره بقوة السيف في جميع الاقاليم التابعة لامبراطوريته لايكاد يشاركه فيالرأى احد ، وكان مستبدا يقتل منيشاء ويمنح الحياة لمن يريد ، يغني منيشاء ويفقر من يشاء . كان له فيذلك القرنمهابة كبيرة فينفوس الناس لكنه تحول مع الايام الى لعبة طيعة في يد الطامعين في الحكم والمتسلطين عليه من ترك وفرس وغيرهم حتى صار القوادالعسكريون يعينون الخليفة ويعزلونه ما ارادوا ذلك فوضع الخليفة كرمز لاغير لاسباب سياسية دون انيكون له ادنى نفوذ .

ومنذ البداية وحتى فيعصرهم الذهبي كان الصراع حادا وشرسا بين العباسيين انفسهم حول السلطة ، وقد بلغ عددهم كما يذكر ابن الاثير في عهد المأمون ثلاثةوثلاثين الفا.(١) وطبيعي ان يدخل الطمع الى نفوس بعضهم وما الذى يمنعهم وهم الاسرة الحاكمة ؟ وهم رهط الرسول

---

١)ابن الاثير : الكامل فيالتاريخ ج ٦ ص ٣١٩

(صلى الله عليه وسلم) وقومه ؟ لقد امتلأت فترة حكمهم بالدسائس والموءامرات وتلك ثغرة دخل منها الوهن اليهم واسهم في تحطيمهم وفي جعلهم في النهاية لعبة بين ايدى العسكريين . وكان للخلفاء انفسهم اليد الطولى فيذلك دون ان يشعروا ، فمن تقاليد نظامهم انهم لم يضعوا قواعد ثابتة لولاية العهد ، اذ كانت حسب المصادفة وليس حسب قواعد ثابتة وقوانين واضحة حيث لم تكن ولاية العهد للابن الاكبر دائما بل كانت احيانا للابن الاوسط والاصغر دون الاكبر وقد تكون للاخ او لابن الاخ او العم او ابن العم الخ... زيادة على انها لم تكن تحصر في شخص واحد بل كان يعهد بها في الوقت نفسه لاثنين اوثلاثة بالتسلسل. ولعل عذرهم فيهذا هو خوفهم ممايخبئه الغد فقد يحدث مكروه لولي العهد دون انيسمي ولي عهده حين يتولى السلطة كما حدث للهادى .

والان لو نستعرض بسرعة مشكلة ولاية العهد في العصر العباسي الاول وما حدث بسببها من موءامرات ودسائس وحروب وما انعكس عنها من ويلات على الرعية لعرفنا مدى الخطأ الذى وقع فيه النظام العباسي،فقد عهد ابو العباس السفاح بولاية العهد لاخية ابي جعفر المنصور ومن بعده لابن اخيه عيسى بن موسى بن علي الملقب بالمرتضى (١) غير ان ابا جعفر نقض العهد كما هومعروف ولجأ الىجميع الوسائل من تهديد ومراوغة وضغط وترغيب حتى اضطر المرتضى أن يتنحى في النهاية فبايع المنصور لابنه محمد وسماه المهدى . واما في عهد المهدىفقد بدأت الموءامرات فيحياته حول السلطة فقد سمى ابنيه الهادى وهارون بالتسلسل مما اضطره في النهاية الى تنحية ابنه الاكبر تحت الحاح زوجه واعوانها غير ان الابن رفض الامرفخرج الاب اليه لكنه مات في الطريق . وما ان وصل الهادى الى الحكم حتى بدأ مناوراته من اجل تنحية اخيه هارون الرشيد وتعيين

---

١) عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص ١٢٣ مكتبة الانجلوالمصرية طبعة اولى القاهرة ١٩٧٣ .

ابنه بدله ، لكن المنية عاجلته هو الاخر قبل ان يتم له ذلك فآلت الخلافة الى الرشيد (١) .

وعلى الرغم من ان الرشيد عانى من مشكلة تعدد اولياء العهد الا انه لم يعتبر بها حتى عرف الناس اكبر محنة بسببه حين غين ابناءه الثلاثة الامين والمأمون والقاسم حتى قال بعض الشعراء فيذلك:(٢)

اقول لغمة في النفس مني ... ودمع العين يطرد الكرادا
خذي للهول عدته بحزم ... سنلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك ان بقيت رأيت امرا ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأى مالو تعقبه بحلم ... لبيض مفارقه السوادا
اراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم و يبتذلوا السوادا
فقد غرس العداوة غير آل ... واورث شمل الفتهم بدادا
والقح بينهم حربا عوانا ... وسلس لامتنا بهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد اهدى لها الكرب الشدادا
والبسها بلاء غير فان ... والزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لايرون لها نفادا
فوزر بلائهم ابدا عليه ... اغيا كان ذلك ام رشادا

وكما قال الشاعر فان الضحية الاولى لذلك الصراع هي الرعية لانها ليس لها من يحميها من المتصارعين . لقد كانت الرعية ميدان صراعهم مع ان الرعية لم يكن يهمها لمن يؤول الامر لانها كانت تعلم ان ذلك الصراع لن يعود عليها بخير سواء انتصر هذا الفريق ام ذاك .

---

١ - عبدالمنعم ماجد : المرجع السابق ص ١٢٣ وما بعدها
٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٧٧

وربما كان هذا موقفا سلبيا من الرعية لكننا لانلومها لو عرفنا ان الظروف لم تساعدها بحيث لم توجد لها قيادة يمكن لها ان تستغل الظروف وتنقض على السلطة لتعيدها الى الشعب ، لان الرعية في جميع العصور تحتاج الى قيادة توجهها نحو اهداف معينة ، لكن في ذلك العصر نجد ان هم الرعية دوما في ان تعيش في سلام وفي ان تتوفر لها اسباب الحياة الكريمة كما قال الشاعر : (١)

اذا العيش ساعدنا سنا نبالي من كان الاماما

لانها فعلا لم تربح من الصراع الدائر حول السلطة الا المتاعب فقد كثر الفقر و البضائع كما قال عمرو بن عبدالملك الوراق :(٢)

لم يبق في بغداد الا بؤ حالفه الفقر كثير العيال
ان صار ذا الامر الى احد صار الى القتل على كل حال
مابالنا نقتل من اجلهم سبحانك اللهم ياذا الجلال

واحسن وصف للدمار الذى لحق بالناس هو ما قاله الاعمى من قصيدة رائعة :(٣)

تقطعت الارحام بين العشائر واسلمهم اهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن اظهرنا من الذنب توبة ولا نحن اصلحنا فساد الضرائر
ولم نستمع من واعظ ومذكر فينجع فينا وعظ ناه وآمر
فأبك على الاسلام لما تقطعت عراه ورجى ضره كل كافر

---

١) مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى ص١٨٤ مط دار المعارف القاهرة ١٩٦٣

٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٦٠

٣) الرفاعي: عصر المامون ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦

فاصبح بعض الناس يقتل بعضهم ... فمن بين مقهور عزيز وقاهـــر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه ... وصار رئيسا فيهم كل شاطـــر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة ... ولايستطيع البر دفعا لفاجـــر
تراهم كامثال الذئاب رأت دما ... متـه لاتلوى عـ زجر زاجـــر
واصبح فساق القبائل بينهـم ... تسل علىاقرانـ بالخناجـــر
فابك لقتلى من صديق ن اخ ... كريم ومن جار ق مجـــاور
ووالدة تبكي بحزن على ابنها ... فيبكي لها من ة كل ظائـــر
وذات خليل اصبحت وهي ايـــم ... وتبكي عليه بالدموع البـــوادر
تقول له قد كنت عزا وناصرا ... فغيب عني اليوم عزى وناصـــرى
وابك لاحراق وهدم منـــازل ... وقتل وانهاب اللهى والذ خائـــر
وابراز ربات الخدور حواسرا ... خرجن بلا خمر ولا مـــآزر (١)
تراها حيارى ليس تعرف مذهبا ... تواقر امثال الظباء النوافـــر
كان لم تكن بغداد احسن منظرا ... وملهى رأته عيـ لاه وناظـــر
بلى هكذا كانت فأذهب حسنهـا ... وبدد منها الشمل حكم لقـــادر
وحل بهم ماحل بالناس قبلهم ... فأضحوا احاديثـا لباد وحاضر

ان هذه القصيدة تبين لنا مدى بشاعة الحرب الاهليـة التي يختفي فيهـا النظام وتتعطل فيها جميع النشاطات كماقال الخريمي : (٢)

الكرخ اسواقـه معطلـة ... يستن عيارها وعابرهـا

وهناك قصيدة اخرى تصف لنا حياة الناس اثناء تلك المحنة وهي شبيهـة بقصيدة الاعمى ولكن لامانع من ذكرها وهي لاحد فتيان بغداد (٣) :

---

١) الشطر الثاني في هذا البيت مكسور وربماكانت (ولابمآزر)
٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣١٠
٣) الرفاعي: عصر المأمون ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

بكيت دما علوبغداد لما ... فقدت غضارة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتها من الحساد عين ... فأفنت اهلها بالمنجنيق
فقوم احرقوا بالنار قسرا ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصباحا ... وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى اب ... ووالدها يفر الى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلاءلاءة البروق
حيارى كالهدايا مبكيات ... عليهن القلائد في الخلوق
ينادين الشفيق ولاشفيق ... وقد فقد الشفيق من الشفيق
وقوم اخرجوا منظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأس يقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا ... فما يدرون من اى الفريق
فلا ولد يقيم على ابيه ... وقد هرب الصديق من الصديق

وفي الحقيقة ان هذه القصائد تغنينا عن ذكر الاهوال التي تعرضت لها الجماهير اثناء تلك المحنة والتي لم يسلم منها احد .

جـ - الاحزاب المعارضة :

١ - الشيعة :

لعل الشيعة اقدم حزب سياسي عربي تطور مع تطور الدولة العربية منذ عهد آخر الخلفاء الراشدين وحتى الان على الرغم من انقسام الشيعة الى عدة فرق تبدو مختلفة في ظاهرها لكنها متفقة في الجوهر والهدف . نشأت هذه الفرقة بسبب الصراع على الخلافة التي كانت ترى ان احقيتها

تعود الى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وولده بعده لأن عليا وولده يمثلون النسل المباشر للرسول (ص) عن طريق ابنته فاطمة الزهراء .

وقد كان للشيعة دور كبير في الثورات التي قامت ضد بني أمية فلحقتهم بسبب ذلك مصائب جمة فمات منهم خلق كثير قتلا وغدرا وكانت مصارعهم مآسي عظيمة حتى كتب ابو الفرج الاصفهاني - وهو أموي الولاء - كتابا بعنوان " مقاتل الطالبيين " .

وكان لهم كذلك دور كبير في انتصار العباسيين على أساس أن الدعوة كانت للرضا من آل محمد ، ولم يكونوا يشكون في أن هذا الرضا منهم غير ان الظروف والمصادفات لعبت دورها في انتقال رئاسة تلك الثورة منهم الى العباسيين ، وبعد ما أنفرد بنو العباس بالسلطة وتهيأ كل شيء وظهر ما كان خفيا ثار الشيعة من جديد لكن هذه المرة على بني عمومتهم غير أن كل ثوراتهم باءت بالاخفاق على الرغم من أن بعضها كان عارما واجتاح مناطق عديدة كما بقي بعضها مدة طويلة نسبيا وكل هذا كان يؤرق السلطة المركزية في بغداد لأنها تعرف ان اخطر خصومها هم بنو عمومتها .

لم تكن ثورة الشيعة من أجل السلطة فقط بل صارت كما كانت في العهد الاموي أمل الرعية في خلاصها من الكابوس المهيمن على رأسها والمتمثل في الحكم العباسي ، فقد رأينا فيما سبق كيف بدأ التذمر من بني العباس وكيف انتشر وتطور حتى أصبح ثورات جارفة وعارمة .

وأول ثورة للشيعة في العصر العباسي الأول كانت ثورة النفس الزكية بالحجاز فاستولى على المدينة المنورة ومكة المكرمة (سنة ١٤٥ هـ) وبايعه أهل خراسان ومصر والشام وكذلك السند ولكن سرعان ما قتل محمد النفس الزكية مع أخيه بعد مدة قليلة من ثورتهما وكان هذا الاخ ، وهو ابراهيم ، قد استولى على البصرة في السنة نفسها.[1] ويبدو أن النفس

---

(١) - عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص : ٨٧ حتى ٩٦

الزكية تسرع بعض الشيء ولم يعتبر بالثورات التي انطلقت من الحجاز وهو اى الحجاز قليل العدد ولايمكن ان يوفر عناصر كثيرة تسهم في الحرب مع العلم ان العدد وحده لايكفي . ثم ان التنسيق بينه وبين اخيه لم يكن محكما بدليل ان اخاه ابراهيم ثار بعده بفترة ولم يثورا في وقت واحد حتى يشتتا جيوش الخلافة العباسية .

وخرج الحسن بن علي (سنة ١٦٩ هـ) واعلن ان حركته تستهدف منع الظلم وسمي بصاحب فخ لانه قتل بها في العام نفسه (١) .

ولعل اخطر ثورة لهم تلك التي قامت (سنة ١٩٩ هـ) بقيادة ابي السرايا او السرى بن منصور فقد حرض هذا الاخير شخصية علوية هو محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا الا ان هذا الاخير مات فجأة وربما قتل ، بعد ان نجحت دعوته في الكوفة ، فقد التحق به خلق كثير من اعراب الكوفة ونواحيها . وبعد ابن طباطبا وجهت الدعوة الى محمد بن محمد ليتزعم الحركة . واستولى ابو السرايا على البصرة مستعينا بعلوى آخر اسمه زيد النار ، وامتدت الحركة الى الحجاز لكن ابا السرايا هزم بعد ما تدخل جيش المأمون بقيادة هرثمة بن اعين .(٢)

والملاحظ كذلك ان هذه الثورة لم تستغل الخلافات العباسية في ذلك الوقت .

وفي السنة نفسها اى في (١٩٩ هـ) خرج علوى اخر باليمن واسمه ابراهيم ابن موسى الكاظم من احفاد جعفر الصادق فتمكن من اخلاء اليمن ، وبقيت تحت سيطرته طوال مدة بقاء المأمون بخراسان .(٣) ويبدو ان التنسيق لم يكن موجودا بين هاتين الثورتين .

---

١) عبدالمنعم جاد : العصر العباسي الاول : ص ١٨٠ وما بعدها
٢) المرجع نفسه ص ٣٠٨ وما بعدها
٣) المرجع نفسه ص ٣١٣ - ٣١٤

٢- الخـــوارج

ظل الخوارج منذ تكونت منظمتهم رافعين لواء الديمقراطية وكانت ثوراتهم لهذا السبب تندلع من حين لاخر على خلفاء بني امية ينتصرون فيها شيئا من الزمن ثم تدور عليهم الدوائر فيخمدون على ان يقوموا مرة اخرى عندما تتوفر لهم الشروط اللازمة . لقد كانت قضيتهم منذ البدء سياسية لكنها مع مرور الايام اصبحت سياسية اجتماعية . كانوا يثورون لمشكلة الحكم فصار العدل الاجتماعي ورفض الظلم والدفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة .(١)

وهكذا ما ان كاد العباسيون يلتقطون انفاسهم حتى عاد الخوارج الى الظهور في جنوب شرق الجزيرة العربية بقيادة رجل اسمه شيبان بن عبد العزيز ويكنى ابا الدلفاء وذلك عام (١٣٤ هـ) ثم امتدت حركته الى فارس وجزيرة كاوان بالخليج العربي (٢) ودامت هذه الحركة حتى خلافة ابي جعفر المنصور .

وظهر خارجي اخر في الجزيرة التي كانت دائما منطلقا ووكرا لهم اسمه ملبد بن حرملة الشيباني عام (١٣٨ هـ) .
ورفض هذا القائد مئة الف درهم قدمها اليه حميد بن قحطبة ليكف عن القتال ، ويقي يهزم الجيش تلو الجيش من جند الخليفة حتى تمكن خازم منه في الاخير .(٣) .

وفي المكان نفسه ظهر بعد عشر سنوات خارجي آخر اسمه حسان بن الصفرية .(٤) واما اول انتفاضة لهم بسجستان فكانت عام (١٥٢ هـ) ثم عادوا مرة اخرى سنة (١٥٨ هـ).(٥)

---

١) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص ٢٢٧
٢-٣-٤-٥) عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ١٢٩ وما بعدها

ولم ينج المغرب العربي من ثوراتهم بل كان اكثرها امتدادا حيث ظلوا هناك ومازالوا حتى اليوم فيجنوب الجزائر بمدينة (غارالداية) التي نزحوا اليها بعد سقوط دولتهم الرستمية التيكانت عاصمتها تيهرت، والفرقة التي هناك من الاباضية ، ومازالواكذلك بجزيرة جربة بتونس.

وقد كانت حروبهم هناك كثيرة فقد ذهب زعيم الاباضيين في المشرق واسمه ابو الخطاب الىالمغرب فجمع خوارج طرابلس وطرد العرب منها عام (١٤٠ هـ) ثم استولى علىالقيروان عام (١٤١ هـ) وبذلك ظهرت اول دولة اباضية كبيرة . (١) لكن جند الخلافة تغلب علىالخوارج سنة (١٤٤ هـ) فقتل ابو الخطاب وخلفه ابوحاتم يعقوب بن ليبد الملزوزى فتمكن من حصار القيروان مرة ثانية وحالفه فيذلك زعيم الخوارج الصفرية ابو فرة الذى جاء في زناتة وفرعها بني افرن لمشاركته فيالحرب وهكذا افتتحت القيروان . (٢) ثم تفرقوا بعد ذلك في الامصار وخبانجمهم.

١- عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص١٣٤ - ١٣٥

٢ - المرجع نفسه ص١٣٦ - ١٣٧

د ـ الثورات والانتفاضات

تمكن البيت العباسي من السلطة ورسخ نفسه فيها بجميع الوسائل على الرغم من تذمر الناس المستمر والمتصاعد • وكثرت الانتفاضات في القرن الاول من حكمهم فقابلوها بالقمع والبطش حتى تحول جيش الدولة الى اداة طيعة فيد السلطة لاخماد اية ثورة او اى تحرك مشبوه • لكن القضاء على الانتفاضات والثورات غير ممكن بل كان مستحيلا لان الاسباب الموجبة لها لم تنتف ولم تنته ، فقد ظل الناس يشعرون بالظلم وعدم المساواة لذا نجد ان" الدافع الاجتماعي •••• هو المحرك الغالب لمعظم الانتفاضات والثورات • " (١) التي شهدتها العصور العباسية المختلفة بدليل مشاركة مختلف الفئات فيها من فلاحين وعبيد وعمال وعرب واعاجم••

واكبر ثورة نجدها فيذلك العصر هي ثورة بابك الخرمي التي بدأت تحركاتها الاولى عام (٢٠١ هـ) فيالجاويدانية • (٢) وسرعان ما انتشرت وعمت مناطق واسعة وشاركت فيها قوميات عديدة من فرس وكرد وارمن وروم وغيرهم من قبائل ماوراء القفقاس•(٣) والسبب في جلب هذا العدد الغفير من الانصار هو برنامج هذه الثورة الواضح فمن اهم بنوده نزع الاراضي والاقطاعات الكبيرة من مغتصبيها وتوزيعها على الفلاحين المحتاجين• (٤) لكن هذه الثورة مع ذلك تعرضت للعديد من محاولات الطمس والتحريف ،

---

١) حسين مروة : النزعات المادية فيالفلسفة العربية الاسلامية ج ٢ ص١٢

٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص٣٢٨

٣) حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ ص ١٥

٤) حسين مروة : المرجع نفسه ج ١ ص٦٩

فالمؤرخون لم يذكروا منها الا الجوانب السلبية اويتجاهلونها او يشوهونها (١) وهي من اطول الثورات بحيث دامت عشرين سنة كاملة .

وقد سبقت هذه الثورة حركة المقنع التي بدأت سنة ١٤١ هـ وانتهت في اواخر ايام المهدي وكانت خراسان ميدانا لها (٢) .

اما المطوعة فسبب ظهورهم ان فساق بغداد وشطارها استفحل امرهم واذوا الناس اذى شديدا فقطعوا الطريق واخذوا الناس والصبيان علانية دون ان تتدخل الدولة لمنعهم . ونفهم من كلام ابن الاثير(٣) والطبري(٤) ان السلطان كان يستحسنهم . وكونوا عصابات عديدة كان بعضها يجبي المارة (٥) ..

وتزعم المطوعة رجل من ناحية الانبار يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه واهل محلته على ان يعاونوه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابوه لذلك ، فشدد على من يليه من الشطار والفساق فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه وارادوا قتاله فقاتلهم فهزمهم واخذ بعضهم فضربه وحبسه ودفعه الى السلطان . (٦) وخلفه رجل

---

١) عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ٤٠٠

٢) ابن الاثير : المرجع السابق ج ٦ ص٣٢٤ - ٣٢٦

٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٥٢

٤) المرجع نفسه ج ٨ ص٥٥٢

٥) المرجع نفسه ج ٨ ص٥٥٢

٦) المرجع نفسه ، ج٨ ص٥٥٢

من اهل الحربية يكنى ابا حاتم وزاد على الدريوش ان دعا الناس جميعا الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر " الشريف منهم والوضيع ، بني هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه اسم من اتاه منهم ..... فأتاه خلق كثير فبايعوا ." (١)

كل هذا زيادة على الانتفاضات التي كان سببها قسوة عمال الخراج والاجحاف في زيادة الضرائب والتي اشرنا اليها في الفصل الاول .

.....

---

١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص٥٥٢

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

.....

تمهيد : تركيبة المجتمع العباسي

آ - الفقر ومظاهره

ب - التبذير ومظاهر الترف

جـ - العدالة والقضاء

.....

....

تمهيد :

لم تتضح الطبقات في العصر العباسي الاول وضوحا دقيقا بسبب المرحلة التاريخية التي كانت تمر بها البلاد عصرئذ غير ان هذا التداخل كان واضحا بالمقارنة مع نموذج الاقتصاد في ذلك العصر ، فقد رأينا بانه كان يمثل خليطا من الاقطاعية وبقايا العبودية المنحلة مع تطور نسبي للصناعات والحرف . وعلى هذا الاساس يصعب تقسيم المجتمع لكننا مع ذلك نلمس وجود فئتين او بالاحرى طبقتين مختلفتين كل الاختلاف ، طبقة الحكام وطبقة المحكومين ،طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء ولايكاد يوجد بينهما شيء .

لقد كانت طبقة الحكام تتمتع بكل شيء وتستمتع به لانها مدفوعة اجتماعيا ، اوموضوعيا ، لان تكون كذلك نظرا لانها تملك كل الخيرات وتملك حق التصرف بها كما يحلولها مما جعلها تغدق على ملذاتها الاموال الطائلة المجبية بمختلف الوسائل من الطبقة الثانية . وكانت الطبقة المحكوم عليها بالفقر تشعر بالفوارق التي كانت بينها وبين الاولى دون ان تمتلك الوعي الطبقي الكافي لتحليل الاوضاع والوصول الى النتيجة الحتمية التي سوف تقضي بموجبها على الاسياد الاغنياء ، وكان بعض عامة الناس يرد ذلك كله الى مشيئة الله والله منه براء ؛ نتج ذلك عن العقلية السائدة آنذاك والتي شارك اولو الامر على ترسيخها في عقول الناس حتى يظنوه قدرا محتوما ، مع العلم اننا لانجمع بحيث نجعل كل اغنياء ذلك العصر مفسدين في الارض .

ومن الطبيعي ان تظهر الى الوجود بعض بوادر الصراع بين الطبقتين وما التعرض شعرا اونثرا لتلك الاوضاع الا ضرب من الصراع ، وان لم يصل الى ذروته الا فيما بعد عندما تفتتت تلك التركيبة التي لم تعد تلائم تتطور المجتمع العربي الاسلامي .

نجد فيذلك العصر وفي موٴلفاته اشارات تقترب حينا من القصد وتبتعد عنه حينا اخر وتكون واضحة طورا وطورا تلتف في صيغ غيبية او اخلاقية ، لكنها تتحدثجميعها عن طبقات المجتمع العباسي وفئاته وشرائحه فيذلك العصر ، فهذا ابو العتاهية يقول مثلا : (١)

واشتد بغي الناس في الارض وعلو بعضهم على بعض

وعلى الرغم من غلاف الحكمة الذي يلف هذا القول فاننا نلاحظ تنبه ابي العتاهية الى الصراع الدائر في عصره بين الناس ، وهذا الصراع طبعا لم يكن شديدا ولاقويا الى الدرجة التي تجعل احدى تلك الطبقات تصفي غيرها نهائيا ليخلو لها الجو . صحيح ان المصالح كانت تتحكم فيمواقف تلك الطبقات لكن لايجوز بأى حال من الاحوال ان نطلق عليها مفهوم الطبقات المعروف في عصرنا هذا لان العناصر والارهاصات الموٴدية لوجود الطبقات بمفهومنا الحديث لم تكن موجودة بل كانت هناك بوادر ونزعات خفيفة لايمكن ان توٴدى الى الثورة بمفهومنا المعاصر .
فأبو العتاهية قد تنبه الى هذه البوادر او الى الظواهر الناتجة عن سوء تقسيم الثروات في ذلك العصر ، فهو يرى ذلك الصراع في شكل علو طبقة على اخرى وهذا العلو مرهون بالوسائل المادية والسياسية التي تملكها هذه الطبقة اوتلك . كان يراه اختلافا في ظروف المعيشة بين الذين هم في اعلى السلم الاجتماعي وبين الذين هم في اسفله ، فهاهو يقول مرة اخرى : (٢)

الناس في الدين والدنيا ذوو درج والمال ما بين موقوف ومختلج

---

١) ابو العتاهية : الديوان ص ٢٠٠ تحقيق شكرى فيصل مط جامعة دمشق ١٩٦٥
٢) ابو العتاهية : المصدر نفسه ص ٩٠

فالشطر الاول يدل دلالة واضحة على ما نحن بصدده .

اما خالد بن صفوان فيقول : " الناس ثلاثطبقات : طبقة علماء ، وطبقة خطباء ، وطبقة ادباء ، ورجرجة بين ذلك يغلون الاسعار ، و يضيقون الاسواق ويكدرون المياه . " (١) وهذا كلام نفهم منه ان مفهوم الطبقة كما نعرفه اليوم لم يكن معروفا ، فعلى الرغم من اشارته الى بعض المشاكل الاقتصادية والمعيشية لذلك العصر فان كلامه يبقى عاما ولا يفي بالغرض الا من جهة واحدة وهي ان بين تلك "الطبقات" - والتي هي في الحقيقة شرائح اجتماعية - رجرجة يغلون الاسعار الخ ..... واعمال هذه "الرجرجة " دليل على الصراع القائم انذاك . ويقول الخليفة المامون :" الناس اربعة : ذو سيادة ، او صناعة ، اوتجارة ، او زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم." (٢) ويقول مرة اخرى عند ذكر اصحاب الصناعات :" السوقة سفل ، والصناع انذال ، والتجار بخلاء والكتاب ملوك بين الناس " (٣) وليس بين القولين اى تناقض كما يبدو للوهلة الاولى ، ففي القول الاول كان المأمون يتحدث من مركز الحاكم الذي يضع مصلحة النظام فوق اى اعتبار وذلك بالحط من كل ما يمس هذا النظام ، ولذا نجده يرى الا فائدة الا من اصحاب التجارة او الزراعة او الصناعة لان هذه يؤخذ على اصحابها ضرائب ، اما تلك الفئة العريضة التي لاتملك شيئا فهو يراها عيالا على غيرها ، لكنه يدين نفسه بنفسه حين يجعل الحكام مرتبطين باصحاب الحرف والصناعات لان الحكام فيالنهاية هم العيال الحقيقيون فيذلك العصر على الفئات المنتجة . اما في المقولة

---

١) ابن عبدربه : العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٩٣

٢) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ١٠٣ ط دار صادر بيروت ١٩٧٠

٣) البيهقي : المصدر نفسه ص ١٠٣

الثانيـة فقد اختلف الامر لان اصحاب الصناعات ، نظرا لمركزهم الخطيـر، كانوا يكونون ضغطا مستمرا على الحكام ، ومن هنا جاءت تلك النعوت التـي وصفهم بها كنذالـة الصناع وبخل التجار وان كان في كلامه بعض الصـدق . وهو كعادته يحط من قيمـة الجماهيـر العريضـة التي لاتملك شيئـا فيقـول السوقة سفل ، وهنا نراه قد جمع بين شيئيـن اولهما تسمية تلك الجماهيـر بالسوقـة لاحتقاره لها وثانيهما الدرجة السفلـى التي الصقها بهم . اما الكتاب الذين نجوا من كلامه فلاءنهم بلاحول ولاقوة امام نفوذه لانهـم مجبرون ان يكونوا تابعين له ولانهم مضطرون الى الاشتغال في دواوين الدولة.

واذا تركنا هذه المظاهر العامـة وتسللنا الى التركيبـة الاجتماعية في العصر العباسي الاول لوجدنا لوحـة متعددة الالوان حيث اختلطت الاجناس واللغات والديانات والثقافات المختلفـة التي بدأ احتكاكها يعطي ثماره بشيء من الوضوح . وبالطبع كان هذا المجتمع يتكون من العنصر العربـي (صاحب السيادة) وبعدهم الموالي وهو الاسم الذى اصبح يطلق على كـل من دخل الاسلام من دون العرب وقد كان لهذا الاسم دلالات اخرى ايضا.(١) وكان عدد الموالي كبيرا يفوق عدد العرب ولذلك كان تأثيرهم كبيرا جـدا في المجتمع الجديد وجعله يتسم بصفات غريبـة احيانا عن العقليـة العربيـة . وقد كان هؤلاء الموالي في العصر الاموى يعدون مواطنيـن من الدرجـة الثانيـة حتى جاءت الثورة العباسية فدخلوا فيها افواجـا وبذلك حققوا لانفسهم مكانة كبيرة في السلطـة . وقد ارتبطت حركـة الشعوبية بهؤلاء الموالي والتي ظهرت بوادرها منذ اواخر العصر الاموى لكنهـا ازدادت تطورا في العصر العباسي الاول لان بعض الموالي اتجهوا الـى

---

١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٥٠

" مناوأة العربية بعصبية اخرى عرفت باسم الشعوبية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالي عن انفسهم " (١) لانهم كانوا يطالبون العرب الحاكمين بالمساواة التي نادى بها الاسلام والتي تغاضى عنها كثير من الخلفاء خاصة وان هؤلاء الموالي دخلوا الاسلام وساروا عربا في لغتهم وافكارهم واعمالهم، فقد برز منهم عدد كبير من العلماء في مختلف الميادين .

وثاني شيء في تلك التركيبة هم اهل الذمة وهم اليهود والنصارى والزرادشتيون والصابئة فقد كانوا يمثلون جزءا لابأس به من المجتمع الجديد وكان لهم دور كبير في ثقافته وذلك في الترجمات التي قاموا بها. وقد كان الاسلام منذ البداية يعامل اهل الذمة معاملة خاصة كما نص القرآن الكريم على ذلك . وقد كان اندماج المسيحيين اكثر من اندماج اليهود في المجتمع الجديد (٢) .

وثالث شيء نجده في هذه التركيبة هو الرقيق فقد ازدهرت في ذلك العصر تجارة الرقيق لاسباب كثيرة كالحروب والفتوحات والغزوات ، فقد كان للنخاسة اسواق في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى احيانا دار الرقيق كما في بغداد وعليها مشرف هو (قيم الرقيق) . وكان للنخاسين عملاؤهم وشهرتهم وقوافلهم كما كانت النخاسة صنعة قائمة بذاتها .(٣) وقد كان هذا الرقيق يجلب من اماكن عديدة ومختلفة كالسودان وشرقي افريقيا عموما وتركيا وتركستان وروسيا والمغرب العربي الخ .... ولهذا فقد كان هناك

---

١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٥٣

٢) المرجع نفسه ص ٢٥٦ حتى ٢٦٣

٣) المرجع نفسه ص ٢٦٧

مزيج من الرقيق الحبشي والتركي والفارسي والبربرى والرومي والشركسي والامني والمقلبي * . وقد كان هؤلاء الرقيق يقومون باعمال كثيرة منها ان الزنوج كانوا يعطون الاعمال الصعبة والشاقة كفلاحة الارض ولاباس ان نتذكر هنا ثورة الزنج التي كان اغلب جندها من الزنوج العاملين في فلاحة الارض وقد اشتهر المقالبة بالاعمال المنزلية الخ .....
كما استغل بعضهم في الخدمات العسكرية .(١) وقد كانوا جميعا يعيشون حياة صعبة قاسية ليس لهم فيها اى حق اومهادنة . اما النساء فقدكن يجلبن لامور اخرى كالتسرى اوالجوارى والقيان ، وكان لهن فضل في اختلاط الاجناس في ذلك العصر حتى كثر ما يسمى بالهجناء وحتى اننا لانجد من خلفاء ذلك العصر من ولد من ابوين عربيين الا ثلاثة هم السفاح والمهدى والامين(٢) وقد ساعدت القيان على انتشار الغناء وتطوره فكثر تعليمهن هذه الصنعة وبيعهن باسعار مرتفعة للاغنياء (٣) .

---

* مقلبي : اصبح يعني العبد في الاندلس ومنه كلمة (ESCLAVE)
انور الرفاعي الاسلام في حضارته ص ٢٦٨

١) المرجع نفسه ص ٢٦٨ - ٢٦٩

٢) المرجع نفسه ص ٢٦٩

٣) المرجع نفسه ص ٤٨٠

آ- الفقر ومظاهـــره

كانت الطبقة الفقيرة تشكل الغالبية العظمى فيالعصر العباسي الاول، ولذا تعددت مظاهر الفقر والبؤس والحرمانكما تعددت بالمقابل مظاهـــر الغنى والترف • وجاء الشعر العباسي الشعبي معبرا عنذلك التناقض بكل وضوح على الرغم من ان مؤرخي الادب ، قدامى ومحدثين ، سكتوا عن شعراء الطبقة المحرومة تلك " وان كنا نرى اللمحة عنهم تمر عرضا والاشارة تومئ الـــى فاقتهم ".(١) وقد جمعنا لهم ما استطعنا من اشعارهم التي سنذكر بعضها فـــي حيات هذا البحث لكننا يمكن منذ الان ان نعرف ما كانوا يعانون منه • كـــان الفقر المدقع معاناتهم جميعا فتحدثوا عنه فيجميع المناسبات بطرق مختلفة،

وهذا امر طبعي لان الشاعر انسان قبل اكشيء اخر،فهو يعيش عصره ويتفاعل معه ويمتزج باحداثه فيؤثر فيها وتؤثر فيه وفي النهاية يصوغ حوصلـــة ذلك الاندماج بعصرهويمشاكله بطريقة فنية فيعطينا قصيدة شعر نابضة بالحياة، غير ان معالجة ذلك تختلف من شاعر الىشاعر انطلاقا من انصهار خصوصيته بعموميات العصر • فهم اذا يكونون كلا متكاملا لا تنمحيفيه معالم الفرد الخاصة لكنها تصب فياطار العام بحيث تكون تلك الروافد قاسما مشتركا بين الشعراء ، فمنهم من عالج الموقف بأسلوب جاد ومنهم من لجأ الى السخرية وحتى الى البهلوانية حتى يستدر عطف الناس وان كان في سخريته ينظر الىالدنيا بمنظار قاتم السواد ومنهم من ثار علىذلك الوضع ونقم عليه محاولا تغييره بشتى الطرق •

---

١) احمد كمال زكي : الحياة الادبية فيالبصرة الونهاية القرن الثاني الهجرى ص ٣٩٣ دار المعارف القاهرة ١٩٧١

ففي النوع الاول نجد شاعرا كابن يسير يتألم لوضعه وبلغت به مأساته حدا تمنى معه الموت لابنة اخته التيكان يحبها كثيرا حتى لاتكون ضحية للفقر ، حين يقول (١) :

لولا البنية لم اجزع من العدم ... ولم اجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
اخشى فظاظة عم اوجفاء اخ ... وكنت اخشى عليها من اذى الكلم
اذا تذكرت بنتي حين تندبني ... جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم
تهوى بقائي واهوى موتها شفقا ... والموت اكرم نزال على الحرم

انها فعلا لقمة المأساة ان تهوى له البقاء ويهوى موتها شفقا عليها من الجوع والحرمان والذل .

واهم ماينتمناه الفقير ان يجد مايعيل به عياله ، من ذلك ماقاله الشاعر ابن سيابة نثرا :" اذا كانت فيجيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة فان المصيبة عندك اكبر منها عند القوم وبيتك اولى بالمأتم منهم." (٢)

اما مزج الواقع المر بالفكاهة فقد كان ابو فرعون الساسي وابو الشمقمق من اربابه ، فأما ابو الشمقمق فيقول : (٣)

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء المحدثين ص : ٢٨٢ - ٢٨٣
٢) الاصفهاني : كتاب الاغاني ج ١٢ ص ٩٠ ط مصورة عن دار الكتب
٣) ابن المعتز : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٢٨

ما جمع الناس لدنياهم انفع فيا لبيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته فانت في امن من الترز *
والقلز من بعد على اثره فانما اللذات فيا لقلز **

واما ابو فرعون الساسي فيقول: (١)

انا ابوفرعون فأعرف كنيتي حل ابو عمرة*** وسط حجرتي
وحلنسج العنكبوت برمتي اعشب تنورى وقلت حنطتي

ووقف شاعر آخر ، واسمه عاذر بن شاكر المعروف بابي المخفف شعره كله على وصف الرغيف وله فيه اشعار ومقطوعات كثيرة فيها شيء من الهزل .
وقد قام هذا الشاعر بثورة على الاساليب الشعرية على غرار ثورة ابي نواس حين استخف بذكر الاطلال وابدلها بالخمر ، لكن صاحبنا استبدلها بالرغيف فهو يرى ان السفاهة في وصف الاطلال والنساء والخمور ، والصواب كل الصواب في وصف الرغيف ، من ذلك قوله: (٢)

دع عنك رسم الديار ودع صفات القفار

---

* الترز : الموت والهلاك (لسان العرب)
** القلز : ضرب من الشرب (لسان العرب)
١) ابوحيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٥٣ تحقيق احمد امين واحمد الزين مط مكتبة الحياة مصورة عن دار الكتب بدون تاريخ
*** ابوعمرة : العرب تسمي الفقر ابا عمرة .
٢) ابن الجراح : الورقة ص ١٤٣

وعد من ذكر قـــوم قد اكثروا في العقار
ودع صفـات الزنانيـــر في خصـور العـــذارى
وصف رغيفا سريـــا حكته شمس النهـــار
او صورة البدر لمـــا استتم فـــي الاستـــدار
فليس يحسن الا في وصفه اشعـــارى

وحين كان الامر يشتد على هؤلاء الفقراء كانوا يلجؤون الى الاماني والامـال يعبرون بها عن ضيقهم وينفسون بها عن شقائهم وكربهم ، ويعيشون بها لحظـات من السعادة وسط حياة كلها غم وهم ويؤس ،ويقول احدهم فتلك الاماني التـي كان يعرف انها اضغاث احلام فقط لاتغني ولاتسمن من جوع : (١)

منى ان تكن حقا تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغـدا

وكثيرا ماكانت المنى رأس مال المفلسين من الناس فهم يرون انفسهم فيهـا وقد هبطت عليهم الاموال الطائلة كما قال احدهم :(٢)

اذا تمنيت مالا بت مغتبطـا ان المنى روس اموال المفاليس
لولا المنى مت من هم ومن حـزن اذا تذكرت ما في داخل الكيـس

ويجد آخرمخرجا لهمومه فيالتمني حين يقول ; (٣)

اذا ازدحمت همومي في فؤادى طلبـت لها المخارج بالتمني

اما ابو الشمقمق فيفصل مايتمناه من دنياه باسلوب ساخر وان كان يقطر فيـه

---

١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص١٩١ تحقيق عبدالسلام هارون مط الحلبي ط ٢ القاهرة ١٩٦٦ / ١٩٦٥

٢) الجاحظ ; المصدر نفسه ج ٥ ص ١٩١

٣) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء البلغاء م١ ج ٢ ص٤٥٤ بدون تاريخ ولاذكر للطبع

دما بقوله : (١)

مناى من دنياى هاتي التـــي	تسلح بالرزق على غيـــرى
الجردق الحاضر مع بضعـــة	من ماعز رخص ومن طيـــــر
وجبـة دكناء فضفاضـــــة	وطيلسان حسن النيـــــر
وبغلـة شهباء طيـــــارة	تطوى لي البلدان في السـير
وبدرة مملوءة عسجـــــدا	ما بالذى اذكر من ضيـــــر
ومنزل فيخيـر ماجيـــرة	قد عرفوا بالخير والميسـر

لكن اولئك الشعراء كثيرا ماينتبهون من غفوة المنى ويتنبهون الى ان المنـــى لاتداوي الخصاصة أبدا كما قال احدهم: (٢)

ولقد علمت - وان نصبت لي المنى - أن الخصاصة لاتداوى بالمنى

كان الشاعر يفيق من احلامه ، وهو المعبر الصريح عن تلك الجماهير الواسعـــة ، ليجد نفسه يتخبط ثانية فيمشاكله اليومية والملحة في آن واحد ،فبعد تلـــك الاموال الطائلـة التي تدفقت عليه في الحلـم وملأ جيوبه يلدغه الجـــوع يبحث عما يسكن به ذلك الالـم البغيض ، ويتبادر الى ذهنه ان في السوق بعض مبتغاه ، لكن الجيب خال والاسعار ترتفع باستمرار مما حدا به الى التحـــدث عنها فيكثيـر من المناسبات ، فمدحة ابي العتاهيـة التي رفعها الى الخليـفة هارون الرشيد تعد ظلامـة تشهد على تدهور الاسعار في ذلك العصر وقلة سبل العيش المتوفرة لدى العامة ، اذ يقول : (٣)

---

١) الجاحظ : القول في البغال ص ١٢٧/ تحقيق شارل بللا مط البابي ط اولى القاهرة ١٩٥٥

٢) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس : ق١ ص١٦٨

٣) ابوالعتاهية : الديوان ص٤٨٧

اني ارى الاسعار اسعار الرعية غالية
وارى المكاسب نزرة وارى الضرورة فاشية

ويذكر الطبري كذلك ان الاسعار غلت " ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ سعر القفيز من الحنطة بالهاروني اربعين درهما والخمسين بالقفيز الملجم"(١)

وزيادة على المشاكل الاقتصادية تظهر مشكلة اخرى وهي تحول بغداد واشباهها من الحواضر الكبيرة في العصر العباسي الاول الى مجتمع قريب من المجتمع الاستهلاكي . فنحن نعرف ان اساس الاقتصاد في ذلك العصر هو الزراعة اى ان الريف هو الذي كان المعول عليه ، اما المدن فقد كانت تنتج ما يمكن ان نسميه بالكماليات ، وهكذا صار سكان المدن عالة على البوادي والارياف اذ كانوا يستهلكون دون ان ينتجوا ما يستهلك غذائيا ، ومع ذلك فقد كثر الوافدون على المدن لتمركز السلطة فيها وجميع المصالح الاجتماعية وغيرها فنشطت هجرة الاقاليم وفرغت الارياف من سكانها لاسباب كثيرة اخرى كظلم عمال الخراج اضافة الى مغريات المدن الكبيرة ، ومن نتائج ذلك كله ان تعاظم دور التبادل النقدي وبالتالي تعاظم دور المال بعد ان كانت التجارة من قبل تتم عن طريق المقايضة اى تبادل بضائع معينة ببضائع اخرى او بمنتوجات غذائية .

وطبعي ان يتأثر الناس بهذا التغير في المبادلات وينعكس ذلك على سلوكهم وتصرفاتهم ، فقد اصبح المال مقياسا للرجال واصبحت كميته هي التي تحدد مركز الانسان في السلم الاجتماعي ؛ وفي هذا يقول عاصم المبرسم(٢) :

---

١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٨ ص: ٥٩٦
٢) ابن الجراح : الورقة ص ٧٤

لله در ابيك اى زمـــان اصبحت فيه واى اهل زمـان
كل يعاطيك المودة داغبـا يعطي ويأخذ منك بالميـزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

انها المصالح تفعل في الناس هذا الفعل .

وفي دور النقود الهام يقول احد الشعراء مثبتا ماذكرناه آنفا :(١)

بعثت في حاجتي رسـولا - - - - يكنى لبادرهم فتمـت
ولو سواه بعثت فيهـا لم تحظ نفسي بما تمنـت

واصبح صاحب المال محترما ذا نفوذ ، مسموعا مطاعا كماقال ابو العتاهية :(٢)

اجلك قوم حين صرت الى الغنـى وكل غني في العيون جميل
اذا مالت الدنيا الى المرء رغبت اليه ومال الناس حيث يميل

وكان أنْ عاش صاحب المال في رغد من العيش بينما رزح المعدمون تحت نيـر العوز والحرمان ، فمدينة كبغداد لامكان فيها للمفلس ابدا كما قال احدهم: (٣)

سقى الله بغداد من جنة غدت للورى نزهة الانفس
على انها منية الموسرين ولكنها حسرة المفلس

ويقول ابو العتاهية فيالمضمار نفسه :(٤)

---

١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٢ ص١٢٧
٢) الشريف المرتضى : امالي المرتضى ج ٢ ص٢٢٨-٢٢٩ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم مط دار الكتاب العربي ط ٢ بيروت ١٩٦٧
٣) النويرى : نهاية الارب فيفنون الادب ج ١ ص ٣٦١ نسخة مصورة عن دار الكتب
٤) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ، ق١ ص : ٥٢٦

اذم بغداد والمقام بهـــا من بعدما خبرة وتجريـــب
ما عند املاكها لمرتغـــب رفد ولافرجة لمكـــــروب
يحتاج راجي النوال عندهـــم الى ثلاث من غير تكذيـــب
كنوز قارون ان تكون لـــه وعمر نوح وصبر ايـــوب

وكذلك يقول احمد بن ابي طاهر فيتسلط المال ونفوذه : (١)

ولايساوي درهما واحـــدا من ليس في منزله درهـــم

ولهذا السبب اطلق ابو الينبغي مثله السائر : (٢)

كم من حمار على جـــواد ومن جواد بلا حمار

وحال كهذه كانت تطعن الفقراء الامر الذى دفعهم الى فعل المستحيل من اجـــل الحصول على الطعام ، ومن هنا بالذات يمكن ان نجد تفسيرا لتلك الظاهرة التي انتشرت على مدى عصور الادب العربي القديمة الاوهي ظاهرة التكسب بالشعـــــر مدحا وهجاء .

ونحن لانلوم الشعراء على ذلك على الرغم من ان بعضهم كان يتملق الممدوحين ويتزلف اليهم فيقول مالايؤمن به وهويعلم انه غش ونفاق حتى يكسب رضاهـــــم ومن ثم يكسب مالهم . كان الفقـــر والحاجة من الاسباب الرئيسة لتلك الظاهرة مع اسباب اخرى ثانوية . مع العلم ان الفقر لم يكن عيبا ولا امرا مكروها فـــي ذاته حسب ذهنيـــة ذلك العصر لان الانسان يكون شريفا مع فقره وقد لايكون ذلـــك مع غنـــاه كما قال ابن هرمة (٣) :

---

١) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء البلغاء ج٢ ص٤٩٨
٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣٠
٣) النويرى : نهاية الارب ٧٨/٣ وطبقات ابن المعتز ص٢١ وبهجة المجالـــس لابن عبدالبر القرطبي ق ١ ص ٦٤

عجبت اثيلة ان رأتني مخلقا ـ تكلتك امك ـ اى ذاك يروع ؟
قديدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

ويوضح اشجع السلمي الفكرة اكثر فيقول:(١)

رويدك ان عز الفقر ادنى الي من الشراء مع الهوان

لكن هذا لايعني ابدا انهم كانوا يرغبون في الفقر وان كان فيه شرف ، بل كانوا يرون ان الفقر قد يؤدى الى الذل ، وهذا صحيح ، فيجعل الانسان يريق ماء وجهه بالطلب والتسول كما قال احدهم (٢):

سجدنا للقرود رجاء دنيا حوتها دوننا ايدى القرود
فما بلت انا ملنا بشيء علمناه سوى ذل السجود

ولكن ما العمل وتلك الظروف لاتأبى الا ان يضطر الانسان لسؤال الناس وان كان شرفه يأبى عليه ذلك ، كما قال ابو الينبغي (٣) :

الا يامالك الناس وخير الناس للناس
انتهاني عن الناس فاغنني عن الناس
والا فدع الناس ودعني اسأل الناس

صرح اولئك القوم بفقرهم على مضض ، وتكبدوا ماتكبدوا ، فمدحوا الاغنياء والاسياد لعلهم يلتقطون شيئا من فتات موائدهم ومن فضلاتهم ، وكان مدحهم تجارة لان الاغنياء لن يعطوهم شيئا بالمجان ، كما قال ابو الشمقمق (٤) :

---

١) الصولي: كتاب الاوراق ، ص ٨٨ نشره ج هيورث دن مط الصاوى ط اولى القاهرة ١٩٣٤

٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٥٩٦

٣ ـ ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

٤ ـ ابن المعتز المصدر نفسه ص ١٢٧

ولقد غورت وليس لـــي الا مديحك تجارة؟

ويمكن ان نتصور الصراع الذي كان يحتدم في نفس الشاعر بين الخيبة والامـــل وهو مقدم على الممدوح ، كانوا يستغيثون لكن الاغنياء صموا اذانهم وصممـــوا على الا يعطوهم شيئا لوجه الله بل لابد من مقابل ، كما صرح الحكم بن عبدل الاسدي بفقره مطلقا في اسماع عصره صرخة استغاثة مازال صداها يرن فـــي اطراف عصرنا حيث يقول (١) :

اخي نفسي فدتك نفسي فاني كما علمت ذاك - عديم

وكيف لايفعل هذا والحاجة تدفعه الى كل شيء ؟ فالفقير لم يعد ملومـــا على ما يصدر عنه من افعال كما قال احد الاعراب بصدق بدوي : (٢)

فلا تلوماني ولوما جابرا * فجابر كلفني الهواجرا

ولعل اسماعيل بن ابراهيم الحمدوني عبر عنهم جميعا بقوله : (٣)

من كان في الدنيا اخا ثروة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كثب حسـرة كاننا لفظ بلا معنـى

هذا بالنسبة الى الشعراء اما عامة الناس الذين لم يكونوا يمتلكون ملكـــة الشعر ليتكسبوا بها او يعبروا بها عن سخطهم فقد كانت لهم وسائل اخـــرى يحصلون بها على ما يلطف من وضعهم ، فقد لجأ بعضهم الى الكدية والتســـول مستعملين في ذلك طرقا وحيلا تحدث عنها القدامى والمحدثون بشيء من التهكـــم والسخرية وجعلوها للتندر .

وتفاقم امر المحرومين من حقهم في العيش وتزايد عددهم حتى انتظموا

---

١) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٤٧٢

٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م١ ج ٢ ص ٦٠٩
* جابر : العرب تسمي الخبز جابرا

٣) الاصفهاني : الاغاني ج ٢٠ ص ٣٠٣ (دار الثقافة بيروت ـ ١٩٦٠

جماعات جماعات فتمردوا على وضعهم التعس وثاروا على السلطان كلما وجـــدوا فرصة لذلك ، فمن ذلك ان تمرد اعراب بادية البصرة (عام ١٦٨ هـ) فقطعـــوا الطريق وانتهكوا المحارم وتركوا امورالدين ، وزاد بطشهم وقوتهم حتى تغلبوا مرارا على جند الخلافة.(١)

ولاغرابة من انهم تركوا امور الدين وفالـ ان ومازال دوما منفـــذا للكفر ، لان الانسا اذا اشتد به الفقر لن يه نذاك الا في الجوع وتوابعه فمن ذلكما حكاه الاصمعي من ان جماعةكانتتصلي وبجا شيخ ملتف بكســـــاء وهويرتعد من البرد الشديد وينشد (٢) :

ايارب ان البرد اصبح كالحا وانت بحالي يا الهي اعلـم
فان كنت يوما في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

فتعجبمنه الاصمعي وقال له : " اما تستحي تقطع الصلاة وانت شيخكبير ؟ فأنشد يقول:(٣)

ايطمع ربي ان اصلي عاريـــا ويكسو غيرى كسوة البرد والحر
فوالله لاصليت ما عشت عاريـا عشاء ولاوقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح الا يوم شمس دفيئة وان غممت فالويل للظهر والعصر
وان يكسني ربي قميصا وجبة اصلي له مهما اعيش من العمر

ويروى لنا الاصمعي ابياتا اخرى فيهذا السياقلشيخ من تميم كان ممسكا باستار الكعبة وهو ينشد (٤) :

---

١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٧٧
٢) الابشيهي : المستطرف في كل فنمستظرف ج ٢ ص ٣٤ - ٣٥
٣) الابشيهي المصدر نفسه ص ٣٤ - ٣٥
٤) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٥٨٥

ايارب رب الناس والمن والهدى	امالي فيهذا الانام قسيم
اماتستحي مني وقد قمت عاريا	اناجيك يارب وانت كريم
اترزق ابناء الطلوح وقد عصوا	وتترك قرما من قروم تميم ؟

وزيادة على ثورة الاعراب تلك تغلب الشطار (عام ٢٠١ هـ) على بغداد فأذوا الناس اذى شديدا وقاموا باعمال غير مشرفة كأخذهم الاطفال والنساء علانية ، وكانوا يجبون المارة ، فواجههم الناس بما سمي بالمطوعة لمحاربتهم حتى تدخل الحسن بن سهل ودفع لهم مالا فأبطلوا اعمالهم.(١)

وخرج الزط ايام المعتصم (عام ٢١٩ هـ) في طريق البصرة فنهبوا وسرقوا واخذوا الغلات من البيادر واخافوا الناس فحاربهم عجيف بن عنبسة وتمكن من الفتك بهم (٢) .

وفي عام (٢٣٠ هـ) خرج عزيزة بن قطاب السلمي على رأس الاعراب فغلب على المدينة وماجاورها ولم يستطع واليها حماد بن جرير الطبرى ان يفعل شيئا معهم ، ونازلهم فقتلوه ، واستباحوا القرى والمناهل وقطعوا الطريق ولم يتغلب عليهم الا القائد التركي بغا الكبير (٣) .

وبسبب ذلك الوضع الناتج عن الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة برزت الى الوجود ظواهر اجتماعية سلبية كالبخل والبغاء وما شابه ذلك ، فاما البخل فقد تحدث عنه كثير من الشعراء وهو كما نعلم يتنافى مع طبيعة العربي المجبولة على الكرم والتباهي به ، فكان البخل عندهم يعيب صاحبه وينقص من

---

١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٢٤

٢) ابن الاثير المرجع نفسه ص ٤٤٣

٣) ابن الاثير المصدر نفسه ج٧ ص ١٢

قدره . اما لماذا استفحلت هذه الظاهرة في العصر العباسي الاول حتى يفرد لها كاتب كالجاحظ كتابا كاملا ، فنظن الامر واضحا وهو تطور المجتمع من مجتمع ذى اقتصاد مبسط الى اقتصاد معقد يلعب فيه المال دورا اساسيا مما جعل البعض يحرص على هذا المال، فحتى الخليفة المنصور شهر بحرصه على المال حتى لقب بالدوانيقي لانه كان يحاسب عماله على الدانق . فالدافع الاول للبخل هو اذا تطور الاوضاع الاقتصادية .

اما البغاء فهو من الظواهر السلبية التي تضافرت عدة عوامل لايجادها منها الانحلال الخلقي الناتج عن الاوضاع السياسية والمعيشية في ذلك العصر؛ فقد رأينا كيف اندحر الفقراء مما اضطر بعضهم الى اللجوء الى جميع الوسائل، شريفة ام غير شريفة للكسب المال ، وكانت هذه الظاهرة موجودة بالفعل ولوان المصادر التي تحدثت عنها قليلة .(١) ومن ذلك ماهجا به بشار احد القائمين بتلك التجارة (٢) :

يا نافخ ابن الفاجرة ... يا سيد المؤاجرة
يا حلف كل داعر ... وزوج كل داعرة
تجارة احدثتها ... فيا لكشخ غير باترة
لو دخلت عفيفة ... بيتك صارت فاجرة
حتى متى ترتع في الخسران يا بن الخاسرة

وانتشرت ايضا الامراض والاوبئة الفتاكة كالسل وربما الكوليرا التي لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ففي السل يقول اشجع السلمي موجها كلامه الى مسلول:(٣)

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ٤ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ (مصورة عن دار الكتب)
٢) هدارة : اتجاهات الشعر ص ١٨٩
٣) الصولي : الاوراق ص ٢٩ -

ابا الاطـــول طولـت وما ينفع تطويـل
بك السـل ولا واللـــه مـــا يبرأ مسلـــــــــــول

كل هذا زيادة على العوامل الطبيعية القاسية كالقحط والجفاف والعواصف حيـث يبدو ان الدولـة لم تكن تساعد رعاياها فيمثل تلك الظروف ناهيك عن الحـروب الكثيرة التي عرفها ذلك العصر مما تسبب في المجاعات والاوبئـة الناتجة عـــن ذلـــك .

هذا وضع الفقراء عموما في ذلك العصر ، وعلى العكس نجد الاغنياء الذيـن دفعهم وضعهم الممتاز الى ان يتمتعوا بخيرات الدنيا وملذاتها ، فكثر التزندق الذي ما هو الى نتيجة حتمية لتفسخ ذلك المجتمع بسبب كل تلك الاوضاع ، وراحت مجالس الشرب واللهو تنتشر في كل مكان فيه الاغنياء وما اللهو والغنـــاء والقنص وجلب الرقيق الا دليل على ذلك .

.....

.....

ب- تبذير مال المسلمين ومظاهر الترف

ان مظاهر الفقر التي رأينا سابقا قابلتها مظاهر الترف والغنى ،وما تبذير المال الا مظهر واحد منها . هذا المال الذى تجمع لدى الخلفاء وبعبارة اخرى لدى الاغنياء اخذ احيانا بالقوة من اصحابه بدعوى حق الدولة في فرض الضرائب المختلفة على رعاياها . وكان من المفروض ان يعود هذا المال بالفوائد على تلك الجماهير التي اخذ منها .

لقد بين القاضي ابو يوسف في الفصل الثالث من كتاب الخراج الوجوه التي تصرف فيها اموال المسلمين ، لكن الخلفاء من قبله ومن بعده لم يكونوا دائما يقومون بصرف الاموال في وجوهها تلك بحيث تفيد العامة ومختلف فئات المجتمع ، فلم نجد في كتب التاريخ الا نبذا قليلة عن ذلك مثلما يحكى عن المنصور من انه بعث الى بعض عماله مالا وامره ان يفرقه في الايتام والقواعد والعميان . (١) كما اجرى المهدى الارزاق على المجذمين (٢) وكفى الواثق فقراء مكة والمدينة حتى انه لم يوجد بهما في عهده سائل .(٣) اما ما عدا امثال هذه الاعمال فقد كانت اموال المسلمين تصرف في شؤون لا علاقة لها بالرعية ، فقد روت لنا كتب التاريخ والسير اخبارا متنوعة عن التبذير والاسراف اللذين شهر بهما اغلب خلفاء العصر العباسي الاول وان كان ابن خلدون يرى " ان الامة اذا تغلبت وملكت ... تتجاوز ضرورات العيش وخشونته الى نوافله .... فتكثر رياشها ونعمتها وتنزع الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والانية الخ ..." (٤) .

---

١) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص : ٥٨٧

٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥٧

٣) ابن الاثير : المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٠

٤) ابن خلدون : المقدمة ج٢ ص ٤٨٠ -٤٨١ تحقيق علي عبدالواحد وافي لجنة البيان العربي ط اولى القاهرة ١٩٥٧ م

وهذا صحيح من جانب واحد فقط بالنسبة للعصر العباسي الاول ، لان التوافل التي يتحدث عنها ابن خلدون لم ينعم بها الا اصحاب السلطة واتباعهم اما عامة الشعب فقد كانت تعاني الجوع والحرمان ، وفعلا نجد ان المهدي مثلا زار مرة " صاحب شرطته عبدالله بن مالك واهداه اربعمئة بغل موقرة دراهم " (١) .

ومن ذلك ان احمد بن اسماعيل ، صبر يعقوب بن داوود ، سمع هذا الاخير يقول : " بنى هذا الرجل - اى المهدى - متنزها انفق عليه خمسين الف الف درهم من اموال المسلمين " (٢) .

ومن ذلك ايضا ان الهادى حين تولى الخلافة قال للحراني.. " احمل الى اخي - يقصدها رون الرشيد - الف الف دينار واذا افتتح الخراج فاحمل اليه النصف منه واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا وما اخذ من اهل بيت الله فيأخذ جميع ما اراد." (٣) وغني عن الذكر ان هذا الكرم كان بسبب سياسي بغية تنحية الرشيد عن ولاية العهد .

والرشيد نفسه لم ينج من هذا التبذير حيث نجده يعطي العباس بن الاحنف الشاعر اربعين الف درهم على اربعة ابيات قالها في رثاء هيلانة جارية الرشيد ، والابيات هي:

يا من تباشرت القبور لموتها	قصد الزمان مساءتي فرماك
ابغي الانيس فلا ارى لي موءنسا	الا التردد حيث كنت اراك

---

١) ضياء الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٣٣

٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٥٩

٣) ضياء الدين الريس : المرجع السابق ص ٤٣٣

ملك بكاك وطال بعدك حزنه لو يستطيع بملكه لفداك
يحمي الفؤاد عن النساء حفيظة كيلا يحل حمى الفؤاد سواك (١)

والحب حق طبيعي لكل انسان ، خليفة كان ام من عامة الناس ، لكن التأوه عليه لايكون على حساب تعب الشعب .

اما الخليفة الامين المشهور بلهوه وتبذيره فقد اعطى المغني ابراهيم ابن المهدى - اخا الرشيد وعم الامين - ثلاثمئة الف دينار على صوت غير ذي بال في شعر لابي نواس سخيف ، فصرح ابراهيم هذا حينئذ بانه اخذ حتى ذلك الحين عشرين الف الف درهم ، فقال الامين : " وهل هي الاخراج بعض الكور؟" (٢) فاذا علمنا بالرجوع الى قائمة الخراج في عهد الرشيد ان خمسا وعشرين منطقة من اصل ست وثلاثين لم يصل خراجها الى ذلك الحد عرفنا مقدار هذا التبذير .

اما المأمون ، زيادة على تبذيره كسابقيه ، فقد كان شرها ، وقد ذكر احد جلسائه وهو جعفر بن محمد انه " وضع على المائدة اكثر من ثلاثمئة لون " (٣) من الطعام ، وقد تحدثت الكتب الكثيرة عن بنائه ببوران وما انفق في ذلك من الاموال وما اعطى من الهدايا (٤) .

وكان الجيش من الامور التي تصرف بسببها الاموال الطائلة لكونه القوة الضاربة في يد السلطة لقمع الثوار والمتمردين ولصد هجمات الاعداء من الخارج بحماية الثغور وتكليف الجيوش القيام بالغزوات . وكان الجندي

---

١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٨

٢) المرزباني : الموشح ص ٤٠٩ - ٤١٠ تحقيق علي محمد البجاوي مط دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ وابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني: المختار من قطب السرور في اوصاف الانبذة والخمور تحقيق عبدالحفيظ منصور نشر مؤسسات عبدالكريم عبدالله تونس ١٩٧٦

٣- صلاح الدين المنجد : مجلة الرسالة عدد ٦٥٨ ص ١٦١ (مآكل الخلفاء العباسيين)

٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٤٧٨

يتقاضى راتبا اساسيا زمن مجد العباسيين العسكرى قدره عشرون درهما في الشهر (١) زيادة على ماكان يغدقه عليه الخلفاء والقواد في مختلف المناسبات، فقد انفق على الجيش الذى وجهه المنصور مثلا لاخماد ثورة الخوارج بافريقية ثلاثة وستون الف الف درهم ،(٢) وكثيرا ماكان القادة العسكريون ينالون القسط الاكبر من تلك الاموال كما فعل هارون الرشيد حين ثار عليه يحيى بن عبدالله بالديلم فندب اليه الفضل بن يحيى البرمكي وامده بالاموال ففرقها بين قواده فأخذ الناس يقصدونهم وهم ينثرونها عليهم طعمة لهم.(٣) وفعل الامين والمامون ايام الحرب بينهما الشيء نفسه . (٤) اما المعتصم فقدوصل الافشين حين قضى على بابك الخرمي بعشرين الف الف درهم وعشرة الاف درهم يفرقها في عسكره.(٥)

وهناك امور كثيرة لادا عي لذكرها جميعا كانت تصرف فيها الاموال بكثرة كما كانت تكلف العناية بها كثيرا من المال ومنها مثلا ظاهرة الصيد التي اولع بها الخلفاء العباسيون والاغنياء عموما فيذلك العصر وهذا مايسمى بالبيزرة التي اصبحت من مقومات الدولة " تنفق عليها من بيت المال كما ينفق في غيرها من القوة والاوضاع " (٦) وقد رسمها العباسيون في الاعطيات والفرائض اى رسموا تربية الجوارح الخ .... (٧) .

---

١) ى ـ هل : الحضارة العربية ، ص ٨٤

٢) ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤١٣

٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج : ٢ ص ٨١

٤) ضياء الدين الريس: المرجع السابق ص ٤١٣

٥ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٤٧٨

٦ ـ ابو عبدالله الحسن بن الحسين (بازيار العزيز بالله الفاطمي) :البيزرة ص ٥ تحقيق محمد كرد علي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق دمشق ١٩٥٣

٧ ـ بازيار الفاطمي : البيزرة ص ٥

وقد اهتم اغلب الخلفاء العباسيين بالصيد فقد " كان ابو العباس السفاح شديد اللهج بالصيد ..." (١) وكان المهدى " مشغوفا بالصيد لايكاد يغبه * " (٢) وكان للرشيد " حظ من الصيد " (٣) اما الامين فقد كان" اشدانهماكا في الصيد واحرص عليه من كل من تقدمه" (٤) اما المعتصم فقد" كان اكثرهم مخالفة للصيد ... " (٥)

.....

---

١) ابو عبدالله الحسن بن الحسين(بازيار العزيز بالله الفاطمي) البيزرة ص ٤١

* يغبه : من اغب القوم : جاء هم يوما وتركيوما (المصدر نفسه ص ٤٣)

٢ - ٣ - المصدر نفسه ص ٤٣

٤ - ٥ - المصدر نفسه ص ٤٦

جـ - العدالة والقضـــاء

القضاء من ضرورات المجتمع المتمدن المتحضر حيث يتقاضى الناس في مختلف الامور التي تؤدى الى خلاف بينهم . وشيء كهذا يتطلب وجود نظام دقيق تحدد فيه عناصر القضاء وطرقه واساليبه ويتطلب ايضا وجود رجال اكفاء نزهين يقومون بهذا العمل ولايخشون في الحق لومة لائم . واذا قيض للدولة مثل هؤلاء الرجال فان الانسان العادى فيها سيكون بخير مادامت حقوقه لاتضيع . ولذا فقد كان القضاء يعني الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي والخلاف وقطعا لكل نزاع قد يؤدى الوما لاتحمد عقباه (١) .

واول شيء نلاحظه في العصر العباسي الاول في هذا المجال ان سلطات القاضي وصلاحياته اتسعت فقد ظهرت المذاهب الاربعة وتدخلت السياسة في القضاء وظهرت المصطلحات الفقهية المتعددة والمقننة وظهر منصب قاضي القضاة (٢). وبعد أن كان عمل القاضي" مقصورا على الفصل بين الخصومات اصبح يفصل في الدعاوى والاوقاف وتنصيب الاولياء" . (٣) وهذا كله جعل للقاضي مكانة هامة في المجتمع خاصة وان كلامه كان مسموعا مطاعا ومن هنا كان اولو الامر يتشددون في الشروط التي يعين بموجبها القاضي فمنها مثلا ان يكون حرا ذا عقل بالغا ، عادلا ، سليما من العاهات وان يكون ذكرا . (٥) وكذلك ان يكون مسلما على انه يجوز تقليد غير المسلمين القضاء لاهل الذمة لان الاسلام

---

١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ١٥٥

٢) المرجع نفسه ص ١٦٢

٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٩٢

٤) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ١٥٥

٥) انور الرفاعي: المرجع السابق ص ١٦٧ - ١٦٨

ترك للذميين الخيار في ان يتقاضوا بالشريعة الاسلامية اوحسب اديانهم.(١)

كان القاضي يقوم بعمله فيالمساجد اوفي الاسواق وربما تجول في البلاد، وكان له مساعدون كالحاجب والشرطي والكاتب والخازن والاعوان والترجمان احيانا والعدول وبعض المستشارين فيالفقه.(٢) وكان ديوان المظالم عبارة عن محكمة استئناف يلجأ اليها الناس(٣).

وكان لبعض القضاة سمعة طيبة جعلت الناس يسعدون بوجود امثالهم فمن ذلك مايحكى عن محمد بن عمران الطلحي ،قاضي المدينة،الذى حكم علىالخليفة المنصور (٤) كما كان المهدى " اذا جلس للمظالم قال : ادخلوا علي القضاة فلولم يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى " (٥) . ومن امثلة ذلك ايضا القاضي سوار بن عبدالله ، قاضي البصرة،الذى امتنع عندفع ارض الى قائد تخاصم اليه بسببها مع تاجر علىالرغم من كتاب الخليفة المنصور اليه والذى فيه :" انظر الارض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر ، فادفعها الى القائد" (٦) ، فامتنع القاضي ، فاغلظ له الخليفة الكلام قائلا : والله الذى لا اله الا هو لتدفعها الى القائد " (٧) ، فكان رد سوار :"والله الذى لا اله الا هو لا اخرجتها من يد التاجر الا بحق " (٨) فابتهج الخليفة

١ـ ٢ انورالرفاعي : الاسلام في حضارته ص ١٦٥ - ١٦٦

٣) انورالرفاعي : المرجع نفسه ص ١٦٣ - ١٦٤

٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨

٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ١٧٢

٦ - ٧ - ٨ - السيوطي:المصدر السابق ص ٢٨٧

لذلك . لكن هذا لايعني ان الخلفاء والقضاة كانوا جميعا على شاكلة واحدة بل عكس ذلك نجد . فقد كان القضاء فاسدا فيكثير من الاحيان او لنقل القضاة هم الذين كانوا فاسدين والروايات علوذلك كثيرة جدا . زيادة على ان بعض الخلفاء كانوا يتدخلون فيعمل القضاة فقد عمدوا الى حملهم" على السير وفق رغباتهم ليكسبوا اعمالهم صبغة شرعية" (١) مما جعل بعض الرجال يمتنعون عن تولي مهمة القضاء مخافة الافتاء بما يخالف ضمائرهم والشريعة الاسلامية.

ومثل تدخل الخلفاء في عمل القضاة نجده فيما حدث عندما دعا الرشيد محمد بن الحسن الفقيه ، صاحب ابي يوسف الشهير ، وابا البختري القاضي واخرج الامان الذى كان اعطاه يحيى بن عبدالله بن حسن العلوى ، وكان خرج عليه من قبل ، وسأل القوم رأيهم فيه ، فاما محمد بن الحسن فقد اقر الامان واما ابو البختري فنقضه فجازاه الرشيد علىذلك فسماه قاضي القضاة (٢) . ومن امثلة فساد القضاء ايضا مايحكى عن ابي دلامة حين مرض ولده فأضطر الى المجيء بطبيب وشرط له جعلا معلوما ، فلما برأ الولد من المرض انكر ابو دلامة ان يكون عنده شيء غير انه اقترح علىالطبيب ان يطالب فلانا اليهودى بمال هو قدر الجعل على ان يكون ابو دلامة وابنه شاهدينمعه ، فلما مثل القوم جميعا امام القاضي خشي ابو دلامة ان يغرمه القاضي ذلك المبلغ فصنع بيتين في هذه المناسبة وانشدهما بصوت مرتفع حتى يسمعهما القاضي ومنهما هذا البيت :

إن الناس غطوني تغطيت عنهم وان بحثوا عني ففيهم مباحث

وهذا تهديد صريح يتبين على اثره موقف القاضي من مثل هذه الامور وقوته ، لكن القاضي دفع المبلغ من ماله الخاص حتىيتخلص من الورطة التي وضعه فيها

---

١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والاجتماعي الخ ... ص ٢٩١ ج٢

٢) احمد فريد رفاعي: عصر المأمون ج ١ ص : ١٢٤

ابو دلامة (١) .

ومن عيوب القضاء فيذلك الوقت ايضا الرشوة ، " فقدبلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة ومنهم عبدالرحمن بن عبدالله العمرى (بمصر) الذى قيل انه اصاب من الرشوة مئة الف دينار " (٢) . واتهم كذلك القاضي شريك بن عبدالله النخعي بالرشوة وذلك عندماقبل منصب القضاء بالبصرة والذى كانسفيان الثوريقدرفضه فقال احد الشعراء المجهولين في ذلك (٣) :

تحرز سفيان وفر بدينه وامسى شريك مرصدا للدراهم .

ولقد احدثوا ايضا نظام العدول ،ويبدو انللعدول وظيفتين هما :

" اولا : كتابة العقود بين الناس في معاملاتهممستوفاة شروطها الشرعية ،

وثانيا : يستعين بهم القاضي على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده في الخصومات ...." (٤) .

ويقال ان اول قاضي بمصر اتخذ لمجلسه الشهود هو ابو عبدالرحمن محمد بن مسروق الذى ولاه الرشيد عليها عام (١٧٧ هـ) واول من دون اسماء العدولبمصر ايضا هوالقاضي مالك ابو نعيم اسحاق بن الفرات وهو كذلك في عهد الرشيد (٥).

ويبدو ان سمعة هؤلاء العدول كانت سيئة للغاية مما دعا اسحاق بن معاذ الى هجائهم وهجاء مزولاهم بقوله : (٦)

---

١) اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص : ٣٤٢ مط المعارف النظامية ط ١ حيدرابا د١٣٣٧هـ

٢) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام ج ٢ ص٢٩٥

٣) ابن العماد : شذرات الذهب ١ / ٢٥٠ اليافعي:مرآة الجنان ١/٣٤٧

٤) محمد بن محمد بن عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص١٣٢ المطبعة المصرية الاهلية الحديثة بالقاهرة بدون تاريخ .

٥) محمدبن محمد بن عرنوس : المرجع نفسه ص ١٣٣

٦) محمد بنمحمد بن عرنوس : المرجع نفسه ص ١٣٣

سأدعو الهي حتى الصباح لكيما يعيدكلبا هزيلا
سننت لنا الجور في حكمنا وصيرت قوما لصوما عدولا
ولم يسمح الناس فيما مضى بان العدول عديدقليلا

وكما تلاحظ ، لم يكن الشعر بعيدا عن هذه القضية وانى له ذلك وهو المعبر عن هموم الناس ومشاكلهم وكل ما يصيبهم من خير وشر ؟ فقد بين الشعراء لنا تعسف القضاة وفضحوا ارتشاءهم وتزلفهم للسلطان .

وبقي ان نشير الى ان الحسبة كانت احيانا تلحق بالقضاء وكانت اعمال المحتسب هامة جدا وذاتقيمة كبيرة في مجتمع ذلك العصر وهي تدل على ما بلغته الحضارة العربية من تطور،فقد كان المحتسب مثلا يقوم بمراقبة التجار وارباب الحرف والاسعار والموازين وكل المخالفات الاقتصادية التيقد تنتج بسبب الغش والاحتكار زيادة علىمراقبة الاخلاق العامة وذلكبالنهي عن المنكرات ومعاقبتها، وكذلكمراقبة العبادات هذا مع التأكد من صلاح الابنية والطرقات التي قد تتسبب في كوارث عظيمة،وهناك اعمال اخرى مختلفة يقوم بها المحتسب مثل التأكد من حسن معاملة السادة لعبيدهم وتعليف البهائم (اى الرفق بالحيوان) والسهر على الاطفال اللقطاء وجمع الاشياء الضائعة واعادتها الى ذويها ومنع المعلمين من ضرب الصبيان الخ ...(١)

وباختصار فان مهمة المحتسب تقوم مقام عدة وزارات اليوم حيثيمثل هيئة رقابة عليا لجميع امور المجتمع كالشرطة الاخلاقية والتفتيش وما الى ذلك .

.....

١) انور الرفاعي: الاسلام فيحضارته ونظمه : ص ١٧٣ - ١٧٧

الباب الثانـــــــــي

الاتجاه الشعبي

التمهيـــد : تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي

الفصل الاول : اغراض الاتجاه الشعبـــي

الفصل الثاني: خصائص الاتجاه الشعبي الفنيـة

الفصل الثالث : مواقف الاتجاه الشعبي

التمهيـــــــــــد

تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي :

- الاتجاه الرسمي في الشعر
- مفهوم الشعر الشعبـــــي:
  - الجماعة
  - لغة الشعر الشعبي
  - العراقـة
  - الجهل بالمؤلف
  - ندرة الشعر الشعبي
  - اراء في شعبية الشعر

.....

يجدر بنا قبل ان نحدد مفهوم الاتجاه الشعبي في العصر العباسي ان نلم الماما سريعة بمفهوم الاتجاه الرسمي اوالشعر الرسمي لاننا لو وفقنا في تحديده لاتضح لنا الثاني جليا • فماهو الادب الرسمي اوالشعر الرسمي على الخصوص؟ الشعر الرسمي فيذلك العصر هو كل ماجاء متماشيا مع طروحات الاسرة الحاكمة ، وقد كانت تلك الاسرة بعيدة عن الشعب ولم تكن تخالط الاقطاعا معينا من الناس هم الاعيان والاتباع والقواد وما الى ذلك بينما اهملت الجماهير العريضة •

وما تلك الاشارات الواردة فيالمصادر والتي تدل على اهتمام بعض الخلفاء بالرعية الا من قبيل الدعاية الرسمية لكسب الناس الى جانبهم ، فبالمقارنة نجد ان مدة حكمهم كانت طويلة جدا بينما كانتالمنجزات التي تمس الشعب قليلة جدا زيادة على انحصارها في مناطق محدودةكالحواضر الكبيرة وضواحيها •

الشرط الاساسي اذا في تسمية الشعر بالرسمي ان يكون داعيا للسلطان وان يكون بعيدا عن مطالب الجماهير حين يكون هذا السلطان لايهتم برعيته وهذا ماحدث في العصر العباسي الاول ، فقد كانت السلالة العباسية مسيطرة علىالامور بعدما اخرجت الامويين بالقوة ونكلت بهم ، وكان لابد لها من دعاية مضخمة تبين ان الخلافة حق طبيعي لها • خاصة ان المطالبين بها كانوا كثرا ، وكان اخطرهم فينظر العباسيين هم بنو عمومتهم لانهم يستعملون السلاح نفسه فيالمطالبة بها وهو القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، زيادة على الخوارج ، دعاة الديمقراطية في عصر لم يكن مهيئا لها • وقام جدل كبير بين مختلف قطاعات الناس حول هذه القضية فراح بعض الشعراء الانتهازيين يضربون علىهذا الوتر الحساس حين لجوءوا الى قوانين الارث مستغلين الشريعة الاسلامية في ذلك ، فرأوا ان الرجال اسبق من النساء وراثة علما بان العباسيين

يستندون الكون جدهم العباس عما للرسول بينما يرتكز بنوعمومتهم الى نسبتهم الى الرسول عن طريق ابنته فاطمة الزهراء .

راح اولئك يبينون حق بني العباس في الخلافة ويدحضون حجج المطالبين الاخرين بها فمن ذلك قول مروان بن ابي حفصة : (١)

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب كل يوم زحام
ارضوا بما قسم الاله لكم به ... ودعوا وراثة كل امعد حام
انى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الاعمام

ويقول منصور النمري ايضا (٢) :

فان شكروا فقد انعمت فيهم ... والا فالندامة للكفور
وان قالوا بنو بنت فحق ... وردوا ماينا سب للذكور
وما لبني بنات من تراث ... مع الاعمام في ورق الزبور

ولان النظام العباسي ، كسابقه ، لم ينبثق من الشعب ،او بعبارة اخرى غرر بالشعب مدة من الزمن حتى استولى على السلطة فادار له ظهره وعامله بأقصى ماكان يعامل به في العصر السابق ، فان الادب ، ادب البلاط الذى كان يدافع عن ذلك النظام ليس من الشعب في شيء لانه بكل بساطة شعر رسمي وبوق من ابواق الدعاية السلطانية .

وكان النظام العباسي يعرف اخلاق الشعب ويعرف الصفات التي يتمنى هذا الشعب ان تكون في حكامه وكان لابد له من تثبيت سلطته بجميع الوسائل الممكنة ومنها طبعا الشعر الذى كان يلعب بحق دورا كبيرا في التأثير على نفوس الناس وخصوصا على العرب ، اذ يكفينا ان نذكر ان قصيدة

---

١) الاصفهاني: الاغاني ج ١٣ ص : ١٤٣ (ط مصورة عن دار الكتب)
٢) الاصفهاني: الاغاني ج ١٣ ص ١٤٣

كان بامكانها ان تشعل حربا ضروسا تدوم سنين طويلة ، ولهذا راح الشعراء الابواق يصفون القائمين على الامر بمكارم الاخلاق وبالصفات الحميدة التي كان ينتشي لها العربي والتي ورثها عن ابائه واجداده كالكرم والشجاعة ورجاحة العقل والتقوى ونجدة المستغيث الخ ... وحاولت الدعاية الرسمية الصاق هذه الصفات وما شابهها باولي الامر حتى تثق فيهم الرعية. وكلامنا هذا لايعني ابدا ان جميع اولي الامر كانوا على شاكلة واحدة بل كان فيهم من احبه الناس حقا .

ونحن لانعمم حتى نقول ان كل شاعر مدح خليفة مثلا هو من الشعراء الرسميين اومن ابواق النظام اذ يجب الا ننسى ان الحاجة كانت تدفع بالكثير منهم الى المدح حتى يحصلوا على شيء من المال يمسكون به رمقهم و رمق ذويهم . ان الشعراء المداحين اذا جعلناهم ينضوون تحت مظلة الشعراء الرسميين كان حكمنا عليهم قاسيا وخاطئا في الوقت ذاته اذ يجب ان تظل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لذلك العصر ماثلة امام اعيننا ، فنحن قد رأينا كيف ان المدح كان احيانا تجارة يتقاضى صاحبها عليها الاموال الطائلة اذا ادرك كيف يستعمل الالفاظ المناسبة في الحالات المناسبة .ولايعقل ان نجعل كل مادح شاعرا رسميا فالامثلة كثيرا ماتبين لنا ان الشاعر قد يمدح احدا في ظروف معينة ثم يهجوه في ظروف معينة اخرى ، ولنا في دعبل دليل واضح فقد مدح بعض الخلفاء وبعض الوجهاء والنبلاء ، لكنه مع ذلك كان يمثل باستمرار ثورة على حكام عصره وعلى ظلمهم للناس .

زيادة على هذا نجد ان المادحين لعبوا احيانا دورا ايجابيا فهم حين يمدحون خليفة ما انما يعبرون عن الصفات التي يراها الناس جديرة بالسلطان العادل المحبوب من قبل شعبه ، وهم بذلك يؤدون واجبهم

نحو الجماهير التي ينتمون اليها لانهم يعبرون عن رغباتها أمام السلطان ويشجعون اولي الامر على القيام باعمال تعود على الجماهير بالفائدة ، ولنا في ذلك امثلة كثيرة ، سنذكرها في حينها .

بقي ان نشير الى ان الشعر الرسمي ، في العصر العباسي ، على الرغم من ارتباطه الوثيق بالنظام الذى كان عامة الناس ساخطين عليه ، لم يكن بعيدا كل البعد عن الجماهير كما كانت تريد له السلطة ، فالحكام آنذاك وان كانوا قلة ، فقد اثروا في الجماهير بتشجيعهم عادات معينة ومحاربتهم عادات اخرى . ولكنهم تأثروا من جهة اخرى باراء الشعب كذلك لان عملية التأثير والتأثر كانت مستمرة على امتداد ذلك العصر .

والملاحظ أنه حيثما وجد التنافر بين الحكام والمحكومين كان هناك أدبان ، رسمي وشعبي : يعبر الرسمي عن آراء السلطة التي تتحكم بها الاقلية ، ويعبر الشعبي عن الجماهير التي تمثل الاغلبية الغالبة . ولا تنتفي هذه الظاهرة الا في حالة واحدة وهي في حال انبثاق السلطة فعلا عن الجماهير بحيث تكون معبرة عن طموحاتها ومحققة لرغباتها ، ففي مثل هذه الحال يصبح الادب الشعبي والادب الرسمي شيئا واحدا لان السلطة تكون حينئذ قد امتزجت بالشعب .

وحان الوقت الآن لنحدد مفهوم الشعر الشعبي في عصرنا ذلك . فما هو الشعر الشعبي ؟ جرت العادة أن يعرف الباحث الظاهرة التي يدرسها تعريفا جامعا مانعا كما يقول المناطقة . لكن مثل هذا التعريف في ظاهرتنا امر مناف للعلمية ولذا نخشى اذا نحن عرفنا الشعر الشعبي في العصر العباسي أن نسقط في التعميم الذى يجعل الرؤية ضبابية ، وسبب خشيتنا ناتج عن ان الشعر الشعبي الذى وصل الينا من ذلك العصر

شيء قليل جدا وان كان الذى بين ايدينا منه يعطينا فكرة عنه ، ولعدم وصوله الينا اسباب كثيرة منها ضياع الكثير من الكتب التي تكون قد تناولته زيادة على الحصار الذى كان مضروبا على ذلك الضرب من الشعر لما فيه من حقائق كان اولو الامر يخشون ظهورها ؛ وانطلاقا مما لدينا من نصوص يمكن ان نجازف بالتعريف التالي على ان يكون موقتا حتى تسمح الظروف بظهور المزيد من ذلك الشعر ، وهذا التعريف يرى ان "الشعر الشعبي هو الذى يتناول هموم الناس وامالهم وطموحاتهم وارائهم فيجميع القضايا المطروحة على عصرهم سواء اكانت سياسية ام اقتصادية ام اجتماعية ام ثقافية شرط ان يكون هذا الشعر صادقا وان يكون بينه وبين الجماهير تجاوب تلقائي واتفاق مباشر" .

وهكذا لايسمى اى شعر شعبيا الا اذا كان يمس حياة الشعب لان الجماعة لن تتأثر بالشعر الا اذا كان يعالج شيئا يمس حياتها" (١) . نقطة الانطلاق اذا هي الجماعة وكل مايمسها ، ففي هذه الجماعة تختلج جملة من العواطف والافكار والمصالح والمشاكل والامال والرغبات وما شابه ذلك ، ولها كلها تأثير موكد على الفرد الذى يوثر بدوره فيجماعته التي يتاثر بها . حياة الجماعة معقدة ومتعددة الجوانب ، وهذا مايجعلنا نعرف ان للشعر الشعبي معينا خصبا لاينضب ابدا ، وكيف ينضب ماكان معينه الحياة ؟ الشعراء الشعبيون يغرفون من هذا المحيط الضخم الذى هو حياة الشعب بكل مافيها من خصب وتنوع وجدة .

والحياة لايمكن ابدا ان نحصرها في ظواهر معينة تنقلب الى قوالب ادبية وبعبارة اخرى لايمكن حصرها فيا اغراض شعرية محددة كالاغراض التقليدية المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل الخ .....

ان الحياة تأبى هذا التقييد في الوقت الذى لايمكن للشاعر فيه ان

---

(١) جابر احمد عصفور : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدى ص ٢٧٤ دار الثقافة للنشر والطباعة القاهرة ١٩٧٨ .

يفلت من قيود محيطه ومجتمعه ، فهو محكوم عليه ان يتأثر به ، اى ان يتأثر بهذا المجتمع المتغير دائما ، المتطور باستمرار ، والذى لاتتوقف فيه الحركة والنموابدا (١) علىالرغم من ان وتيرة التغير والتطور والنموقد تكون بطيئة حينا حتى تبدو وكأنها لاتتحرك ، وسريعة حينا اخر حتى يبدو اللحاق بها يكاد يكون مستحيلاً • وبما ان الجماهير تمثل الاغلبية الساحقة في اى مجتمع ، فان اغلبية الشعراء تكون نابعة منها ودليلنا هو" هذا الاتصال الوثيق بين الشعر والشعب ••• الذى جعل اكثر شعراء الشعب من ابناء الطبقة العامة العاملة "•(٢) فالاساس اذا فيالتمييز بين شاعر رسمي واخر شعبي هوفي البحث عن اصل الشاعر ومحيطه وبيئته مع العلم ان الشاعر انسانيتغير حسب الظروف المحيطة به ، فقد يكون من الطبقة المترفة ومع ذلك يشعر بالناسلانه قد يجد نفسه في خضم الحياة ملتصقا بالشعب معبرا عن همومه فيتشرب من ذلك المحيط معاناته ويتاثر به ، وبالعكس قد يكون فقيرا ابن فقير ولكن له نفسا تواقة الىفوق ، الى قمم السلطة،الامر الذىقد يجعله ينسلخ عن طبقته ويعبر عن الاخرى فتصبح القضية بذلك" قسمة شعر لاقسمة شعراء"(٣) وحين نقول قسمة شعر فاننا نعني بها انتماء الىجهة معينة ، فاما انتماء الىالجماهير واما انتماء الىمايُنافي ذلك • فالشاعر الصادق هو الذى يعبر عن حقيقة وضعه بصدق بحيثلايعبر عن الشعب الا من كان حقا منه ولاينطق بشعر بعيد عن الشعب الامن هو بعيد عنه •

---

١) ـ مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء فيالعصر العباسي ص٤٠٣ دار العلم للملايين ط ثانية بيروت ١٩٧٥ •

٢) شوقي ضيف الشعر وطوابعه الشعبية علىمر العصور ص٦٢ دار المعارف بمصر ط اولى القاهرة ١٩٧٧

٣) احمد كمال زكي: الحياة الادبية فيالبصرة الى نهاية القرن الثاني الهجرى ص٣٢٢ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٨١ •

هناك قضية اخرى شغلت بال الباحثين الا وهي لغة الشعر الشعبي • كيف تكون اللغة حتى نسميها شعبية ؟ وبالمقابل كيف تكون حتى لانسميها شعبية ؟ هل هناك تعارض بين اللغة الفصيحة وبين الشعبية ؟ قبل كل شيء لابد من استبعاد قضية الفصاحة بمفهومها التقليدي والنظر اليها بمنظار جديد يجعل اللغة فصيحة اذا كانت تعبر عن الناس الذين يتكلمون بها في ظروف معينة . وهذا يعني ان اللغة متى عبرت عن خواطر اصحابها واحلامهم واماالهم وطموحاتهم فهي فصيحة ومتى لم تعبر فهي غير فصيحة مع العلم ان التعبير بها يجب ان يكون مفهوما من قبل عامة الناس الذين نتجت عنهم • ليس هناك اذا تعارض بين الفصاحة في نظرنا وبين الشعبية فقديما قيل لكل مقام مقال ونحن نقول لكل مقام في كل عصر مقال • وهكذا يتغير مفهوم الفصاحة من عصر الى عصر كما تتغير الحياة وظروف الناس وبهذا المفهوم تصبح اللهجات جميعها فصيحة لانها تعبر عن قطاع معين من الناس في فترة معينة من مراحل تاريخهم • وهذه اللهجات تمثل في مجموعها اللغة العربية عبر الازمان والامصار، فاللغة في العصر الجاهلي ليست هي نفسها في العصر العباسي لكنها مع ذلك تبقى لغة عربية تعبر عن مرحلة معينة، وعوض ان نقول تلك فصيحة والاخرى غير فصيحة فمن الاصوب ان نقول ان هذه اوتلك انعكاس لوضع معين عاشه العرب في فترة معينة • والملاحظ ان اللغة في عصر لاحق تكون اكثر اتساعا مما سبق لانها زيادة على التراث الذي تحمله من العصر السابق فانها تزداد غنى بالتجارب الجديدة، وهي كذلك تنتقي ما يصلح من الماضي وتضفي عليه مفاهيم جديدة •

اما اللغة في العصر العباسي ، فليس من السهل ان نعرف بالتفصيل ماكانت عليه يومذاك نظرا لتباعد العهد بيننا وبينها، لكن الشواهد التي عبرت الزمن ووصلت الينا كفيلة بان توضح لنا القضية بعض التوضيح •

فأول شيء نلاحظه هو وجود ثغرة بين اللغة الفصحى وبين لغة الشعب ، ودليلنا هوحركة التأليف في اللغة التي نشطت منذ العصر الاموى وبلغت اوجها في العصر العباسي ؛ اى ان نشوء لغة جديدة بعيدة نسبيا عن اللغة المعروفة في صدر الاسلام اومنحرفة عنها كان احد الاسباب في تقنين اللغة وتعليمها بالتالي الىمن يجهلونها.ولعل الرواية التي تحكي نشأة النحو علىيد ابي الأسود الدوءلي حين اخطأت ابنته معه خير دليل علىذلك . لقد تطورت اللغة تطورا سريعا كالاحداث التي شهدها ذلك العصر بحيث اصبح يخشى مع تطورها ذلك علىتراث العربية القديم بكل مايعنيه من مفاهيم. صحيح انه كان للاسلام دور كبير في ظهور حركة التأليف في كثير من العلوم لكن هذا يعني كذلك من بعض الجوانب ان اللغة كانت تتطور بطريقة حتمية وسريعة حتى وان كان فيتطورها بعض الضرر للاسلام وللقرآن الكريم الذى نزل بها . ومن هنا يمكن ان نقول ان الفصاحة بمفهومها التقليدى قد انتهت فيالعصر الاموى الذى شهد اعظم الفتوحات التي ذهب فيها العرب بعيدا عن جزيرتهم واختلطوا بغيرهم من الاجناس والشعوب فظهرت هنا وهناك لهجات عامية وانكان اساسها الفصحى .

ولذا يجب ان تنتفي ثنائية الفصحى والعاميات لانها قضية تعرقل البحث فقط دون ان تصل الىنتيجة اذ ماذا عسانا ان نقول عن اللهجات العربية فيالعصر الجاهلي ؟ هل كانت لهجة قريش وحدها فصيحة ؟ كلا طبعا . ليس البحث في هذه القضية شيئا جديدا بل هو قديم قدم الدراسات اللغوية ذاتها ولم يتوصل فيه الىنتيجة لانه عولج بصفة احادية . واذا قبلنا بتلك الصفة فهذا يعني اننا نقف ضد تيار الحياة المتطور اذ كيف يعقل ان تبقى العربية على حالها - اى ان تبقى فصيحة بذلك المفهوم - وهل يجوز ان نطلب من شاعر كأبي نواس انيكون كامرىء القيس؟

لايمكننا ذلك اللهم الا اذا استطعنا ان نثبت الحياة فيمرحلة واحدة ونوقف صيرورتها وهذا محال .

ولعل السبب فيهذا الاشكال هوان اللغة تقدس في اغلب الاديان لارتباطها بدينمن الاديان وخاصة تلك التي لها كتب كالدين الاسلامي والمسيحي مثلا ، فمن هنا ونظرا لارتباط اللغة بالكتب السماوية يخشى الناس اى تجديد فيهذه اللغة بل يحاربونه بشدة اماعن لاوعي اوعن وعي وادراك ، ويتجلى هذا الوعي فيالعصر العباسي الاول ، في ان السلطة الحاكمة فيه كانت تستعمل الدين لسيطرتها علىالجماهيروتستغله بدليل اسماء الخلفاء كالمنصور والمهدى والرشيد الخ .... ونفهم هذا في ذلك الاطار العام الذى كانت تمثله العقلية الغيبية السائدة في ذلك العصر . لقد كان لاصحاب اللغة الفصحى فيذلك الوقت امتيازات كبيرة فهم اصحاب السيادة عادة وهذا مايجعلنا نفهم تلك النظرةالىاللغة العامية اوالى الانتاج الادبي الشعبي لذلك العصر والتي كانت نظرةاحتقار وازدراء .

ومن هنا ايضا نستنتج مدى استعمالهم اللغة كوسيلة للحفاظ " على الاوضاع الطبقية والاجتماعية " (١) .

ونحن لانريد ان نقول ان العباسيين الحاكمين كانوا يدركون هذا تمام الادراك بل انهم جعلوه يطبق تبعا للسياق العام لسياستهم ولتشجيعهم لذلك النمط من اللغة كما كان يحدث فيالمدائح التي كان الشعراء يمدحونهم بها فهي كلها اواغلبها في صيغ رسمية كما اريد لها علىالرغم من ان

---

١) شوقي عبدالحكيم : الفولكلور والاساطير العربية ص٢٠٧ مط دار ابن خلدون ط اولى بيروت ١٩٧٨ .

الشعراء لم يستسيغوا ذلك كله ولم يرتاحوا اليه[1] .

وهذا دليل آخر على تباين مستويات اللغة في ذلك العصر ، او لنقل انه ارتباط كل مستوى لغوي ببيئة معينة من الشعب .

والنتيجة ان لغة الشعر الشعبي في نظرنا هي اللغة التي يفهمها الشعب وهي في بحثنا اللغة التي يفهمها الانسان العادي في العصر العباسي الاول .

وتجدر الملاحظة الى أن بعض الباحثين المحدثين في ميدان الأدب الشعبي قد جعلوا اللغة العامية من الأمور الدالة على شعبية الشعر بمعنى انهم لا يسمون الشعر شعبيا الا اذا كان ناطقا بالعامية والتي تختلف في عصرنا هذا من قطر عربي الى آخر مع وجود أمور كثيرة متشابهة فيها . ولا يخفى ما في هذه الفكرة من الخطأ لاننا كما قلنا سابقا ليس كل ما يكتب بالعامية يسمى شعبيا أو كل ما يكتب بالفصحى يسمى رسميا بل نجد المحتوى الشعبي في هذه وتلك كما نجد الرسمي فيهما أيضا .

ان الذين جعلوا العامية من خصائص الشعر الشعبي اعتمدوا هذه الصفة العرضية والتي ستزول بزوال موجباتها . ان الوضع الراهن للامة العربية جعلها تبدو وكأن العامية طاغية عليها وهي كذلك فعلا الا ان هذا الوضع ليس دائما وليس مستمرا بل سوف ينتفي اذا انتفت أسبابه كذلك . فمن اسباب شيوع العامية في الاقطار العربية وتباعدها بعضها عن بعض احيانا بالرغم من وجود الصلة بينها ، فمن أسباب ذلك تفشي الأمية بين الجماهير العربية والتي تتجاوز نسبة الثمانين بالمئة أحيانا في بعض الأقطار .

الا ان هذه الدول وضع بعضها مشاريع كبيرة وبرامج عريضة

---

(١) — حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص : ١٦ طبع دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ .

طويلة المدى للقضاء على الامية . ونجاح هذه البرامج سوف يقرب حتما بين الجماهير العربية الموزعة شرقا وغربا ،وهذا مايجعل لغة العرب تتوحد بصفة حتمية . والخلاص هو طبعا فيتعليم اللغة العربية . لنتصور ان جميع الاقطار العربية انتفت منها الامية واصبح كل مواطنيها متعلمين ومثقفين ، هل سيبقى بعد ذلك مبرر لكتابة الشعر بالعامية وغيره من الفنون ؟ أبدا ،وهذا يبين الخطأ الذي وقع فيه الباحثون المحدثون والذين جعلوا العامية خاصية من خصائص الشعر الشعبي . ولاداعي لذكر اسباب هذا الوضع كالفترة الزمنية التي استعمرت فيها الدول ودور الاستعمار في القضاء على اللغة العربية .ولعل ابرز دليل لنا في عملية المسخ التي قام بها المستعمر ماحدث في الجزائر حيث لجأ المستعمر الى اصدار جرائد مكتوبة بالعامية حتى يوهم الجزائريين بان تلك هي لغتهم وكان يطلق على تلك العامية اللغة العربية في الجزائر وفوق هذا لجأ الى تعليمها في المدارس بعد افراغها من كل محتوى ايجابي كما فرض على معلمي الصبيان ان يلقنوا القرآن الكريم دون تفسير ،ونحن شخصيا عشنا هذه التجربة حيث اصبحت العربية تبدو غريبة في وطنها وكأنها لغة قوم آخرين ،لكن كل تلك المحاولات باءت بالاخفاق كما هو معلوم على الرغم من ان تلك السياسة الاستعمارية تركت لها بعض الاذناب الذين مازالوا يجنون الى العهد البائد .

ومع كل هذا فان اللغة وحدها لاتكفي لجعل الشعر شعبيا لاننا لو اعتمدنا اللغة وحدها فستواجهنا مشكلة اخرى وهي ان الكثير من الانتاج الادبي الذي تحمله تلك اللغة ليس فيه من الشعبية شيء لانه يصدر عن الذات الفردية وليس معبرا عن الجماعة . وهذا مانجده ايضا في الشعر الفصيح والقضية نجدها قديما وحديثا. ان المشكلة متشابهة سواء

في العصور القديمة ام في العصر الحديث ففي عصرنا هذا لهجة فصيحة واخريات عاميات تقترب انكثيرا وان قليلا من الام ، وفي الجانبين شعر رسمي وشعر شعبي، اما في القديم فاللغة الفصحى هي الغالبة نظرا لقرب القوم انذاك من عهد الفصاحة ، لكن المشكلة نفسها موجودة اذ ان هناك شعرا شعبيا واخر رسميا .

ونستطيع التغلب على هذا اللبس بالعودة الى خصائص اخرى في الشعر الشعبي تكون هي الفيصل ومنها الوجدان الشعبي او الذات العامة (١) . وهذا الوجدان العام يختلف باختلاف العصور وحسب تطور المجتمعات ، ففي العصر الجاهلي كان النظام القبلي هو السائد وكان شيوخ القبائل واعيانها ولغنيا وهما هم الذين يمثلون السلطة الرسمية وكانت الفئات الاخرى تمثل الجماهير العريضة ويكفينا ان نتذكر الصعاليك وعروة بن الورد وبيته الشهير (٢) :

افرق جسمي فيجسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بارد

ثم جاء الإسلام فتحول الوجدان العام الوجدان ديني لان الاسلام جاء ثورة على الاوضاع وجاء نصرة للمظلومين ولصالح الطبقات المستضعفة والمحرومة ثم سيطرت الاسر المالكة ابتداء من معاوية فأساءت كثيرا الوتلك الطبقات التي لم تفرح الا قليلا بمجيء الاسلام اذ سرعان ما انتهك بنو امية اهم شرط في الحكم الاسلامي وهو مبدأ الشورى زيادة على الظلم الذى كالوه للرعية

---

١) عبدالحميد يونس : دفاع عن الفولكلور ص١٠٨ مط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣ ونبيلة ابراهيم : اشكال التعبير في الادب الشعبي ص١ دار النهضة مصر بدون تاريخ .

٢ - الاغاني ج : ٣ ص٧٤ مصورة عن دار الكتب

فاستيقظ الوجدان القومي عند كثير من القبائل الداخلة في الاسلام مما ادى بها في النهاية الى الانفصال عن السلطة العربية التي كانت رأس الامة الاسلامية • وتبعا لذلك كان الشعر الشعبي يتخذ الاشكال المناسبة التي تفرضها المرحلة التي يمر بها المجتمع •

ومن المقومات التي اوردها الباحثون لتمييز الادب الشعبي العراقة (١)، وهذا امر طبيعي لان المجتمعات تختلف دائما في خصوصياتها على الرغم من تشابهها في مسارها التاريخي العام ، ولايمكن ابدا ان نجد ظاهرتين تاريخيتين متشابهتين تمام التشابه لان اختلاف الظروف المحيطة بهما في الزمان والمكان يقوم بدور كبير في صياغة شكل الظاهرة وفي ايجاد خصائصها، ومن هنا فلاعجب اذا كان الادب الشعبي عريقا في مضمونه وشكله وصيغه المختلفة ، فعراقته تأتي من كونه مرتبطا بشعب معين في فترة وفي رقعة محدودتين ، لكن هذا لاينفي ابدا انه يغني التراث الانساني على الرغم من تميزه •

اما الجهل بالمؤلف (٢) فلا يؤثر كثيرا لان المؤلف معروف نوعا فهو اى واحد من ابناء الشعب الذى انتج ذلك الادب ، وسواء عرف المؤلف ام لم يعرف فهذا لايقلل ابدا من قيمة ادبه مع العلم ان للادب استقلالية عن منتجه، كالوالدين يعطيان النور لمولودهما لكنهما لن يستطيعا ايقاف نموه ، فالطفل على الرغم من والديه وكذلك الادب والادب الشعبي خاصة اذا خرج الى الوجود، يصبح مستقلا عن صاحبه، ويحق للشعب حينئذ ان يضيف عليه وينقحه ويغنيه بالتجارب الاخرى دون ان يكون للاديب حق الاعتراض، ولنا في السير مثال وخاصة السير الشعبية كأبي زيد الهلالي وسيف بن ذى يزن وغيرهما •

---

١) عبدالحميد يونس دفاع عن الفولكلور ص ١٠٤ — ١٠٦

٢) المرجع نفسه ص١٠٤ — ١٠٦

اما ان يجعل البعض في عصرنا هذا الجهل بالمؤلف اساسا لشعبية الشعر والادب عموما فهذا يعني اننا نخاف ذاتية المؤلف ونخشاها كأنها كابوس يفقد الشعر قيمته الفنية ، وهذا يعني اننا نتجاهل ان المؤلف واحد من الشعب يحس بما يكابده الشعب ويعانيه ويصوغه في قالب فني . فماذا يضر لو عرفنا ان الاشعا الفلانية كتبها بيرم التونسي مثلا ؟ وماذا يضر لو عرفنا ان الف ليلة وا كتبها زيد من الناس او عمرو ؟ وماذا يضر لو عرفنا ان اشعار الصع كتبها عروة بن الورد او ابو فرعون الساسي؟ لو كان الشعر فعلا شعبيا فلن غير شيء البتة اذ ليس الجهل بالمؤلف ابدا اساسا في تحديد مفهوم الشعر الشعبي .

وهناك ظاهرة اخرى تعترض سبيل الباحث في هذا المضمار وهي ندرة الشعر الشعبي في مصادرنا الادبية القديمة اذا ما قورن بغريمه الشعر الرسمي ، وتبعت المراجع الحديثة سابقاتها في ذلك . واسباب ندرة هذا الشعر كثيرة منها ان كثيرا من المصادر تلفت او مازالت مخبأة في اماكن مجهولة ولم تر النور حتى الان ومنها ان الرواة القدامى كانوا يترفعون عن ذكر الشعر المرتبط بالعامة لانه من صنع السوقة كما يقولون ولانه لايصلح لالسنتهم الجليلة ان تنطق به وكل ذلك ناتج عن النظرة السلفية التي سيطرت على كل مناحي الحياة في تلك العصور، وهي ايضا احدى نتائج تأثير السلطة الحاكمة انذاك على الجماهير بحيث راحت تضفي الاحترام والتقدير على كل ما هو قديم ، وتزدري كل ما هو حديث وتحتقره حتى ثارت تلك القضية في النقد القديم وهي الشهيرة بالقدامى والمحدثين ، وكان لكليهما انصار واشياع . وهذه جملة من العوامل اسهمت كلها في اندثار الكثير من الشعر الشعبي في العصور القديمة، وانفة الرواة عن ذكر مثل ذلك الشعر جاءت نتيجة الدعاية الرسمية التي شارك فيها الحكام والادباء واللغويون والمحدثون وغيرهم ممن كان

لهم مصلحة فيذلك • ويمكننا هنا ان نستشهد بقول ابن الاعرابي في قضية القدامى والمحدثين حيث يقول :" انما شعر هؤلاء المحدثين - مثل ابي نواس وغيره - مثل الريحان يشم بوما ويذوى فيرمى به ، واشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا " (١) •

كانت النظرة اذا احادية الجانب ، اعطت جزءا من الادب كل الاهمية الاستثنائية على حساب الجزء الاخر الذى تجاهلته ، فحين كان يذكر بعض اولئك الشعراء الشعبيين مثلا في مصادرنا فانما يذكرون من اجل التندر والفكاهة لاغير اويحط من قيمتهم صراحة تمشيا مع فكرة ازدراء ما يتصل بالشعب ، فهذا ابو هفان الناقد المشهور حين يذكر القصافي الاب يقول عنه : " كان لايمدح الا وضيعا مثل فرج الرخجي (٢)وطبقته فسقط كثير من شعره " (٣) • وما احوجنا في موضوعنا هذا لمثل هذا الشعر الذى كان يقوله القصافي فيا ولئك " الوضعاء" • ومثل قول ابي هفان كثير في تلك المصادر وحتى المحدثون حين يذكرون بعض اولئك الشعراء كأبي فرعون الساسي او ابي الشمقق فانما هدفهم الفكاهة والتندر وعلى الرغم من ان هذين الشاعرين لجأ الى السخرية كوسيلة تبليغ حتى يكون لكلامهما المدى الانسب فان سخريتهما من النوع المأساوى الذى يبكي اكثر مما يضحك•

---

١) المرزباني: الموشح ص٣٨٤ تحقيق علي محمد البجاوى مط دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ •

٢) فرج الرخجي: كان مملوكا لحمدونه بنت الرشيد ولحق ولاؤه بالرشيد وقلده الاهواز (ابن الجراح : الورقة ص٨).

٣) ابن الجراح : الورقة ص٨ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج ط٢ مط دار المعارف بمصر القاهرة١٩٥٣ م

وجاء الان دور مناقشة بعض الاراء حول شعبية الشعر فمن ذلك قول البهبيتي من ان اخر الحكم الاموى كان فيه" نمو للشعبية في الشعر لانه عهد فكاك النفوس مما كان يغلها من قبل من اسار " (١) .

اولا: ان العهد الاموى من اوله الى اخره ، لم يكن عهد فكاك للنفوس مما كان يربطها من قبل فيجميع الميادين ، فمن الناحية السياسية نعرفجميعا ان الامويين لجوءوا الى مبدأ" فرق تسد" وذلك بجعلهم القبائل تتضارب وتتصارع فيما بينها باحياء العصبية القبلية التي حاول القرآن نزعها من نفوس العرب واستبدالها برابطة اوسع واشمل هي رابطة الاسلام .

ثانيا : كلنا نعرف ما فعل الامويون بآل البيت الذين كان ينظر اليهم الشعب على انهم وحدهم مخلصوه من المحن التي هو فيها ومقاتل الطالبيين شاهد على ذلك .

ثالثا : اذا كان الكاتب يقصد بفك الاسار على النفوس تلك الامور التي بدأت تظهر لدى بعض الخلفاء ولدى قطاع قليل من الناس كالاستخفاف بحدود الدين وتعاليمه فهذا لم يكن عاما لدى الشعب ولم يصل الى ما وصل اليه في العصر اللاحق .

ولسنا ندرى لماذا ربط الكاتب بين نمو الشعبية وفك الاسار على النفوس لان الشعبية موجودة باستمرار حيثما كان الشعب ، وربما قد تكون اوضح في الفترات التي يتعرض فيها الشعوب للتسلط والظلم والعنف كما حدث في العصر الاموى بالذات .

---

١) البهبيتي: تاريخ الشعر حتى اخر القرن الثالث الهجرى ص ٣٨٣ مط دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ م

ويقول الكاتب مرة اخرى ان الشعر الشعبي كان" يتجه الى شعبية تقربه من نفوس الناس وتباعد بينه وبين مذهب الشعر الرسمي الذى سبقه"(١).

ونفهم من هذا الكلام ان الشعر قبله كان رسميا كله وهذا غير صحيح لان الشعر العربي حتى قبل العصر الاموى كان يهتم بالناس الا ان ظروفا كثيرة حالت دون وصوله الينا منها كما قلنا سابقا النظرة السلفية للتراث ومنها ان كثيرا من الشعر قبل الاسلام كان مرتبطا بالوثنية وكانت فيه امور مخالفة للاسلام فترفع رواتنا عن ذكر مثل ذلك الشعر زيادة على ان الكثير منه قد ضاع بسبب اختفاء بعض المصادر التي اشارت اليه وبسبب الرواية وهي الطريقة المستعملة انذاك فينقل الاخبار من عصر الى عصر ، ففي الرواية تضيع التفاصيل ويطور الخبر حسب الزمان والمكان .

لكن ماذا يفهم صاحب هذه الاراء السابقة من الشعر الشعبي او من شعبية الشعر كما يسميها؟ انه يراها" اتجاها فطريا من الشاعر الى نحو من التعبير عن صاحبه في غير تقيد بالتقاليد الموروثة ، تقيدا يجعل الشعر كله صورة مكرورة من القديم ." (٢) فهو يرى اذا ان كل شعر غير قديم وكل شعر يثور على التقاليد الفنية الموجودة قبل العصر الاموى هو شعر شعبي . وهذه مغالطة يجب الا نقع فيها فكم من شعر "حديث" فيذلك الوقت لم يكن الا امتدادا للشعر الرسمي وكم قديم كان يمثل قمة الشعبية .

وهو يرى ان الشعبية العامة للشعر تحققت في العصر العباسي بعدما سبقتها ارهاصات مهدت لها في العصر الاموى(٣) . وهذا صحيح من ناحية فقط بحيث ان تراث عصر ما يؤثر حتما ان سلبا وان ايجابا فيتراث العصر

---

١) البهبيتي :المرجع السابق ص٣٣٥
٢) البهبيتي : المرجع نفسه ص٢٩٤ - ٢٩٥
٣) البهبيتي: المرجع نفسه ص٣٨٤ - ٣٨٦

اللاحق ، وذلك بازدهار بعض الجوانب منه وطفوها الى على بعدما كانت خافتة او باندثار بعضها الاخر الذى لم يعد يلائم العصر وان كان من قبل يحتل المقدمة ، ولنا مثال فيظاهرة النقائض التي اختفت بعد ان سادت العصر الاموى ضجة وضجيجا ، وباختصار لايبقى الا مايتماشى مع متطلبات العصر الجديد .

وهويفهم ايضا من الشعبية سهولة اللغة بحيث يستعمل الشاعر الالفاظ الجارية على السنة العامة والتي يفهمها الشعب بدون كبير عناء وهذا صحيح ايضا من ناحية واحدة فقط لان الجماهير تفهم وتتذوق مايمسها بسهولة وبسرعة اكثر من الموضوعات الاخرى التي لاعلاقة لها بها . ثم يستشهد على اقواله هذه بشعر بشار وابي العتاهية فيرى ان بشارا ادرك " وجوب ان يمل الشعر الى كل انسان وان يعالج كل موضوع ".(١) وهنا يلمس الكاتب الموضوع ويضع يده عليه لكنه سرعان مايبتعد عنه بقوله : " نزل بشار بالشعر الرفيع من موضوعاته الرفيعة فيالشعر الى كل موضوع مهما بلغت تفاهته يعالجه شعرا ليرضي طائفة من الناس .." (٢) ولايكفي ان يتناول الشاعر اى موضوع تافه وينظم فيه شعرا ليصبح شعبيا ، لان بشارا حين تناول تلك الموضوعات كان يصدر عن وجدان ذاتي مما جعل شعره فردى الاتجاه احيانا كثيرة . وهذه قضية نجدها فيشعرنا العربي منذ العهد القديم وحتى الان سواء كان بالفصحى ام بالعاميات المختلفة وهي الشعر الصادر عن الوجدان الفردى ، فهذا الشعر ليس رسميا ولكنه ليس شعبيا كذلك على انه من الشعبية اقرب ويمكن ان نلحقه بالشعر الشعبي ونسميه

---

١) البهبيتي: تاريخ الشعر الخ ص٣٥٤

٢) المرجع نفسه : ص ٣٥٣

عاميا للتفرقة فقط وهذا لايعني ابدا اننا نسيء للعامة في شيء •

نعود الى قضية الشعر الرفيع التي طرحها الكاتب حين تحدث عن بشار والتي يفهم منها ان الشعر يجب ان يبقى في سومعته عاليا نقيا وان بشارا اساء الى هذا الشعر حين نزل به الى الناس وموضوعاتهم التافهة • وهنا يجب ان نتساءل : ماذا يقصد بالرفعة في الشعر ؟ فان كانت تعني ان يكون الشعر جزلا ومحبوكا على طريقة القدامى وان يتناول الموضوعات (" الجادة ") التي تناولوها فهو لايعدو ان يكون تابعا لشعر الدعاية الرسمية التي تشبثت بمثل هذه الافكار حتى تسمح لها بالسيطرة على الوضع الراهن • اما اذا كانت الرفعة ان يكون الشعر مستوى تطلعات الجماهير وطموحاتها فهذا هو الشعر الشعبي الحقيقي •

اما ابو العتاهية فان الكاتب يرى انه الى " الشعبية في لفظ الشعر " (١) لكن اللفظ الشعبي وحده غير لجعل الشعر شعبيا كما ذكرنا من قبل لان الاهم من ذلك هو المضمون الـ للشعر الذى يفرض على الشاعر الفاظا تناسبه ، فشعر ابي العتاه لم ينل هذا القسط الوافر من الشهرة والانتشار بسبب لفظه وحده بـ ـا بسبب القضايا التي طرحها وعالجها كالوضع الاجتماعي والاخلاقي والاقـ والديني للمجتمع الذى كان ينتمي اليه • وعلى الرغم من اشتهار ابي ـة بالزهد الذى طغى على شعره الا انه في زهده ذلك كان يتصدى لـ ا والمشاكل التي كان يعاني منها الناس في العصر العباسي الاول •

ويرى الكاتب اخيرا ان الشعبية بجميع مفاهيمها تمت في العصر العباسي ، وان الخليفة الاموى الوليد هو الاب الروحي للعصر كله (٢) • ففي الشطر الاول من قوله تعميم لايفي بالغرض لاننا بينا سابقا ان الشعر

---

١) البهبيتي المرجع السابق ص٣٨٧

٢) المرجع نفسه ص٣٢٦

الشعبي كان ومازال موجودا منذ اقدم العصور وليس من المنطق في شيء ان ينفرد عصر واحد به دون العصور الاخرى . وفي الشطر الثاني من قوله مبالغة صريحة اذ كيف يعقل ان يكون شخص واحد ابا فنيا لعصر زاخر بصنوف الفنون والانجازات في مختلف مناحي الحياة كالعصر العباسي ، على الرغم من ان الفرد في ظروف معينة قد يؤثر في عصر بأكمله وربما في عصور عديدة مثل الانبياء والعلماء والفلاسفة . والوليد بالذات لم يكن ابا لظاهرة الشعبية في العصر العباسي لانه اولابعيد عن الجماهير لكونه خليفة من اسرة تقم عليها الشعب كثيرا بليمكن ان نقول ان الذين قلدوه كانوا مثله موسرين مدفوعين لان يستمتعوا بالخيرات التي تدفقت عليهم دون ان يتعبوا في الحصول عليها . لم يؤثر فيهم الوليد اذا بل وضعهم المشابه لوضعه هوالذى فرض عليهم انيكونوا مثله وربما اكثر منه .

وخلاصة القول ان الكاتب وقع فيهذه المغالطات لانه اتخذ الشكل وحده فيصلا في الحكم علىالشعر ولولا الشكل لما استطاع ان يربط بين الوليد وبين ابي العتاهية . ومرة اخرى نقول ان الشكل وان كان يلعب دورا كبيرا في تحديد الاتجاه الا انه يبقى ناقصا مالم يدعم بالمضمون الذى يعطي المعنى الحقيقي للشعر .

وهناك باحث اخر وقع فيالمغالطات نفسها تقريبا وهو احمد صادق الجمال، فهو يقول فيا ثناء حديثه عن الفرق بين الادبين الشعبي والعامي : " نفرق بينهما علىاساس الاعتبار اللفظي اولا ، فنجد ان الادب العامي قد استقى مادته من الفصحى المصحفة والملحونة ، ومن الالفاظ الدخيلة بل ومن اللغة الجارية ، الا انه قد ظهر فيها التجريد ولاكذلك الادب الشعبي الذى يتخذ مادته من الملحون والدخيل ، الا انها الفاظ اسلوب الحديث الجارى ... وهكذا لايختط الادب العامي حدودا معينةلالفاظه كي يلزمها كما

هوالحال في الادب الشعبي." (١) وقد تعمدنا نقل هذا النص كما جاء على الرغم من طوله لنبين غموضه ، اذيبدو جليا ان الفكرة لم تتضح لدى هذا الباحث ، فهو يحاول ان يفرق بين الادبين ، العامي والشعبي ، وكلاهما في نظره يستقي مادته من الفصحى المصحفة والملحونة والدخيل والكلام الجاري بين الناس الا ان لغة العامي قد ظهر فيها التجريد (اوالتجديد) بينما يتخذ الشعبي الفاظ اسلوب الجاري التي لايحتوى علىتجريد (او تجديد) كمايفهم من السياق .

ولكن ماذا يقصد الباحث بالادب العامي والادب الشعبي؟ الادب العامي عنده هو: " الذي دخلت لغته اللحن وبعد عن قالب اللغة الفصيحة والاساليب المولدة اواللهجات . " (٢) وهذا يقتضي منا ان نفهم ان الادب الشعبي عكس العامي اي انه هوالذي لم يدخل اللحن لغته ولم يبتعد عن قالب الفصحى و الاساليب المولدة واللهجات . ثم يوضح الباحث الفرق بينهما اكثر بكون الادب الشعبي يعتمد المشافهة اكثر من التدوين ويصدر عن المجتمع ككل بينما يعتمد العامي علىالتدوين ويصدر عن فرد بذاته (٣) .

وهنا تتضح المغالطة التي وقع فيها الباحث لان المقاييس التي اعتمدها للفرق بينهما لاتثبت امام النقد ، فالمشافهة التي جعلها حكرا على الادب الشعبي ليست ابدا دليلا على شعبية الشعر لان كثيرا من النصوص تنتقل شفويا ولكن لاعلاقة لها بالشعب الا انه يمس الموضوع

---

١) احمد صادق الجمال: الادب العامي في مصر فيالعصر المملوكي ص٧٣
الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة١٩٦٦

٢ـ ٣) المرجع نفسه ص ٧٢ - ٧٣

حين يقول ان الادب الشعبي يصدر عن المجتمع ككل . واما النقطة الثانية التي ذكرها اى تدوين العامي ونسبته الى فرد معين فهذا ايضا ليس دليلا كافيا لجعل الشعر غير شعبي فكما ذكرنا من قبل ليس في معرفة مؤلف النص اى ضرر او حرج ولاينزع هذا التدوين صفة الشعبية عنه، فقد يكون الاثر الادبي معروف المؤلف مدونا لكنه مع ذلك يبقى في صميم الادب الشعبي، ولعل السبب في وقوعه فيهذه المغالطة هواهتمامه بالشكل اكثر منه بالمحتوى ولو انه يناقض كلامه هذا فيمابعد حين يقول :" نرى ان الادب الشعبي والادب العامي كليهما يعبران عن نفسية المجتمع وبمعنى اقرب يعبران عن نفسية الطبقات المحكومة". (١) لقد اكتشف ان الشكل ليس اساسا في التفريق بينهما وليس فاصلا لان كليهما كما قال يعبر عن نفسية الطبقات المحكومة ، وهو بعد ذلك يدرك ان هذا العامي قد نشأ وانبثق من"الوجدان الفطري ليعبر عن حياة القطاع الاجتماعي الكبير ." (٢) لكنه لم يستطع التخلص من قضية الشكل التي اوقعته في هذا اللبس .

ان الكاتب لايفصل بين الادبين فيالنهاية الابعض الامور الشكلية الثانوية ، لكن المغالطة الكبرى وقع فيها عندما حاول ان يفرق بين الادبين العامي والرسمي وذلك بقوله: " تمييز الادب العامي عن الادب الرسمي بانه لايتبع عمود الشعر وانه لايسير علىالوزن العربي الموروث"(٣) .

قبل ان نناقش هذا الرأى يجب الا يغيب عن بالنا ان الباحث كان يبحث فيالشعر اوفي الادب العامي فيمصر عهد المماليك ، وربما وجد ان الشعر الشعبي كان خارجا علىالتقاليد العروضية الموروثة وان الشعر

---

١) احمد صادق الجمال: المرجع السابق ص ٧٤

٢) المرجع نفسه ص ٧٢ - ٧٣

٣) المرجع نفسه ص ١٤٥

الرسمي كان فصيحا موزونا مقفى . ونعود الى الرأي السابق لنقول ان بحث الادب في عصر معين مهما كان نوعه لايعطينا حق التعميم بحيث نجعل الادب الشعبي الذي يسميه هو بالادب العامي هو ذلك الادب الذي لايتبع عمود الشعر ، لانه بكلامه هذا يجعل الشعر الذي يتبع الوزن الخليلي كله رسميا وهذا ليس صحيحا ولم يكن في يوم من الايام بهذا الشكل . ان الشعر الموزون في جميع العصور كان بعضه شعبيا وبعضه الاخر رسميا . انها قضية الشكل هي التي توقعه مرة ثانية في هذا الخطأ .

ونحن نعارضه في تسميته هذا الادب بالعامي لان كلمة عامة ارتبطت لدى الباحثين بمفهوم سلبي عن الجماهير العريضة ، فقد كان القدماء وقد تبعهم بعض المحدثين ، يظنون ان من ينتمي الى العامة هم :" اهل المهن والصنائع والتجار والخدم من الاماء والرقيق ، والفلاحون والجند واللصوص ، والعيارون ، والشطار .." (١) وهذا صحيح طبعا لكن الصيغة التي كانت تقال بها هذه اللفظة توحي بكثير من الاحتقار والانتقاص وقد تفنن القدماء فيمثل هذه الامور فجعلوا للعامة مرادفات كثيرة تنحو المنحى نفسه كالدهماء وخمار الناس والغرثاء من الناس ... وحشو الناس والهباء من الناس الخ (٢) ، وعلى الرغم من ان هذه التسميات ليست صحيحة دائما الا اننا نفضل عليها تسمية الجماهير والشعب حتى لاتكون للفظة خلفيات سلبية ناتجة عن موروث العصور القديمة .

وهناك باحث اخر يفضل تسمية الادب الملحون بدل الادب الشعبي ويرى ان الثانية خطأ ، لان الشعر الملحون فينظره اعم لانه يحتوى على

---

١) بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ص ١٣ مط الارشاد بغداد ١٩٦٧.

٢) المرجع نفسه ص١٤ - ١٥

الشعر الشعبي وغير الشعبي (١). ثم يستعير محمد المرزوقي من حسين نصار التعريف الذى يراه مناسبا للادب الشعبي في رسالته : الشعر الشعبي(٢) بقوله :" الادب الشعبي هو الادب المجهول المؤلف العامي اللغة والمتوارث جيلا عن جيل بالرواية الشفهية ." (٣) .

ولاداعي لتكرار النقد نفسه الموجه الومن سبقه من الباحثين الذين ركزوا جميعا على الجانب الشكلي للشعر الشعبي واهملوا مضمونه ومحتواه ، ثم أن الباحث يجعل الشعر الشعبي وغير الشعبي فيزمرة واحدة وكأن لافرق بينهما اذ كيف نعطي نفس القيمة للشعر الصادر عن الوجدان الجماعي وللشعر الصادر عن الذات الفردية؟ واضافة الىهذا ان الباحث يلغي من اهتمامه ذلك الشعر الفصيح الذى فيه اهتمامات جماهيرية . ولذا علينا انستنتج ان كل شعر يحتوى علىهموم الناس ومشاكلهم وطموحاتهم وماشابه ذلك نسميه شعرا شعبيا . وهذا ما اشار اليه الباحثان حسين مظلوم والصباحي بعبارة قريبة مما قلنا حين ذكرا ان" اصول الادب مأخوذة من التفكير العام للشعوب والامم ومن صور مجتمعاتهمواحاديثهم .."(٤)

---

١) محمد المرزوقي: الادب الشعبي فيتونس ؛ ص٥١ الدار التونسية للنشر تونس ١٩٦٧ .

٢) لم استطع الحصول علىهذه الرسالة .

٣) المرجع السابق ؛ ص ٤٩

٤) حسين مظلوم رياض ومصطفى محمد الصباحي : تاريخ ادب الشعب ص ز (مقدمة) مط السعادة ١٩٣٩

وفي الختام نريد ان نؤكد ان نقدنا للباحثين السابقين على انهم اهتموا بالشكل اهتماما استثنائيا ، الامر الذى جعلهم يقعون فيكثير من المغالطات ، لايعني اننا نريد ار ل من المحتوى وحده فيملا لشعبية الشعر • ولايعني اننا نقلل من اه ة الشكل ، لان ظرة تبقى في هذه الحال احادية الجانب ايضا • لذا نرى ان كلا من المحتوى والشكل يلعبان دورا هاما في تحديد اتجاه الشعر ، فالشعر الشعبي في" اسلوبه ومحتواه حصيلة لحياة عريقة عاشها الشعب" (١) •

ان التأثير بين الشكل والمضمون متبادل فحينما يتطور المضمون يتطور الشكل وحين يتطور الشكل يتطور المضمون ويمكن ان نرى ذلك فيما يلي من نماذج فيالفصول المقبلة علىالرغم من قلتها • لقد تطور انسان العصر العباسي الاول تطورا كبيرا وهذا ماجعله يعكس ذلك التطور في انتاجه الفكرى والادبي •

---

١) احمد رشدى صالح : الادب الشعبي ص ٤٥ دار عرفة بدون تاريخ •

الفصـــل الاول
اغراض الاتجاه الشعبي

١ - الفقر ومظاهره
٢ - العمـــل
٣ - المدح والهجاء
٤ - رثاء المتاع
٥ - التعامل مع البيئة الشعبية
٦ - الفكاهة والتندر
٧ - تسلط المـــال

موضوعات الاتجاه الشعبي واغراضه

مدخـــل:

يمكننا منذ البداية ان نقول ان موضوعات الاتجاه الشعبي هـــي الموضوعات التي تمس كافة الشعب من قريب اومن بعيد بحيث ان شعراءه يتناولون كل مافي حياتهم اذ ان الحياة هي منبعهم الدائم ومعينهـــم الذي لاينضب ابدا ، ولهذا تعددت موضوعات هذا الاتجاه وتنوعت ، فكثـرت الاغراض التي تطرقوا اليها ، وهذا التنوع هو الذي يعطي شعرهـــم ذلك النفس الطويل الذي لاينقطع .

لقد تحدثوا عن الفقر كثيرا والفقر موضوع رئيس في شعرهم ينطلقون منه دائما حتى تصبح له امتدادات وتشعبات لاحصر لها فالجوع والحرمان، والقناعة ، والسؤال ، والتسعلك ، والعمل ، والمدح ، والهجاء ، والحث على طلب الرزق ، ومهاجمة المتحكمين في اموال الناس ، فهذه الامـور كلها ذات علاقة بالفقر الذي كان كابوسا ينغص حياتهم ولايفارقهم ابدا . ولذا سوف نبدأ بموضوع الفقر منطلقا لهذه الاغراض : .

xxxxxxxxxxxxxx

xxxxxx

١ - الفقر ومظاهره :

ان الفقر لم يكن يخص الشعراء وحدهم بل كان يهيمن على الجماهير الكادحة خلفهم والذين ماهم الا ممثلوها . لقد تحدثنا فيما سبق عن " الطبقات" الاجتماعية ورأينا ان المجتمع كان منقسما عموما الى طبقتين لاثالثة لهما :
الفقراء من جهة والاغنياء من جهة اخرى، وتحدثنا كذلك عن ثروة البلاد الصناعية والزراعية وبينا انها كانت موزعة توزيعا غير عادل بحيث ان اقلية من الاغنياء هي التي كانت تملك جميع تلك الخيرات وتتصرف فيها كما يحلو لها بينما لم يكن اغلب الناس يجدون ما يمسكون به ارماقهم.

وكانت "الطبقة" الفقيرة تشعر بهذا الظلم وتحاول ان تثور عليه اوتنتقده على الاقل كلما سنحت لها فرصة ،ولعل اصدق مثال على ذلك ما قاله سعيد بن وهب حين نظر الى قوم من كتاب السلطان في احوال جميلة :(١)

من كان في الدنيا اخا ثروة ... فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كثب حسرة ... كأننا لفظ بلا معنى
يعلو بها الناس وايامنا ... تذهب في الارذل والادنى

ان هذا الشعر يمثل" الطبقة" الفقيرة احسن تمثيل ويبين ان الشعب في تلك الفترة كان يرزح تحت نير الفقر والحرمان والعوز وبالمقابل يزهو الاغنياء ويرفلون في النعيم والخير .

وللفقراء مع الجوع حكايات يطول سردها ، لكننا سنذكر بعضها مثالا . فقد كانت العرب تكني الجوع ابا مالك كما كانت تسمى الخبز

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ٢٠ ص٣٠٣ ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٠

جابرا وعاصما وعامرا وابن حية ، فقد قال احد الشعراء في كنية الجوع : (١)

ابو مالك يعتادني في الظهائر يلم فيلقي رحله عند جابر

وكان احد الاعراب يدعو ربه من كثرة الجوع قائلا : "اللهم ميتة كميتة ابي خارجة . ولما قيل له : ما ميتة ابي خارجة هذه ؟ اجاب : اكل بدحا وشرب عسلا ونام في الشمس فمات شبعان ريان دفيئا " (٢) .

وهكذا ينحصر امل الفقير في امور ثلاثة هي : ان يشبع وان يروى وان يدفأ. لكن الجوع اصناف والوان ، منه ما يقتل ومنه ما يفقد صواب العقل ويسكره وهذا ما اشار اليه عبدالصمد بن المعذل حين وصف فقيرا جائعا بقوله :(٣)

يتمشى في ثوب عصب من العر ي على عظم ساقه مسدول
دب في رأسه خمار من الجو ع سرى خمرة الرحيق الشمول
فبكى شجوه وحن الى الخبز ونادى بزفرة وعويل
من لقلب متيم برغيفين ونفس تاقت الى طفشيل
ليس تسمو الى الولائم نفسي جل قدر الاعراس عن تأميلي

ان الفقر اسكر هذا المسكين فجعله يبكي ويحن الى الخبز الذي ربما مر عليه زمن طويل دون ان يرى فيه شكله او يشم فيه رائحته . وليس في القصة اية مبالغة لان الجوع يفعل اكثر من ذلك ولان وضع الشعب

---

١) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٤٩

x أ ن ظ :

٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ، ص ٣٨-٣٩ منشورات دار عويدات ط اولى بيروت ١٩٦٦

٣ الاصفهاني :الاغاني ج ١٣ ص ٢٣١ (مصورة عن دار الكتب)

في تلك الفترة كان اكثر ترديا مما صوره الشاعر ففرص العمل كانت معدومة، وهكذا كان الناس يموتون جوعا دون ان يشعر بمأساتهم احد ودون ان تذكر ذلك كتب التاريخ .

والشيء الذي يسد هذا الجوع ويسكت انينه هو الخبز ولذا نجد اولئك الشعراء قد اكثروا من وصف الخبز وانواع الطعام التي يتمنون الحصول عليها، فسعادة الفقير في وجود قطعة من الخبز بين يديه كما قال احد الاعراب : (١)

فيحبة القلب مني زرعت حب ابن حبه

اما الاخر فقد فضل الخبز على صوت القرآن ، لان الانسان حين يكون بطنه فارغا لايمكن ان يفكر الافي الجوع ، فالفقر ظل على مر العصور مدعاة للكفر كما قيل ، ومجلبة له ، فقد قال ذلك الشاعر الجائع : (٢)

لخبز يا نبيت عليه لحم احب الي من صوت القران
تبيت تدهور القرآن حولي كأنك عند رأسي عقربان
فلو اطعمتني لحما وخبزا حمدتك والطعام له مكان

بينما يفضل الثاني الخبز على الدين كله بقوله : (٣)

ولست مضمر نسك كلا ولابعفيف
ولو اسام بديني ليعطه برغيف

ان هذا الشاعر يعاني وهو متأثر جدا بالعقلية السائدة ، واعني بالضبط

---

١) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٨٠
٢) المرجع نفسه ص١٠٦
٣) المرجع نفسه ص ١٤٣

فكرة القدرية التي روج لها الامويون من قبل واستغلها العباسيون من بعد حتى تبدو الامور مرتبطة بمشيئة الله وان ما يحدث للناس قدر محتوم لابد من الرضوخ له ، والشق الثاني من تلك الفكرة هوتشجيع ظاهرتي النسك والتعفف واللتان يتخلى الانسان بموجبهما عن مطالب حياتية كثيرة • ان الشاعر ينبه لهذه القضيةدون ان يدرك ابعادها المختلفة ولذا يرفضها جملةوتفصيلا ويقول انه مستعد ان يبيع دينه برغيف خبز • ويجب الا نتعجب من ان للفقر كل هذه القوة التيتدفع بالانسان الى مثل ماقام به هذا الشاعر لان الخصاصة من اكبر المصائب التي قد يصاب بها المرء ، فقد قال ابراهيم بن سيابة الشاعر نثرا : " اذا كانت في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق ، فلا تحضر الجنازة ، فان المصيبة عندك اكبر منها عند القوم ، وبيتك اولى بالمأتم منهم" • (١)

ولذا نجد ان الخبز عند ابي الشمقمق ، شاعر الفقر ، هو اهم شيء قد يجمعه الانسان في دنياه كماقال : (٢)

ماجمع الناس لدنياهم	انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته	فانت في امن من التـرز
والقلز من بعد على اثره	فانما اللذات في القلز
وقد دنا الفطر وصبياننا	ليسوا ذوى تمر ولا ارز
وذاك ان الدهر عاداهم	عداوة الشاهين للوز
فلو رأوا خبزا على شاهق	لاسرعوا للخبز بالجمز
ولو اطاقوا القفز مافاتهم	وكيف للجائع بالقفز

---

١) الاصفهاني: الاغاني ج ١٢ ص ٩٠ مصورة عندار الكتب

٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص١٢٧ - ١٢٨

وكان البحث عن الخبز يجعلهم احيانا يتعاطون اعمالا اويمتهنون مهنا قد يلومهم عليها الناس ، وعلى هذا رد احد الشعراء حين عير بعمل تعاطاه قائلا :(١)

فلاتلومانني ولوما جابرا فجابر كلفني الهواجرا

اما الشاعر الذي وقف شعره كله على وصف الخبز والرغيف فهو ابو المخفف عاذر بن شاكر الذى قام بثورة على الاساليب الشعرية القديمة على غرار ثورة ابي نواس على الاستهلالات الطللية الا ان شاعرنا هذا لم ينح ذلك المنحى الخمرى بل جعل الرغيف هدفا لشعره فهو يقول : (٢)

جانبت وصل الغانيات وصحوت عن وصل اللواتي
نعمت بهن عيون من واصلنه حتى الممات
فدع الطلول لجاهل يبكي الديار الخاليات
ودع المديح لامرد ولخادم ولغانيات
وامدح رغيفا زانه حرف يجل عن الصفات
يدع الحليم مدلها حيران يغلط في الصلاة
وكأنما نقش الرغيف نجوم ليل طالعات

وكما نلاحظ اراد ان يجعل الخبز مطلعا لجميع قصائده نظرا لقيمة هذا الخبز بالنسبة اليه والى امثاله وهو يسفه اولئك الذين يشببون في شعرهم او يتغزلون اوالذين يبكون الاطلال كعادة شعراء العرب القدامى او اولئك الذين يمدحون ، فلاقيمة فينظره الا فيوصف الخبز الذى يدع الحليم مدلها يغلط في صلاته ، ونراه يتعرض كذلك للذين قاموا بالثورة

---

١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م١ ج ٢ ص ٦٠٩
٢) ابن الجراح : الورقة ص ١٢٣ - ١٢٤

الخمرية في الاساليب الشعرية كابي نواس وذلك في قوله : (١)

دع عنك رسم الديـار ودع صفات القفار
وعد عن ذكر قـــوم قد اكثروا في العقار
ودع صفات الزنانيـــر فـــي خصور المـــــــــذارى
وصف رغيفـا سريـــا حكته شمس النهـار
فليس يحسن الا في وصفه اشعـــــارى

ومن احسن شعره قوله فيالرغيف كذلك : (٢)

دع عنك لومي يا عذول فلست افهم ما تقول
ان الرغيف محبب فـي الناس مطلبه جميـل

وهنا تجدر الاشارة الى هذه الظاهرة التي تكررت عند مجموعة من الشعراء اشهرهم ابو نواس اى ظاهرة الثورة علىالنمط المألوف في الاساليب الشعرية لذلك العصر ، والحقيقة ان هذه الظاهرةتتكرر فيجميع العصور اذ يلجأ بعض الشعراء الى المحاولة من الخروج عن تلك الاطر التقليدية والمنتشرة والتي تتحكم فيهم ، وهي عبارة عن محاولة منهم للبحث عن الطرافة حتى يتميزوا عن سواهم بهذه الطريقة اوتلك . وربما كانت هذه الظاهرة ، ظاهرة نبذ القديم والثورة عليه ، مرتبطة فيالبداية بالظروف السياسية او بظاهرة الشعوبية التي بدأت ملامحها الاولى تطفوالى السطح في العصر الاموى ويبدو ان هذا الامر اصبح موضة يقلدها كل شاعر يريد ان يخرج من المألوف مع العلم اننا لايمكن ان نجزم القول فيهذه القضية الا انها تبقى احتمالا واردا .

---

١) ابن الجراح : الورقة ص١٢٣
٢) ابن الجراح المصدر نفـ ص١٢٤

ولنعد الان الى شاعرنا ابي المخفف ونقارن بينه وبين ابن الرومي الذي اشتهر بوصف بعض المأكولات ، فهو يصف الخباز بقوله : (١)

ما انس لا انس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فيكفه كـــرة ... وبين رؤيتها زهراء كالقمـــر
الا بمقدار ماتنداح دائـــرة ... في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

او وصفه الرؤوس بقوله : (٢)

هام وارغفة وضاء ضخمة ... قد اخرجا من فاحم فـوار
كوجوه اهل الجنة ابتسمت لنا ... مقرونـة بوجوه اهل النـار

او وصفه الطباهجة (x) :(٣)

طباهجة كأعراف الديوك ... تروق العين من شرط الملوك
منم الى مساعدتي عليها ... فلست لمثل ذلك بالتروك

او وصفه اللوزينج (xx) بقوله: (٤)

لايخطئني منك لوزينج ... اذا بدا اعجب اوعجبا
لوشاء ان يذهب في صخرة ... لسهل الطيب له مذهبا

فابن الرومي في جميع اوصافه لهذه المأكولات لاينطلق من الداخل بـــل يبدو متفرجا يصف انطباعه لاغير بينما نشعر بمعاناة ابي المخفف عندما يصف الرغيف بالرغم من ان ابن الرومي يتمتع بالقدرة الفنية والموهبة الفذة في الوصف اكثر من الثاني ثم ان انطلاق كل واحد منهما مختلـــف

---

١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٢٥
٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٦١٤
x) الطباهجة :نوع من الحلوا او الطعام
٣) الراغب الاصبهاني:المصدر نفسه م ١ ج٢ ص ٦١٣
xx) اللوزينج : نوع من الحلواء شبه القطائف توءدم بدهن اللوز(لسان العرب)
٤) الثعالبي : ثمار القلوب : ج ٢ ص ٧

فابن الرومي لم يكن يشعر بالجوع لانه استطاع ان يتكسب بشعره ويكسب به مالا وبذلك يبتعد عن دائرة الفقر التي طالت ابا المخفف الذي ظل يرزح تحت نير العوز والحرمان ولهذا السبب نجده صادقا في وصفه .

لكن ،هل وصف هؤلاء الشعراء الشعبيون الخبز وتوابعه لانهم يحسون بالجوع فقط ؟ هل تغلبت عليهم معدهم حتى اصبح فكرهم مأسورا لديها؟ اننا نخشى ان يقول احد ان هذا شعر معدى صدر عن قوم همهم الاكل وملء البطون ، غير ان الحقيقة تنفي هذا الاتهام الذي قد يوجه اليهم ،فهم بوصفهم الخبز انما يصفون واقعا معينا عانى منه الشعب بأكمله في تلك الفترة .

ان هذا الوصف البسيط للخبز والاكل نستشف منه الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين" طبقتي" الاغنياء والفقراء .

وذلك الوضع يجعلنا نقول ان السلطة في تلك الفترة - وهي" الطبقة" الغنية- كانت تتعمد تجويع الشعب حتى يظل فكره محصورا في بطنه فلا يطالب بحقوقه الكثيرة .

لكن السلطة بعملها هذا كانت تحفر قبرها بيدها دون ان تشعر لان عواقب التجويع خطيرة ، فالفرد حين يجوع يثور وتكون ثورته عارمة بقدر جوعه .

وكان اولئك الشعراء يتألمون كثيرا لجوع اهلهم اكثر مما يتألمون لجوعهم هم ،فمن الصعب على الانسان ان يرى عياله يتضورون جوعا خاصة اذا كان عاجزا عن جلب الاكل لهم ، ولعل ابا فرعون الساسي وابا الشمقمق من اكثر الشعراء وصفا لجوع ذويهم واهليهم ، وهذا لايعني انهما الوحيدان بل كان هناك الاف من الفقراء فيمثل حالهما وربما اسوأ منهما الا انهما كانا يمتلكان الوسيلة التي تجعل تعبيرهما عن تلك الحال يبقى ، فهذا

ابو فرعون الساسي يقول : (١)

وصبية مثل صغار الذر ... سود الوجوه كسواد القدر
جاءهم البرد وهم بشر ... بغير قمص وبغير ازر
تراهم بعد صلاة العصر ... بعضهم ملتصق بصدري
واخر ملتصق بظهري ... اذا بكوا عللتهم بالفجر
حتى اذا لاح عمود الفجر ... وجاءني الصبح غدوت اسرى
عنهم وخلوا بأصول الجدر ... كأنهم خنافس في جحر
فارحم عيالي وطول امري ... كنيت نفسي كنية في شعري
انا ابو الفقر وام الفقر

اجل انه ابو الفقر وامه ، ابو عيال صغار كالنمل ، وجوههم اسودت من العذاب والحرمان ، لم يجدوا مايلتحفون به ومايغطونبه اجسامهم النحيلة" التي اكلها البرد • ماذا يفعل ابو فرعون وهم ملتصقون به يطالبونه الخبز؟ لم يجد شيئا سوى ان يعللهم بالفجر،هو متأكد انه لن يستطيع ان يقدم اليهم شيئا اذا جاء الفجر ، وما عليه الا ان يخرج طلبا للرزق ، محاولا ان يجد لهم بعض الزاد •

ويصف ابو فرعون اهله واولاده مرة اخرى بقوله : (٢)

سقيا لحي باللوى عهدتهم ... منذ زمان ثم هذا عهدهم
عهدتهم والعيش فيه غرة ... ولم يناو الحدثان شعبهم
فليت شعري هللهم من مطلب ... اواجدن ذات يوم بدلهم
اليك اشكو صبية وامهم ... لايشبعون وابوهم مثلهم
قد اكلوا اللحم ولم يشبعهم ... وشربوا الماء فطال شربهم
وامتذقوا المذق فما اغناهم ... والمضغ ان نالوه فهو عرسهم
وما رأوا فاكهة في سوقها ... وما رأوها وهي تنحو نحوهم

١) ابن الجراح: الورقة ص٥٨ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ٣٧٦
٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٧٧ - ٣٧٨

كأنهم جناب ارض مجدب — فلو يعطون اوجى سهمهم
بل لوتراهم لعلمت انهم — قوم قليل ريهم وشبعهم
كأنهم كانوا وان وليتهم — طرا موالي وكنت عبدهم
مجتهدا بالنصح لا الوهم — ادعولهم يا رب سلم امهم (x)

كان بعيدا عنهم لكنهم كانوا حاضرين في عقله وقلبه فهولم يخرج ليمدح هذا الممدوح الامن اجلهم . ويتضح التكسب جليا في هذه القصيدة . فهولم يصبغ على الممدوح تلك الاخلاق والصفات التقليدية ولم يحاول ان يمجده بأي شيء بل تصدى مباشرة لموضوعه الرئيسي وهو وصف حاله وحال اولاده وزوجته وبين انهم لايشبعون لانهم لم يجدوا ما يأكلون . وهذا ليس مدحا بمعنى الكلمة بل استجداء من فقير ، استجداء بوصف الحقيقة عارية دون احساس بالحياء ، بل كان طبيعيا ان يفعل هذا . ومن انى يأتيه الحياء وهو لم يضع نفسه فيهذه الحال اختيارا لان جملة من الظروف تضافرت على جعله فقيرا ؟

ولسائل ان يسأل: لماذا انجب هؤلاء الاطفال وهو يعلم مسبقا ان من الصعب تغذيتهم ؟ لنتصور حياة الفقير اليومية فيذلك الوقت . لم يكن يعمل الا نادرا ليس بسبب كسل منه بل لان فرص العمل كانت نادرة ، وهذا ماسبب له فيا غلب الايام فراغا كبيرا لم يستطع ان يتخلص منه الا بوسائل يخلقها خلقا اويستغل ماهو موجود لديه ، ولنقل بصراحة ان هذا من الاسباب الهامة في انجاب الاطفال لدى الفقراء . وبالمقابل نلاحظ ان الاغنياء كانوا ايضا ينجبون الاطفال بكثرة لان الظروف ساعدتهم على

---

x) وهي مذكورة في المحاسن والمساوئ للبيهقي ص٣٠٨ - ٣١١ ونسبها الاصمعي فيها الى سعيد بن مسلم لما وفد على الحسن بن سهل وهي طويلة عدد ابياتها (٤٥) بيتا .

امتلاك كل شيء الامر الذي دفعهم الى المبالغة في المتعة • ولكن شتان بين الفراغين ، فراغ الاغنياء وفراغ الفقراء • ومع ذلك لم يكن لهم الا انجاب الاطفال وكثرة الشكوى من الفقر والغلاء كما قال ابو فرعون الساسي : (١)

يا اخوتي يامعشر الموالي انا ابنكم وانتم اخوالي
هذا زبيلي وجرابي خالي والماء عال والدقيق غالي
وقد مللنا كثرة العيال

ونلاحظ هنا ان الفقر كان عاما كما قلنا سابقا بحيث تساوى فيه العرب والموالي وجميع الشعوب المنضوية تحت راية الخلافة العباسية باستثناء الاغنياء منهم •

ويشبه ابا فرعون ابو الشمقمق الذي عانى المشكلة نفسها حيث احاط به الفقر من كل جانب ، وكثر عنده العيال فكان دائم الترحال بحثا عن قوت لهم حيث يقول : (٢)

ان العيال تركتهم بالمصر خبزهم العصاره
وشرابهم بول الحمار مزاجه بول الحماره

وهكذا كان العيال لايتوقفون لحظة عن طلب الخبز فهم باستمرار عبارة عن افواه مفتوحة كأفواه الطير لاتتعطل عن الضجيج الا اذا ملئت جيا •

---

١) ابن الجراح: الورقة ص٥٨
٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص١٢٦ — ١٢٧

اما ابن يسير فيمثل قمة المآساة التي يتخبط فيها الفقـــراء ، فهم الى جانب حبهم لاولادهم ، يعز عليهم ان يروهم يتضورون جوعا ، فأبـن يسير كذلك كان يحب ابنـة اخت له كان رباها حبا كبيرا ، ولكنـــه معدم فقير لايستطيع ان يوفر لها الغذاء ، الامر الذى جعله يتمنى لهـا الموت من شدة حبه لها لانه لم يتحمل رؤيتها وهي تتالم جوعا في قوله (١):

لولا البنية لم اجزع من العدم ولم اجب في الليالي حندس الظم الخ..

انها فعلا لقمة الماساة ان تهوى له الحياة ويهوى لها الموت مـــن شدة حبه لها وخوفه عليها .

ويدفع الفقر بالانسان الى البحث عن الطعام بجميع الوسائل الممكنة ولهذا نجد الفقير يدق ابواب الناس متسولا طالبا منهم فضلهم ومعروفهم وهو بذلك يريق ماء وجهه وعزة نفسه ، ولهذا اقترن التسول عندهم بالكرامة والشرف ، فالشعراء الشعبيون ، ومنورائهم جميع الفقراء ، يتحســـرون لهذا الوضع لانهم من جهة لايقبلون ان تهان انفسهم ، ومن جهة ثانيـــة يجدون انفسهم مضطرين لمد ايديهم حتى يضمنوا القوت لذويهم ولانفسهـــم ، وعن هذا يعبر ابن الرومي بقوله : (٢)

اذا انا نالتني فواضل مفضل فأهلا بها مالم تكن بهوان
فاما اذاكان الهوان قرينها فبعدا لها ماينقضي لاوان
ومن ذا الذى يلتذ شهدا بعلقم ابت لهواتي ذاكوالشفتان
اريد مكانا من كريم يصونني والا فلي رزق بكل مكـان

---

١) ابن المعتز :طبقات الشعراء ص٢٨٢

٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ، م ا ج ٢ ص ٥٤١

ومع ذلك فلابد من حدوث ما يكرهون اى لابد لهم ان يتسولوا فليس هناك حيلة اخرى والا فسوف يلحقهم وذويهم تلف عظيم • لكن بعضهم فضل الموت على ان يمد يده كما قال احدهم : (١)

والموت خير للكريم من الضراعة للرجال

هذا لانه خبر اولئك الاغنياء والاسياد الذين ارادوا ان يدخلوا التاريخ على اكتاف هؤلاء الشعراء الفقراء ، ارادوا ان يخلدوا بقصائد مدح مقابل دريهمات تعطى ، وما ان تعطى حتى تذهب بسبب تفشي الحاجات وغلائها ، قلنا ان هذا البعض رفض مد اليد وقرر ان يموت كريما لانه جرب مد اليد فلم ينل منه شيئا ، كما قال احدهم : (٢)

سجدنا للقرود رجاء دنيا ... حوتها دوننا ايدى القرود
فما بلت انا ملنا بشيء ... علمناه سوى ذل السجود

لكن ابا الينبغي الذى مات في السجن بسبب شعره يقول وهو مدرك كل هذه الملابسات : (٣)

الا يا مالك الناس ... وخير الناس للناس
انتهاني عن الناس ... فاغنني عن الناس الخ .....

فببساطة هذه الكلمات النابعة من قلب معذب مقهور يبين ابو الينبغي

---

١) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٢٧٦
٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م١ ج٢ ص٥٩٦
٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

ان الانسان الفقير مضطر لسؤال الناس واستجدائهم مادام في حاجة ملحة اليهم .

فيرد عليه ابو العتاهية بنبرة مجرب محنك: (١)

اتدرى اى ذل في السؤال وفي بذل الوجوه الى الرجال؟

وصحيح ان هؤلاء الشعراء قد يحصلون على بعض ما يطلبون لكن الفرق شاسع بين الذى حصلوه وبين الذى فقدوه لان ما حصلوا عليه قد يفيدهم الى حين لكن منافسه سرعان ما تفنى ويبقى عاره مخلدا كما قال احد الاعراب :(٢)

ان المسائل للرجال مذلة تفنى منافعها ويخلد عارها

بل ان الموت يتعدى منافع المسائل الى السائلين فالسائل في رأى بعضهم يحسب ميتا متى ما سأل كما قال احدهم : (٣)

لاتحسبن الموت موت البلى فانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا افظع من ذاك لذل السؤال

لكن هذا لايعني ابدا ان الفقير معاب حين يمد يده ، فظروفه هي شفيعه ، وان يسأل خير له من ان يلجأ الى طرق اخرى كالقتل والنهب والسرقة . المهم ان يبقى في فقره شريفا وتبقى نفسه مكرمة كما قال ابن هرمة: (٤)

---

١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ١٥٥
٢) ابن عبدالبر القرطبي: المصدر نفسه ق١ ص ١٧٤
٣) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ١٣١
٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢١ والنويرى : نهاية الارب ١٠٨/٣ وابن عبدالبر: بهجة المجالس ق ٢ ص ٦٤ وابو الفداء : البداية والنهاية ١٢٥/١ مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر الرياض ط اولى ١٩٦٦

عجبت اثيلة ان رأتني مخلقا ثكلتك امك - اى ذاك يروع؟
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقـــوع

وحين لم يكن ينفع السؤال ولايجدى الطلب كان الفقير يلجأ الـــى الاماني والاحلام ليحقق فيها مالم يستطع تحقيقه فيالواقع . وكانت هذه الاماني والاحلام تسعده لحظات من الدهر علىالرغم من انه كان يعلم انها اضغاث احلام ليس غيركما قال احدهم (١) :

منى ان تكن حقا تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

الا ان احلام الفقير هذه ليست كأحلام الموسر ، فالفقير يحلم بقطعة خبز يأكلها اوبلباس يقيه شر البرد او براحلة تطوى له الارض وتدنى البعيد وماشابه ذلك من الاشياء الضرورية لحياته بينما يحلم الغنـــي بالامور الكمالية والملذات والترفيه ، فهذا ابو الشمقمق الفقيـــر يعدد طلباته التيبتمناها من الحياة: (٢)

مناى من دنياى هاتي التي تسلح بالرزق على غيـرى
الجردق الحاضر مع بضعـــة من ماعز رخص ومن طيـر الخ ...

ان هذه الاحلام هي انعكاس لرغبات كل فقيـر ، فهولـم يطلب من دنيـــاه اشياء مستحيلـة بلطلب منها ماتستقيم به الحياة فقط بطريقـة موحيـة جدا ، فقد رأى هذه الدنيـا توزع الرزق علىغيره وهو منه خال .

وللفقراء احلام اخرى كثيرة منها ماتمناه فقير اخر رأى نفســـه

---

١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ١٩١
٢) الجاحظ : القول فيالبغال ص١٢٨

غنيا يامر وينهي بقوله : (١)

اتراني اقول يوما من الدهر لبعض التجار افسدت مالي
اوتراني اقول من اين جاءت لدوابي بذا الشعير جمالي
ارتراني اقول ياقهرماني سل غلامي موفقا عن بغالي
اوتراني امر فوق رواق لي عال فيمجلس لي عالي
اسرجوا لي ، فيسرجون دوابي فاقول : انزعوا السروج بدالي
هذيانا كما ترى وفضولا دآءم النوك من عظيم المحال

وهذا الشاعر كما نرى يستفيق من حلمه في النهاية ويرى انه هذيان لاطائل من ورائه .

ويذهب احد الاعراب الى تمار بالكوفة فيعرض عليه حلما رآه البارحة فيقول : (٢)

رأيتك في النوم اطعمتني قواصر من تمرك البارحة
فقلت لصبياننا ابشروا بروءيا رأيت لكم صالحه
قواصر تأتيكم بكرة والافتأتيكم رائحة
فقل لي : نعم انها حلوة ودع عنك لا ، انها مالحة

وواضح ان حلم هذا الفقير يدور حول الاكل وتوفيره لصبيانه ،وهذا حقه الطبيعي . وحال كهذه تجعله احيانا يتمنى ان يصبح غنيا لانه

---

١) الجاحظ : القول في البغال ص ٤١
٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٤١

من شدة فقره يظن ان بالغنى تنتهي الامه وعذاباته فيالحياة ، ولهذا نراه احيانا يقارن بينه وبين الغني الذى يختلف سلوكه عنه ، فكلاهما اثر فيه وضعه الطبقي ، وهكذا نجد العماني يقارن بقوله : (١)

لايستوى منعم بندار(x)	له قيان وله حمار
ملخص قصه البيطار	يطيف فيالسوق به التجار
وعربي يرده اطمار	يظل فيالطرق له عثار
قد نصلت من رجله الاظفار	يأوى الى حمن له اوار
احدب قد مال به الجرار	لادرهم فيه ولادينار
يأكل هزلى الغار فيه الغار	من بلدة عال بها الغبار
ليس على كهل به وقار	مثل الشياطين اذا استثاروا
لهم دنان ولهم جرار	وفاشفارات(xx) قفار

والفرق ، من هذه القصيدة واضح بين ذلك المنعم وبين الفقير ، فالاول يملك كل شيء ، القيان والحمير التي نظم شكلها البيطار والثاني يلبس الاطمار ، ويمشي حافيا حتى تنصل منه الاظفار . وكان الفقير مع ذلك يدرك انوضعه هذا ليس طبعيا ، اى ان فقره لابد وانيكون له سبب فمنهم من ارجعه الىالقدر،وهذه هيالنظرة الشائعة ، ومنهم من ارجعه الى الوضع الاجتماعي ككل . فقد انشد احد الاعراب لما عذلته زوجته

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص١١٢ - ١١٣

x) بندار : هوالذى يخزن البضائع للغلاء (المصدر نفسه)

xx) فاشفارات : نوع من الطعام (المصدر نفسه)

وحثته على طلب الرزق قائلا : (١)

باتت تعيرني الافتار والعدما	لما رأت لاخيها المال والحشما
عنف لرأيك ، ما الارزاق من جلد	ولامن العجز بل مقسومة قسما
يا امة الله اني لم ادع طلبا	للرزق قد تعلمين الشرق والشأما
ولذلك بالاجمال في طلـــب	لم ارد عرضا ولم اسفك لذاك دما
لوكان من جلد ذا المال اوادب	لكنت اكثر من نمل القرى نعما
ارضى من العيش مالم تحوجي معه	انتفتحي لسوءال الاغنياء فمـا
واستشعرى الصبر عل الله خالقنا	يوما سيكشف عنا الفقر والعدما
لاتحوجيني الى مالو يذلت لـــه	نفسي لاعقبك التهمام والندمـا
بالله سرك ان الله خولنـــي	ماكان خوله الاعراب والعجمـا
وانني لم احز عقلا ولا ادبـا	ولم ارث والدى مجدا ولا كرمـا
فعسرة المرء احوى في معاشك من	امر يحز عليك الهم والالمـا

واما ابو الينبغي فقد اطلق المثل التالي لما رأى حال الفقراء وحـال الاغنياء بقوله : (٢)

صبرا على الذل والصغـار	ياخالق الليل والنهار
كم من حمار على جـواد	ومن جواد بلا حمـار

وعندما تكون الحال كهذه فان الغصي في واد والفقير في واد اخر ، يفكر ذلك في ملذاته ويفكر هذا في اسكات انين الجوع كما قال دعبل وهو يذم غنيا

---

١) الشريف المرتضى: امالي المرتضى ج ١ ص ٤٩٨

٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٣٠

بخيلا اسمه ابوعمران :(١)

يحن الى جاراته بيت شبعه وجاراته غرثى تحن الى الخبز

وفوق هذا كله نجد حتى الحظ ينفر منهؤلاء الفقراء ويتخلى عنهم وكأن بينه وبينهم عداوة ، فهم اينما ذهبوا يشعرون ان نحسا مايطاردهم وان لعنة ماتحيق بهم ، وهم حين يتحدثون عن سوء حظهم انما يصفون الظلم الاجتماعي الذي كانوا يعانونه في ذلك العصر ، فكونهم فقراء جعلهم من المغضوب عليهم في الارض ، فهذا ابو الشمقمق يتحدث بمرارة عن سوء حظه فيقول : (٢)

لو ركبت البحار صارت فجاجا لانرى فيهن متونا امواجا
ولواني وضعت يا قوته حمراء في راحتي لصارت زجاجا
ولو انى وردت عذبا فراتا عاد لاشك فيه ملحا اجاجا

فهذه الابيات بغض النظر عن مبالغتها ، تعكس واقعا مرا عانى منه القوم فهم اينما نظروا لايجدون الا عدما وفقرا ، ويصف غيره وهو عمر وبن الهدير سوء حظه باسهاب فيقول (٣) :

وقفت فلا ادرى الى اين اذهب واى امورى بالعزيمة اركب
عجبت لاقدار علي تتابعت بنحس فافنى طول عمرى التعجب
ولما طلبت الرزق فانجد حبله ولم يصف لي من بحره العذب مشرب
خطبت الى الاعدام احدى بناته لدفع الغنى اياى اذ جئت اخطب

---

١) المبرد: الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١١٨-١١٩ مكتبة المعارف بدون تاريخ .
٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢١٦
٣) ابن عبدربه : المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١٦ — ٢١٧

فزوجنيها ثم جاء جهازها ... وفيه من الحرمان تخت ومشجب
فأولدتها الحرف النقي فماله ... على الارض غيري والد حين ينسب
فلو نهت في البيداء والليل مسبل ... علي جناحيه لما لاح كوكب
ولو خت شرا فاستترت بظلمة ... لاقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو بات انسان علي بدرهم ... لرحت الى رحلي وفي الكف عقرب
ولو طر الناس الدنانير لم يكن ... شيء سوى الحصباء رأسي يحصب
ولو لمست كفاي عقدا منظما ... من الدر اضحى وهو ودع مثقب
وان يقترف ذنبا ببرقة مذنب ... فان برأسي ذلك الذنب يعصب
وان ار خيرا في المنام فنازح ... وان ار شرا فهو مني مقرب
وان اغد في امر اريد نجاحه ... فقابلني الاغراب وارنب
امامي من الحرمان جيش عرمرم ... ومنه ورائي جحفل حين اركب

فعلى الرغم من المبالغات نفسها التي نجدها عند ابي الشمقمق فان هذه القصيدة خير دليل على ذلك الوضع التعس الذى فرضته ظروف عديدة على العصر العباسي الاول حيث كان الفقراء لايجدون سبيلا يحصلون منه على مايريدون من الحياة من خبز وراحة بال .

ومن مظاهر الفقر الاخرى التي تعرض لها الشعراء الشعبيون ذلك الوصف الذى كانوا يصفون به الوسائل التي كانوا يسافرون بها ، وهم في الحقيقة لايسافر اغلبهم الا راجلين لانهم لايملكون اية راحلة ، وللراحلة في ذلك الوقت اهمية كبرى لانها الوسيلة الوحيدة تقريبا التي كان يتنقل بها الانسان برا ، ولها في حياة الفقراء قيمة عظمى لانهم بواسطتها ايضا يسعون من اجل كسب القوت لاولادهم وذويهم فهذا ابو الشمقمق

---

x) الحرف : الحرمان

يقول متحسرا :(١)

الحمد لله شكرا	امشي ويركب غيري
قد كنت آمل طرفا	فصرت ارضى بعير

وهويقول هذا لما اعيته الحيلة ولم يحمل على مايريد بل حتى هذا العير الذى رضي به لم ينله ولم يجد فيالنهاية الارجليه مطية حين يقول:(٢)

اخواني من الدهر يوما	لي فيه مطية غيررجلي
كلما كنت نهيضميخ فقالوا	قربوا للرحيل قربت نعلي
حيثما كنت لا اخلف رحلا	من رآني فقد رآنيورحلي

وهذا وصف دقيق وصريح لوضعه فهولم يجد لافرسا ولاحمارا بل كان عليه ان يعود رجليه المشي الطويل حتويصل الىمايريد اى حتى يصل الىذلك الممدوح الذى يامل ان ينالشيئا من كرمه .

وقد تناول بعض الشعراء الشعبيين وسيلة النقل هذه - اى الرجل - باسلوب قد يبدو ساخرا للوهلة الاولى لكنه صادق كل الصدق تبدو فيه تعاسة اولئك الفقراء الذين جعلتهم المأساة يسخرون من وضعهم،وابن يسير الشاعر من هؤلاء فهو يصف رجليه قائلا : (٣)

ان كنت لاعير لي يوما يبلغني	حاجي واقضي عليه حق اخواني
وضن اهل الهوادي حين اسألهم	من اهل ودي وخلصاني وجيراني
فان رجليّ عندى - لاعدمتهما -	رجلا اخي ثقة مذكان جولاني
تبلغانيّ حاجاتي وان بعدت	وتدنيانيّ مماليس بالداني
كأن خلفي - اذاما جد جدهما -	اعصار عاصفة مماتثيران
رجلاى لم تألما نكبا كأنهما	قطا وقدا وادماجا مداكان

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص١٢٧

٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٦

٣) الاصفهاني: الاغاني ج١٤ ص :٣٢-٣٣ (مصورة عن دار الكتب)

كأن ما بهما اخطو اذا أرتبها ... في سكة من اى ذاك سماكان x
ان تبعثا في دهاس تبعثا رهجا ... اوفي حزون ذكا منها شهابان
فالحمد لله يا عمرو الذي بهما ... عن العوارى وعن ذا الناس اغناني

ومع هذا الفقر فان الشاعر ابن يسير لم يفقد شرفه لانه يفضل ان يمشي راجلا حافيا على ان يذل للناس .

اما الحمدوني الشاعر فيصرخ فيوجه الله احتجاجا على هذه اللامساواة قائلا : (١)

تسامى الرجال على خيلهم ... ورجلي من دونهم حافيه
فان كنت حاملنا ربنا ... والا فأرجل بني الزانية

تلك صرخة انسان يئس من عدل الناس فتوجه الى الله طالبا منه المساواة في استغاثة شعرية رائعة تتضح فيها احاسيس الشاعر حين قالها .

ونظرا لاهمية استعمال الارجل فيتنقلاتهم ورحلاتهم فقد حظيت النعال ببعض اهتمامهم لفائدتها الكبيرة كوسيلة يستعين بها المسافر ، فهذا ابن يسير يصفها باسهاب فيقول : (٢)

كم اري من مستعجب من نعالي ... ورضائي منها بلبس البوالي
كل جرداء قد تحيفها الخصف بأقطارها سرد النقال xx
لاتداني وليس تشبه في الخلقة ان ابرزت نعال الموالي
لا ولا عن تقادم العهد منها ... بليت لاولا لكر الليالي

---

x هذا البيت مكسور في الشطر الثاني .

١) البيهقي: المحاسن والمساوئ ص ٢٧٨

٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٤١ تحقيق فوزى عطوى دار صعب بيروت ١٩٦٨م

xx النقال: النصال العريضة والقصيرة من نصال السهام (لسان العرب)

ولقد قلت حين اوثر ذا الود عليها بثروتي ومالي

من يغالي من الرجال بنعل فسوائي اذا بهن يغالي
اويفاهن للجمال فأني في سواهن زينتي وجمالي
في اخائي وفي وفائي ورأيي وعفافي ومنطقي وفعالي
ماوقاني الحفا وبلغني الحا جة منها فاني لست ابالي

وكما نلاحظ فان هذا الشاعر لم يكن يبحث عن نعال ليتزين بها اويفاخر بل لتقيه الحفا وتبلغه الحاجة ، ومثل هذه الموضوعات ليس تافهة ابدا كما قد يتبادر الى بعض الاذهان لان هذه الاشياء على بساطتها تبين لنا وضعا معينا كان يحياه امثال هذا الشاعر وهي شاهد صريح على البؤس الذى كانوا يعانون منه .

ومن بين الموضوعات التي تعرضوا لها والتي هي مظهر من مظاهر فقرهم ، وصفهم لبيوتهم التي كانت بالاجحار اشبه ، فعوض ان يشعروا بالسكينة فيها ويأنسوا اليها ،فاننا نجدهم يحسون بوطأة الفقر اكثر حين يعودون اليها . هذا الفقر الذى سد عليهم جميع المسالك وكأنه اخطبوط التف حول اعناقهم فلايدرون من اين النجاة . والدلائل التي سوف نوردها فيما بعد ستبين انها لم تكن بيوتا بمعنى الكلمة بل كانت اكواخا قصديرية لاتتوفر فيها حتى ابسط الشروط الصحية ، لان هذه الامور كان الفقير يعتبرها كماليات لايفكر فيها ابدا فهمه الاكبر ان يجد مكانا يأوى اليه والافمنزله الفضاء وسقف بيته السماء كما قال شاعر الفقراء ابو الشمقمق(١)

برزت من المنازل والقباب فلم يعسر علي احد حجابي
فمنزلي الفضاء وسقف بيتي سماء الله اوقطع السحاب

---

١) ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٦ — ٣٧

فانت اذا اردت دخلت بيتي علي مسلما من غير باب
لاني لم اجد مصراع بـــاب يكون من السحاب الى التراب
ولا اتشق الشرى من عود تخت اؤمل ان اشد به ثيابـــي

انها صورة رائعة لاتدل الا على مدى فقر هذا الانسان . انها تأوه مـــن الدهر وظلمه ومن الوضع الذي هم فيه جميعا .

وحين كان الجاحظ يصف هؤلاء الفقراء ويحصلون على بيت فان هـــذا البيت لاشيء فيه لانه جدران ترد عليهم الرياح وتقيهم المطر لاغيـــر ، ولنستمع الى ابي الشمقمق يصف بيته الذي من هذا النوع حين يقول:(١)

ولقد قلت حين اجرني البـرد كما تجرر الكلاب ثعالـــــه
في بيت من الغضارة قفـــر ليس فيه الا النوى والنخاله
عطلته الجرذان من قلـة الخيـــر وطار الذباب نحو زبالـــه (x)
هاربات منه الى خصـــب حين لم يرتجين منه بلالـه
واقام السنور فيه بشـــر يسأل الله ذا العلى والجلاله
ان يرى فارة فلم ير شيئا ناكسا راسه لطول الملالـــه
قلت لما رايته ناكس الرأس يمشي على شر حالـــــــه
ويك صبرا ، فأنت رأس السنانيـر وعللته بحسن مقالـــــه
قال لاصبر لي وكيف مقامي في قفار كمثل بيد تبالـــه

هذا بيت الفقراء ليس فيه الا النوى والنخالة اى لاشيء فيه سوى الفضلات ، تركته الجرذان لان ماوجدته فيه كان يابسا لايصلح لمعدتها وتركه الذباب ليستبدله بمكان احسن منه الخ ....

---

١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ٢٦٦
x) زبالة : موقع بالكوفة (المصدر نفسه)

ولما كان الانسان يخشى ان ينظر اليه نظرة شفقة فان ابا فرعون الساسي ذلك الاعرابي انسائل ، يصف بيته الموحش الخالي من كل مقومات الحياة بحيث لايجد السارق فيه شيئا اذا سولت له نفسه الولوج فيه بل سوف يسرق السارق على العكس من ذلك ، ففي هذا البيت يقول ابو فرعون الساسي(١) :

ليس اغلاقي لبابي ان لـــي ... فيه ما اخشى عليه السرقـــا
انما اغلقه كي لايـــرى ... سوء حالي من يجوب الطرقـــا
منزل اوطنه الفقـــر فلـــو ... دخل السارق فيه سرقـــــا
لاتراني كاذبا حين وصفـــه ... لوتراه ، قلت لي : قد صدقا

انها مأساة الفقير ، يريد ان يخفي فقره وعسره ، ولكن انى له ذلـــك والفقر يحوط به من كل جانب ؟

عندما يعود الفقير الوبيته ويسكن قلبه قليلا بعد الهيجان الـــذى سببه له فراغ ذلك البيت من كل مقومات الحياة ، يستلقي بكل همومه علـى ظهره ويتأمل حاله وحال امثاله فيحاول ان يعرف لماذا خلقوا هكـــذا فقراء لايملكون من الدنيا الا انهم من نظارتها ، فيتبادر الى ذهنـــه فكرة طالما سمعها تتردد على افواه القوم وهي ان عذاب هذه الحياة امتحان امتحن الله به عباده ، وهم وان تعذبوا على وجه هذه البسيطة فانهم سوف يجدون الراحة والطمأنينة في الحياة الاخرى • ونحن نقول ان الله لايرضى ابدا ان يعذب الناس الابرياء بمثل هذا العذاب لان هذا العذاب قد يدفعهم قسرا الى الكفر بكل الديانات وكل القيم •

لقد كانت العقلية السائدة ترجع كل شيء الى القدر وبعبارة اخرى الى مشيئة الله وذلك ناتج عن الاوضاع السياسية التي خلقتها تلك المرحلة اضافة الى اوضاع اجتماعية واقتصادية وعوامل اخرى معينة • كل ذلك كان

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٧٦

يريد من الناس ان يرضوا بما هم عليه حتى يبقى المستغِل مستغِلا ويبقى المستغَل مستغَلا وحتى لايثور اولئك الفقراء على اسيادهم . لقد انطلت الحيلة على بعضهم ولو الى حين لكن البعض الاخر تنبه لما في تلك الفكرة من امور سلبية فحاربها بشتى الوسائل : حاربها الشيعة والخوارج بالسيف وحاربها المعتزلة بالعقل والكلام . لكن الحيلة انطلت على البعض كما قلنا فراحوا يتهجمون على الدين ويثورون على تلك الاوضاع الدينية التي فهموا منها ان الله كتب عليهم ذلك الشقاء مثل ذلك الشاعر الذى لامته زوجته على ترك الصلاة فرد عليها قائلا : (١)

تلومُ على ترك الصلاة خليلتي ... فقلت اغوريي عن نا ظري انت طالق

لماذا اصلي؟ اين باعي ومنزلي ... واين خيولي والحلى والمناطق؟

اصلي ولافتر من الارض يحتوى ... عليه يميني؟ انني لمنافق

فوالله لاصليت لله مفلسا ... يصلي له الشيخ الجليل وفائق

فان صلاة السيء الحال كلها ... مخارق ليست تحتهن مخارق

ثورته بادية للعيان فهو يقول لزوجته لماذا اصلي لله ولم يعطني شيئا ؟ لم يعطني خيلا ولاحليا ولامناطق ولا املك حتى فترا من التراب ، فهو يرى انه اذا صلى على هذه الحال فانما هو ينافق ربه ، بل الذى يجب ان يصلي هو الذى انعم الله عليه بالخيرات .

لقد كفر بعضهم، ولكنهم معذورون فالفقر مدعاة للكفر وباب له، فهذا ابن سكرة الهاشمي يقول : (٢)

ولو اسام بديني ... لبعته برغيف

---

١) بهيج شعبان: اثر المعدة في الادب العربي ص ١٢١

٢) المرجع نفسه ص ١٢٣

وكما تلاحظ فقد بلغ الحرمان بهذا الانسان الدرجة يبيع فيها دينه كله برغيف •

وقد يفهم البعض ان هذا استخفاف بالدين لكننا لو تخيلنا تلك الظروف الصعبة التي كانوا ضحاياها لعذرناهم ولفهمنا مادعا بهم الى سلوك هذا المسلك لانهم لم يبق لهم فيتلك الاوضاع الا الله يستنجدون به وحين لاتحل مشاكلهم يثورون عليه لانهم لم يكونوا يدركون ان السبب لايكمن الا في حياتهم وحدها •

وهذا رجل اخر يفضل جهنم ويستلذها ويستطيب المقام فيها لما عاناه من شدة البرد لانه كان عاريا لم يجد مايتدثر به اويقي به جسمه الذى انهكه الجوع حين يقول : (١)

ايارب ان البرد اصبح كالحا	وانت بحالي يا الهي اعلم
فان كنت يوما فيجهنم مدخلي	ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

ويسأل هذا الفقير لماذا لايصلي وهو شيخ كبير فيقول :(٢)

أيطمع ربي ان اصلي عاريا	ويكسو غيرى كسوة البرد والحر

وفي هذا الكلام احتجاج كبير على الوضع لان اولي الامر غرسوا على مر العصور في خلد اولئك الناس ان مايحدث لهم انما هو قضاء وقدر، ولهذا نجدهم يهاجمون هذا القضاء والقدر •

لكن بعضهم الاخر لم يجرؤ على الاحتجاج بصوت عال بل اقتنع بما

---

١ ـ ٢) الابشيهي : المستطرف من كل فن مستظرف ج ٢ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥

يقال وبنصيبه من الحياة الشيء الذي جعله يلجأ الى ايهام نفسه بان في القناعة كل الخير وان الصبر مفتاح الفرج .

والقناعة ظاهرة اجتماعية ارتبطت بطقوس دينية تجهل اساسها الاول لكنها ذات مضمون اقتصادي بحيث جعل العرب منها صفة حميدة حتى يوهموا انفسهم بان الصبر على القليل يضفي على اخلاق الانسان لباسا جميلا وانه يروض نفسه بذلك على التحكم في شهواتها تطبيقا للاية الكريمة : " ان الله مع الصابرين" (x) . وفي هذا يقول ابو العتاهية :(١)

حتى متى يستفزني الطمع ... اليس لي بالكفاف متسع

ما افضل الصبر والقناعة للناس لو انهم قنعوا

ان في القناعة جانبين : جانبا ايجابيا واخر سلبيا . فالجانب السلبي يجعل الانسان يخضع للطبيعة بجميع اصنافها ولظروفها القاسية التي حرمته من العيش الهنيء وجعلت منه انسانا مغلوبا على امره ، وهي من هذه الناحية دعوة بورجوازية اراد بها الاغنياء ان يبقى الفقراء على حالهم بعدما غلفوها بصبغة دينية حتى يتقبلها الناس ، ولنستمع الى احد الفقراء وهو يقول : (٢)

اذا كان لي قوت بيومي وصحة ... فلاحال ارجو بعدها ان انالها

فهو فعلا قنوع . لكن الاتلاحظ ان هذه القناعة تعدت امور الاكل الى مجالات اخرى ، فهو يقول صراحة انه اذا وجد قوته وصحته فلن يبحث عن غير ذلك وهذا يعني ان قوى الظلم في مجتمعه قد امنت جانبه لانها خدرته بفكرة القناعة بحيث يقبل في النهاية ان تتحكم فيه تلك القوى وفي مصيره ومصير اولاده وطبقته كلها .

---

١) ابو العتاهية : الديوان ص ٢٣٠

٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٤١

(x) سورة البقرة آية (١٥٣)

اما الجانب الايجابي في القناعة فهو كونها تحرر الانسان من طامعه التي لاتنتهي ابدا وتجعله سيد الموقف كما يقول ابو العتاهية :(١)

اطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرا

والشيء الثاني في ايجابية القناعة انها تجعل للانسان املا يطمح الى تحقيقه وتبعده عن التشاؤم من واقعه ومستقبله لارتباطها بالصبر ، ولولا هذا الامل لاصبحت حياته جحيما لايطاق كما قال احد الشعراء (٢) :

يبيت يراعي النجم من جوع بطنه ويصبح يلقى ضاحكا متبسما

هذا عن مظاهر الفقر التي حاولنا ان نعطي نماذج عنها لاننا لم نستطع حصرها كلها لامتدادها الى مجالات واسعة ، فالذى سياتي سيكون وثيق الصلة بالفقر كالعمل والمدح والهجاء وماشابه ذلك لان الفقر كان بالنسبة للشعراء الشعبيين هو النواة التي تتشعب منها الاغراض .

.....

---

١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ١٥٩

٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٤١

٢- العمـــــل

ايقن الشعراء الشعبيون،وخلفهم جميع الفقراء،ان مخلصهم الوحيـــد من الفقر هو العمل الشريف والكد والكدح حتى يحصلوا علىلقمة عيششريفـة دون انيفسحوا للمهانة بابا يتدخل منه الىحياتهم" فالانسان لايكـــــون انسانا مادام تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد ، لاتنقصه فتذلـه ولاتزيد عليه فتطغيه"(١) كما قال عبدالرحمن الكواكبي .

وهذه الفكرة المرجزة والدقيقـة تبين ان الانسان يفقد انسانيته اذا ما تخلى عن العمل لانه وجد على ظهر البسيطة ليعمل حتى يعطي لحياته معنى شريفا على انلايكون هذا العمل الذى يتعاطاه عملا شنيعا يفقده كرامته وينقصه شرفه وعلى الا يتحول العمستغل كبير يستغل غيره منبني البشر . لكن شعراء العصر العباسي الاول والناس عموما فيذلك العصر لم يكونوا يعطون للعمل الاهميـة التي نعطيها اياه اليوم لانهم لم يكن يتوفر لديهم الوضوح الفكرى الكافي نظرا للظروف التاريخيـة التي كانوا يمرون بها،الا ان الملاحظـة العامة حول موقفهم من العمل انهم تنبهوا الى فائدته فراحوا يشجعون الناس على العمل ويحضونهم علىالقيام به،فمن ذلك قول احدهم:(٢)

انما الفوز والغنـــى في تقى الله والعمل

وهو يجعل العمل بمرتبة الايمان بالله فهما عنده سواسية،ففيهما معـا يكون الفوز والنجاح وفي هذا حث عظيم علىالعمل لانهميحاربون بذلـــك ظاهرة الاتكال والتواني ويؤكدون على ان الانسان يجب الا يتخاذل ابـــدا اويتراجع وعليه ان يحاول مرارا حتى ولو اخفق لان النجاح لن يكون ابدا

---

١) محمد عمارة : نظرة جديدة الىالتراث ص١٩٠ المؤسسة العربيـة للدراسات والنشر ط ٢ بيروت ١٩٧٩

٢) ابو الفداء : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٢

وليد الكسل ومثال ذلك قول اشجع السلمي (١) :

ان تكن ابطأت الحاجة عني والسراح
فعلي الجهد فيها وعلى الله النجاح

وهم بمثل هذا يحاربون الفكرة التي تروج ان الله هوالذى يمنح الرزق لمن يريد حتى وان كان هذا المرء خاملا متكاسلا متكلا بل يقولون ان الله يمنح الرزق لكن على الانسان ان يبذل الجهد ليحصل عليه . ولهذا تجدهم يركزون ان العمل ممحوب دوما بالتعب وان حلاوة ذلك الرزق المحصل عليه بعرق الجبين هي السعادة وهي النجاح الاكبر الذى يجعل الحياة تصفو ويجعل الوجود جميلا .

وفي ارتباط العمل بالتعب يقول ابو العتاهية : (٢)

ما رأيت العيش يصفو لاحد دون كد وعناء ونكد

وهذا صحيح اذ لايستطيع الفقير ان يؤمن القوت لذويه دون ان يتعب وان يعاني في الحياة ولذا كان لزاما عليه ان يلتمس الرزق اينما كان كما قال احدهم :(٣)

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار اوتموت فتعذرا
ولاترض من عيش بدون ولاتنم وكيف ينام الليل من كان معسرا

وهذا يعني ان ليس عيبا ان يموت الانسان وهو يجوب البلاد بحثا عن عمل بل بالعكس سيكون موته فيهذه الحال شرفا عظيما ، فمادام في الانسان قوة فما عليه الا ان يجدد الكرة تلو الكرة حتى يحصل علىما يريد وفي

---

١) الصولي : الاوراق : ص٩٥
٢) ابو العتاهية : الديوان ص١٠٨
٣) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٢٨٥

هذا يقول احد الاعراب :(١)

علام سوءال الناس والرزق واسع وانت صحيح لم تخنك الاصابع

وكانوا يدركون ان الظروف تلعب دورها فيا لحصول على الرزق لكن هذه الظروف لن تجدى بدون العمل والتعب فمن ذلك قول ابي تمام (٢) .

وصدقت ان الرزق يطلب اهله ولكن بسيرة متعب مكدود

ومهما كانت تلك الاعمال التي قد يحظى بها الفقير صعبة اومتعبة فانه يتقبلها مادام يجد فيها وطره ومادام ملزما باعالة اولاده فمن ذلك قول احدهم (٣) :

ومن بك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا اوينال غنيمة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

ومن الامثال التي تقولها العرب في هذا الباب (٤) :" كلب جوال خير من اسد رابض" او " من غلى دماغه صاغها غلت قدره شاتيا."
ويقول ابو نواس :(٥)

ولن يدرك الحاجات من حيث يبتغي من الناس الا المصبحون على رجل

ثم نجدهم يربطون العمل بالشرف ويرون ان التسول اعظم مصيبة من البقاء على الجوع ولهذا لن يكون الخلاص الا بالعمل لعل الانسان يرجع بعده بالسعد كما قال احدهم: (٦)

---

١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ١٦١
٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٤٩١
٣) البيهقي : المصدر السابق ص ٢٨٦
٤) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٨٥
٥) ابن عبدالبر القرطبي : المصدر السابق ق ١ ص ٣٢٦
٦) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٧٦

اعظم من فاقة وجوع	مقام حر على خضوع
فلاترده ولاترد مـــا	انيل بالذل والخشوع
واطلب معاشا بقدر قوت	وانت فيمنزل رفيـــع
لعلا دهرا غدا بنحس	يعود بالسعد في الرجوع

والملاحظ في جميع هذه الابيات التي تناولت فكرة العمل انها كانت تركـــز على امر هام وهو الحث على العمل وعدم الخضوع للكسل لانه مجلبة للفقر كما يقول ابو العتاهية :(1)

والفقر ذل عليه بـــاب مفتاحه العجز والتواني

وهم بذلك يرغبون الناس في العمل ويبدون لهم فوائده كما يبدون لهم بالمقابل سلبيات العجز والتواني • يبدون لهم ان العمل معناه الكرامة ومعناه الا يذل المرء نفسه لغيره بالتسول والاستجداء مادام يملك القوة العضلية التي يستطيع بها ان يضمن لنفسه ولذويه العيش الكريم •

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال : هل كان العمل متوفرا ؟ وبعبـــارة اخرى هل كانت فرص العمل متاحة للجميع ؟ الجواب بالنفي لان الامبراطورية نفسها لم تكن تحتاج فيتسيير امورها الا الى عدد قليل بالمقارنـــــة مع عدد السكان • لم تكن الدولـة تهتم بالرعيـة حتى تلزم نفسها بايجاد فرص العمل للجميع كما هي الحال في عصرنا فالدولـة كانت مع ذلك تملـك جميع الخيرات لكنها ترفض ان يتصرف فيها غير اتباعها • ولنقارن بيـن فرص العمل في ذلك الوقت وبينها اليوم ولنأخذ الكتاب مثالا • كان الكتاب في القديم قليل الانتشار ومن اراد كتابا يستنسخه من احد الوراقين مقابل

---

1) ابو العتاهية : الديوان ص ٣٨٥

دريهمات محدودات بينما نجد ان صناعة الكتاب اليوم فيقطر واحد او فيمدينة واحدة فقط تشغل الاف العمال • فقبل ان يصل الكتاب الى القارئ في عصرنا يتعاون على اخراجه الى الوجود الاف العمال،فلا بد في البداية من ورق وهذا الورق بدوره يحتاج العمادة خام ثم لابد من حبر وهذا الحبر بدوره يحتاج الى مادة خام ولابد من طباعة وعمال طباعة ومورزين وناشرين ومكتبات وكل هذه الامور تشغل الالاف من الايدى العاملة •

وهذا مثال واحدفقط ويمكن ان نقيس عليه جميع الصناعات الاخرى • ان سياسة الدول الان هي ان يشتغل كل القادرين على العمل ومتى ما حقق هذا الشرط تعتبر الدولة في مصاف الدول المتقدمة اجتماعيا •

ان تطور البشرية لعب دورا في هذه الحال بحيث ساعدت الاكتشافات العلمية على ايجاد فرص للعمل لاحصر لها ، امافي القديم فالامر على عكس ذلك تماما بحيث كانت العلوم متخلفة ولم تستطع ان تخلق فرصا للعمل بفضل المرتبة التي وصلت اليها زيادة على الظروف الاقتصادية والسياسية والفكرية التي كانت تمر بها الدولة فيذلك العصر •

وكان الانسان منهم اذا ولد فقيرا يبقىفقيرا مدى الحياة ومن ولد غنيا يبقى غنيا هوالاخر مدى الحياة • اما الشواذ فلايقاس عليهم ابدا • ومن هنا نرى انهم كانوا يحلمون بالغنى ويعتقدون فيه الكثير من الخرافات،لان الغنى هوالمخلص الوحيد بالنسبة اليهم من فقرهم،فحتى العمل لن يغنيهم ابدا لانه متى اصبح احدهم غنيا استغنى عن غيره وابتعد نهائيا عن ان يذل نفسه • ولم يكن هذا تطلعا بورجوازيا كما نفهمه اليوم بل كان امرا مشروعا ومصيريا بالنسبة اليهم لانه لم تكن آنذاك

طبقة وسطى يمكن ان تكون مخففة لوطأة الفقر عليهم بل هناك الاغنياء من جهة والفقراء من جهة ثانية • يملك هؤلاء كل شيء ولايملك اولئك شيئا •

اما الاعمال التيكان يمكن لاحدهم ان يقوم بها اذاكان محظوظا فهي كثيرة نوعا ما لكنها لاتكفي لانها لم تكن تشغل العديد من الناس، فقد كان يكفي ان يكون فيالمدينة نجار واحد ليلبي جميع طلبات اهل تلك المدينة • لقد استغلوا جميع الحرف الممكنة وجميع الوسائل للحصول علىالمال وعلى القوت وكان اسعدهم طبعا هو صاحب الحرفة التي كانت غالبا ماتتناقل عبر الاجيال في الاسرة الواحدة •

اما الوسائل الاخرى التي استفادوا منها والتي لم تكن حرفة بالمفهوم العام فهي ايضا كثيرة، فقد كانوا يكدون ويتسولونويسالونويستغلون كل موهبة قد تكون لديهم كالغنى والالعاب البهلوانية والسحر وماشابه ذلك. وقد تعفف بعضهم وزهد من هذه الدنيا فكسب رضى الناس وعطفهم وقد تظاهر بعضهم الاخر بالحمق والجنون • لقد كانوا مستعدين ان يتعاملوا مع الشيطان ليحصلوا على مايسكت انين الجوع لديهم •

وربما كان في بعض الاعمال التيقومونبها هدر لكرامتهم وانتقاص لعزة انفسهم ، لكن ما العمل وهم لايجدون وسيلة تضمن لهم البقاء ؟

ويمكن انتذكر هنا امثلة عن الحمق والتعفف ، فاما الحمق فأكثر من تحدث عنه واستغله وجعله بمثابة صنعة فهو ابو العجل بعد ان أيقن ان العقل لن يجديه فتيلا ، وهو فيذلك ينطلق من فلسفة له خاصة بالحياة فيقول مثلا : (١)

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤١

اكفف ملامك محسنا ... اومجملا متطولا
اعلى الحماقة لمتنني ... قد كنت مثلك اولا
فدخلت مصر وارضها ... والشام والموصلا
وقرى الجزيرة لم ادع ... فيها لحي منزلا
الا حللت فناءه ... بالعقل كي اتمولا
فانظر الي اماتسرى ... حال الحماقة اجملا؟
من ذا عليه مؤنبي ... حتى اعود فأعقلا

لقد لامه بعض الناس على وسيلته المبتكرة وعابوا عليه ان يتظاهر بالحمق فكان رده انه جرب بالعقل فلم يحصل على مال فيما رجاء الامبراطورية فلم يفز بشيء فدفعته الحاجة الى ابتكار هذه الوسيلة فساعفه الحظ فأصبح في حال اجمل، ولنستمع اليه يقل مرة اخرى لعاذليه : (١)

عذلوني على الحماقة جهلا ... وهي من عقلهم الذ واحلى
لو لقوا ما لقيت من حرفة العقل لسارعوا الى الحماقة رسلا
اذعن الناس لي جميعا وقالوا يا ابا العجل مرحبين وسهلا
فبها - لاعدمتها - صرت فيهم ... سيدا اتقى ورأسا ورجلا

ان كل انسان يتخذ موقفا من الحياة وهذا هوموقف ابي العجل الذى يضحك من الذين لاموه على التحامق لانهم لم يعرفوا الحرمان الذى كان منه بسبب العقل . لقد كان الفقير مغضوبا عليه فيجميع العصور . كان مظلوما وفوق الظلم كانت حقوقه تهدر دوما فقد قيل ان الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا واساء به الظن من كان يظن به حسنا ، وان اذنب غيره ظنوه به ، وان كان لسوء الظن والتهمة موضعا حملوا على

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤١

ذلك الذي يفعله غيره ." (١) فقد كان الفضيل يقول :" المال يسيد غير السيد ويقوى غير الايد" . (٢) وكذلك لان المال كان المحامي بالنسبة للغني بينما كان الفقر ادانة للفقير .

ويبدو ان ابا العجل ادرك ان عصره ليس عصر عقل وعلم بل عصر مال وغنى ، فهو يقارن بين حاله زمن العقل وبينها زمن الحمق فيرى انه كان من قبل فقيرا يشتغل كثيرا دون فائدة وكان انسانا تافها لا احد يحسب حسابه فاصبح بفضل حمقه سيدا يتقى ، وكان فقير الحال معدما فأصبح يملك البغال والغلمان لانه استطاع ان يلصق بنفسه تهمة الحمق ، وهي تهمة تعفي صاحبها من اية تبعة من الافعال التي قد تصدر عنه قياسا على المثل " ليس على المجنون حرج" ، وفوق هذا الحاجز الواقي فانها مكنته من ان يصبح غنيا وذلك في قوله : (٣)

ايا عاذلي في الحمق دعني من العذل	فاني رخي البال من كثرة الشغل
واصبحت لا ادرى واني لشاهد	افي سفر اصبحت ام انا في الاهل
فمرني بما احببت آتِ خلافه	فان جئتني بالجد جئتك بالهزل
وان قلت لي : لم كان ذاك ؟ فجوابه	لاني قد استكثرت من قلة العقل
فأصبحت في الحمقى اميرا مؤمرا	وما احد في الناس يمكنه عزلي
وصير لي حمقي بغالا وغلمة	وكنت زمان العقل ممتطيا رجلي

---

١) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص ٢٧٦

٢) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٧٦

٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤٠ - ٣٤١

وهناك من يناقضه وان كان فيالحقيقة وجها اخر للظاهرة نفسها ، فهذا ابو العتاهية يرى ان فيالتعفف كل شيء حين يقول : (١)

طلبت الغنى فيكل وجه فلم اجد سبيل الغنى الاسبيل التعفف

وبعد فهذه نماذج لاغير وليست هي كل ماقيل بل هناك كثير من الامور تطرقوا اليها ويمكن ان ندرجها تحت خانة العمل .

.....

١) ابو العتاهية : الديوان ص ٢٤٠

٣ - المدح والهجـــاء

المدح والهجاء متقابلان ومتناقضان ، يكمن اتحادهما في تناقضهما • هما متقابلان لانك اذا مدحت شيئا ما فأنت تهجو بالضرورة ماينـاقضـــه واذا هجوت امرا ما فانت ايضا تمدح عكسه • وهما متناقضان لان احدهمـا سلبي وثانيهما ايجابي • وهذه السلبية او الايجابيـة ليست فيهمـــا بحدّ ذاتهما كغرضين من اغراض الشعر العربي بل في ما يتناولانه مـــن موضوعات ، فالكرم مثلا ليس ابدا من جنس البخل وانما هو ضده اونقيضه واما اتحادهما فيكمن في الفائدة التي يقدمها كل منهما اذ كلاهما ذوقيمـة تعليمية تربوية بحيث تكون المدحة بمثابة وصف للاخلاق والصفات المحبذة في مجتمع معين ويكون الهجاء وصفا للنواقص الموجودة في هذا المجتمـــع والتي يجب ان يتحرر منها الافراد • فالمادح مثلا يشجع على الكرم والشجاعة والمروءة وما شابهها ويرفع قيمتها في نظر الناس بينما نجد الهاجي يحط من قيمة بعض الظواهر السلبيـة كالبخل والجبن •

وهكذا نلمس التقابل الموجود بينهما بحيث يؤدي كلاهما الـــى النتيجة نفسها وهي تنقية المجتمع من الشوائب وجعله مجتمعا يتحلـــى بصفات حميدة حسنة وغرسها في عقول الناس وفي نفوسهم حتى تصبح عـــادة عندهم •

لكن هذا لايعني ان مفعولهما يتوقف عند هذا الحد ، كلا، فالمدحـــة مثلا تتخذ سبيلا للمطالبة ببعض الحقوق والشكوى من الاوضاع العامـــة • فقد كانت المدحة احيانا" تحمل مطالب الشعب •" (١) لان الشعر كـــان

---

١) شوقي ضيف : الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص٣٣

في ذلك الوقت هو وسيلتهم الاعلامية المفضلة يستغلها كل طرف للترويج لافكاره . وقد استغلها الشعب للمطالبة بتحسين اوضاعه المادية فمن ذلك مدحة ابي العتاهية التي رفعها الى الرشيد والتي جاء فيها : (١)

من مبلغ عني الامـــا م نصائحا متواليـــه
اني ارى الاسعـــــا ر اسعار الرعية غاليه
وارى المكاسب نـــزرة وارى الضرورة فاشـــيه
وارى غمـوم الدهر را ئحة تمـــر وغاديـــه
وارى اليتامى والارا مل في البيوت الخاليه
من بين راج لم يـــزل يسمو اليك وراجيـــه
يشكون مجهـدة بأصوات ضعاف عاليـــــــــه
يرجون رفدك كي يـــروا مما لقـوه العافيـــه
من يرتجى للنـــاس غيرك؟للعيـون الباكيـــــه ؟
من مصبيـات جـــوع تمسي وتصبح طاويـــه
من يرتجى لدفـاع كـــر ب ملحة هي ماهيـــه؟
من للبطون الجائعـــا ت وللجسوم العاريـــه
يابن الخلائـق لاقفـــد ت ولاعدمت العافيـه
ان الاصول الطيبـــا ت لها فروع زاكيـــه
القيت اخبـــارا اليـك من الرعيـــة شافيـــــه .

ان ابا العتاهية قد قدم لنا في هذه المدحة صورة رائعة عـــن الاوضاع الاقتصادية في عصره وبكل وضوح . انها صورة متنوعة فمنهـــا ان الاسعار اصبحت غالية لاقدرة للرعية عليها تجاوزها اضافة الى ان فرص

---

١) ابو العتاهية : الديوان ص٤٨٧

العمل والكسب كانت محدودة هذا مع تزايد الطلب . ولعل هذه الاوضاع تكون اكثر وطأة على اليتامى والارامل الذين بحثت اصواتهم من المطالبة بحقهم في العيش . انها صورة كالحة لذلك العصر وهي ادانة له ايضا .

وزيادة على هذا كانت المدحة وسيلة اعلام في ذلك العصر تسجل احداثه وكل ما يجرى فيه من حروب وفتوحات وغزوات وثورات وفي هذا يقول شوقي ضيف : " لم يكن الشعب يفرح بشيء فرحته بانتصار الدولة وقوادها والخلفاء وغير الخلفاء على اعدائها من الترك في اواسط آسيا والروم في اسيا الصغرى ، وكان ما يزال ينتظر البشارات بالنصر ، وظلت المدائح حينئذ محل وسائل الاعلام الحديثة " (١)

ونعطي الان بعض الامثلة على الموضوعات التي تناولوها في المدح اولا ثم في الهجاء ثانيا ، فقد ركزوا بصفة خاصة على الكرم والكرماء نظرا لظروف المعيشة الصعبة التي كانوا يعانون منها . وانه لامر طبيعي ان يمدحوا الكرم بحيث يكون مدحهم شكرا لاولائك الكرماء الذين استطاعوا ان يقدموا لهم بعض المال او بعض الطعام لان الشعراء لم يستطيعوا ابدا ان ينسلخوا عن واقعهم وان ينسوا المجاعة التي تهددهم بالهلاك . ولذا اصبح للكرم في نظرهم معنى سام . وهم في مدحهم اياه انما كانوا يذمون الفقر ويصفونه بطريق غير مباشرة وهم كذلك يشيرون الى الحالة الاقتصادية لان العوز هو الذي دفعهم الى المدح ، فهذا مثلا مروان بن ابي حفصة يمدح الفضل بن يحيى بقوله : (٢)

---

١) شوقي ضيف : الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ص ٦٤

٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٨٣

الم تر ان الجود من لدن ادم تحدر حتى صار في راحة الفضل
اذا ما ابو العباس راقت سماوه فيالك من هطل ويالك من ويل
اذا ام طفل راعها جوع طفلها دعته باسم الفضل فاستعصم الطفل (x)

فالشطر الاول من البيت الاخير يدل دلالة واضحة على ان الشاعر ربط بين كرم الفضل بن يحيى وبين الفقر والجوع . ويقول كذلك كلثوم بن عمرو العتابي : (١)

ان الكريم ليخفي منك عسرته حتى تراه غنيا وهو مجهود
وللبخيل على اموالة علل زرق العيون عليها اوجه سود
اذا تكرمت على بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال لايمنعك قلته فكل ماسد فقرا فهو محمود

فالشطر الاخير واضح تماما فهو يذكر الفقر صراحة ويرى ان كل مايعالج فقرا فهو محمود والحمد هوالمدح . وحسبنا هذه النماذج من المديح لان غيرها لايخرج على ماذكرنا آنفا .

اما الهجاء فابرز مافيه فيهذا العصرهو الوصف الكاريكاتورى الذى تجده لدى كل الهجائين حتى يمعنوا فيالسخرية وحتى يشوهوا صورة المهجو امام الناس . وبهذه الطريقة يؤدون واجبهم الذى هو تلقيح المجتمع ضد تلك العيوب والنواقص لان كلمن يسمع تلك القصائد والمقطوعات الهجائية يجد نفسه مدفوعا التجنب ماذكر فيها من صفات قبيحة وسيئة حتى لايقع هو الاخر في السن الشعراء فيصبح اضحوكة بين الناس . وفي هذا يقول

+) فيالبيت الاخير اقواء

٢) القالي : امالي القالي ج ٢ ص١٣٧ طبعة مصورة عن بولاق ١٣٢٤ هـ

شوقي ضيف :" لم يكن الهجاء اقل تمثيلا لحياة الشعب من المديح اذ هو في حقيقته تصوير لمثالب المجتمع وما بأفراده من خصال ذميمة وما بحكامه وحكمهم من انحراف عن الجادة .... وان يعدلوا بهم الى النهج القويم في السلوك والسياسة والحكم ..." (١)

وفيما يلي نذكر بعض نماذج الهجاء لنرى الوصف الكاريكاتوري فيها فهذا درست المعلم يهجو رجلا لجوجا بقوله : (٢)

لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطا وقليل الصواب
الج لجاجا من الخنفساء ... وازهى اذا ماشى من غراب

فتخيل انسانا جمع بين لجاج الخنفساء وزهو الغراب ، اليس ذلك امرا مضحكا ؟ ويقول درست مرة اخرى فيجيران له : (٣)

لي جيران ثقال كلهم ... وخفيف فيهم مثل الرصاص
قلت لما قيل لي قد غضبوا ... غضب الخيل على اللجم الدلاص(x)

فهذا الهجاء الذى اراد به صاحبه السخرية من جيرانه لجأفيه الى المفارقات المعنوية واللفظية فقد جعل اخف جيرانه مثل الرصاص .

واما منصور الاصبهاني فيقول فيعلي بن المهلب : (٤)

عجبت لجسمك ما اصغره ... ومما تلقم ما اكبره
اراك تظفل طول الحياة ... ويأمن خبزك ان تكسره

---

١) شوقي ضيف:الشعر وطوابعه الشعبية ص٦٧
٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص٦٧
٣) ابن المعتز : المصدر نفسه ص٣٣٥
x) الدلاص : الملساء اللينة البراقة (المصدر نفسه)
٤) ابن المعتز : المصدر نفسه ص٣٥٢

وتلفي لعودك مستبطنا تدير على زيره الحنجره
فليتك وريتني بعضه وكثر ربي بك المقبره
اذا ما بدا لك فوق حماره فقنبرة فوقها قنبره
تحرم في بيتك المشروبات وفي بيت غيرك ما اكثره
فطورا تجرجرها نخبة وطورا تجرجرها تذكره

انها حقا صورة ملونة لهذا الرجل ، متعددة التناقضات السلبية التي استغلها الشاعر في فضحه ؟ فقد كان هذا المهلب يتطفل باستمرار على خبز غيره وبيته خبزه لبخله ،وهوكذلك يحرم الشراب في بيته لانه يبا بل منعا وشحا لانه يتناوله بكثرة في بيت غيره • ويقول منصور هذا في رجل اخر اسمه المغيرة : (١)

وجه المغيرة كله انف موف عليه كأنه سقف
رجل كوجه البغل طلعته ما ينقضي من قبحه الوصف
من حيث ما تأتيه تبصره من اجلذاك امامه خلف
حصن له من كل نائبة وعلى تنبيه بعده وقف
جفت المدائح عن ظلائقه ولقد يليق بوجهه القذف

هذه صورة اخرى رائعة تمثل الكمال فيالقبح ، يمكن ان يستغلها رسامو الكاريكاتور ، فالمغيرة هذا كبير الانف بحيث اختفت معالم وجهه وراء انفه وهذا ما جعل لوجهه طلعة بغل،وفوق هذا المنظر فان جسمه مشوه بحيث لايستطيع الناظر اليه ان يفرق بين امامه وخلفه •

ويقول كذلك فيعقبة بن مالك : (٢)

---

١) ابن المعتز : المصدر السابق ص ٣٤٨ - ٣٤٩
٢) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٥٣

ياخطبة ضيعها مالـــك	اضيع منها المنبر الهالك
يا آل بكر قبلوا قاسما	صار علىشرطته مالـــــك
عمادة المنبر في كفـــه	..... اسود حالـك

وهذا ليسهجاء فحسب بل هو رأى خاص فيتولية هذا الرجلالشرطة قاســـــم ، فهذا الرجل لايصلح في نظر الشاعر لا للخطبـة فيالمساجد ولا للشرطـة . ويقول مرة اخرى مستعملا الاسلوب السابقنفسه : (١)

له وجه خنزير وخيشوم بغلـة	وصدرة ملاح وتقطيع حائـك
شكا فسوه جن البلاد وانسها	وقد خفت ان يوٴذى خيار الملائك
فلوكان فيأهل الجحيم لولولوا	الوريهم من فسوه المتـدارك
وقالوا : العذاب الضعف اهون عندنا	وكلهم مستصرخ نحومالـــــك

وكما هوظاهر فان الشاعر يلجأ في تشبيهاته الىالحيوان فيأخذ منـــــه المناظر القبيحة ويلصقها بالمهجو حتىيكون وقعها اكثر عنفا . وســـوف نرى هذه الاستعارة ايضا لاخيه الذىكان خطيب البلد بقوله : (٢)

اقول غداة العيد والناس شهد	ومنبرنا العالي البناء رفيع
لعمرى لئن اضحى رفيعا فانـــه	بمن يرتقي اعواده لوضيـــع
اقول اذا ماقام ينهق فوقـــه	اتبلغ هذا المرتقى واضيـع ؟
ومن عجب الدنيـا صعودك منبرا	وحولك الف سامع ومطيـــع
وماكنت اخشى مثلها اليوم نكبة	اذل لها والمسلمون جميع

وواضحان الشاعر لاينسى وضعه الاجتماعي فيهجائه هذا ، فهذا الوضـــع هو دافعه الاول علىالهجاء لاننا نلاحظ انه يهجو اتباع الدولة فقط ، ولا

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٥٣

٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩ — ٣٥٠

يعير للاخوة وزنا ، وليس هذا جحدا منه للقرابة ولكنه يعبر بصدق عما يحس ويعاني من هذا المجتمع ، فهذا اخوه هو الخطيب ولكن صفة الاخوة تنتفي وتبقى المصالح المتضاربة .

ولنر الان شاعرا شعبيا اخر ، وهو ابو الشمقمق ، في معاملته مع الهجاء ، فهو يقول في احدهم: (١)

الطريق الطريق جاءكم الاحمق رأس الانتان والقذره
وابن عم الحمار فيصورة الفيل وخال الجاموس والبقرة
يمشي رويدا يريد جلقتكم كمشي خنزيرة الى عذرة

فهو كصاحبه يشوه صورة المهجو حتى تغدو رسما كاريكاتوريا مستعينا كذلك بالتشبيه بالحيوان ليجسد في بعض ملامحه عيوب المهجو . وها هو يقول فيشخص آخر : (٢)

اسمج الناس جميعا كلهم كذباب ساقط في مرقه

والسبب في لجوئهم الى الحيوانات المختلفة هو انهم يصدرون عن واقعهم في جميع اشعارهم ، فهم يأخذون مما حولهم لانهم يعيشون ذلك الواقع الذي يتحرك ويمشي ويتجسد فيجميع مشاكله ومخلوقاته ، فيلتقطون هذه اللمحات والصور ليصوغوها شعرا طريفا . والحقيقة ان الشاعر مهما كان عصره ، لن يستطيع ابدا ان يفلت من واقعه حتى لو رغب في ذلك لان الصور والاشياء والافكار التي يذكرها في شعره سوف تكون حتما موجودة كلها في الحياة . وهذه الامور قد تبدو لغير الشاعر وكأنها تحيا

---

١) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٣٩
٢) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٣٨٥

على هامش الحياة بينما يجعلها الشاعر تنبض بالحياة ، وبعبارة اخرى يبث فيها الروح والحياة ، فهذا عبد الصمد بن المعذل يقول في احد اصحابه ، واسمه ابو قلابه : (١)

يارب ان كان ابو قلابه　　يشتم فيخلوته الصحابه
فابعث اليه عقربا دبابهْ　　تلسعه في طرف السبابه

وربما لعبت القافية دورا هنا في استعمال الشاعر للعقرب ، لكنه استطاع ان يجعل الصورة عادية مألوفة بلسعه في طرف السبابة ، وهي امور تحدث باستمرار ، فقد اوجد الشاعر صلة بين اسم المهجو وبين العقرب . ولنر له صورة اخرى يهجو فيها سعيد بن سلم والي البريد : (٢)

دهتك بعلة الحمام فوز　　وهال بها الرسول والوسعيد
ارى اخبار دارك عنك تخفى　　فكيف وليت اخبار البريد ؟

والمفارقة واضحة جدا في هذه الصورة فسعيد بن سلم الذي ولي البريد يجهل اخبار داره واخبار جواريه وفي هذا تناقض كبير لان البريد في ذلك الوقت معناه الشرطة السرية التي تنقل الى الخليفة جميع اخبار العمال والولاة والرعية في الاقاليم التابعة للدولة ، فان انسانا تخفى عنه اخبار بيته لايصلح ابدا ان يتولى اخبار الدولة .

اما دعبل الخزاعي الذي رأينا هجاءه السياسي منقبل فلا يخرج على هذا القبيل حين يقول في احمد بن خالد حين ولي الوزارة : (٣)

---

١) زهير غازي زاهد: شعر عبدالصمد بن المعذل ص٢٧ مط النعمان النجف العراق ١٩٧٠ م

٢) المرجع نفسه ص ٨٥

٣) دعبل : الديوان ص٩٦ جمع عبدالكريم الاشتر ، مط المجمع العلمي العربي بدمشق .

كأن ابا خالد مـرآة　　اذا بات متخما قاعـدا
يضيق باولاده بطنـه　　.....واحدا واحدا
فقد ملأ الارض من سلحه　　خنافس لاتشبه الوالـدا

فقد اتبع الاسلوب نفسه فيتشويه صورة المهجو واظهاره بمظهر مضحـك. وليس وصفه هذا الرجل بانه مرآة بامر غريب اذ إن المرآة فيذلك العصر كان كثير من الناس ينظرون اليها على انها مواطن من الدرجة الثانيـة وربما كان للظروف الاقتصادية دور كبير في ذلك فالمرآة عنصر مستهلـك ولم تكن تنتج شيئا .

واما عبدالله بن محمد بن ابي عيينة فيتطرق الى ظاهرة الطمـع في المجتمع ويهجو رجلا تزوج امرآة لمالها بقوله : (١)

رأيت اثاثها فطمعت فيه　　وكم نصبت لغيرك بالاثـاث
فصير امرها يبدى ابيها　　وسرح من حبالك بالثـلاث
والا فالسلام عليك منـي　　سابدأ من غدلك بالمراثـي

ويبدو ان هذه المرآة كان كلمن يتزوجها يلقى نحبه . والشاعر في هـذه الابيات يحارب ظاهرة الطمع التيتتخذ اشكالا عديدة والتي هي من نواقـص المجتمع ، ولكنه فيالوقت نفسه يتطرق الىبعض المعتقدات الشعبية والتـي يؤمن بها هو كالنحس والعين وما شابه ذلك وهي فيالحقيقـة مصادفـات غريبـة قد تحدث لبعض الناس فيتشاءم منهم غيرهم . والملاحظ ان هذه الظواهر مازالت منتشرة في الاوساط الشعبية حتى فيعصرنا هذا وسببها الجهل .

---

١) ابن قتيبـة : الشعروالشعراء ص٥٥٩ ، مط ليدن ط اولى ١٩٠٢ م

ويواصل ابن ابي عيينة مهمته الاصلاحية في المجتمع فيشير الى ظاهرة اخرى هي التطفل الذى هو نتيجة من نتائج سوء الاحوال المعيشية في ذلك العصر اى ان الفقر قد دفع ببعض الناس الى هذه الوسيلة للحصول على الطعام، ويقول في احد المتطفلين : (١)

كم اكلة لوقد دعيت بها الى الكفر كفرتا
ودعاك عامل عسقلا ن الى وليمته فطرتا
فأتممت سبتا عنده واقمت بعد السبت سبتا
ثم انصرفت ببطنة وسرقت ابريقا وطستا
انت امرؤ لومت ثم وجدت الخبز عشتا

ويعود هو الاخر الى اوصاف الحيوان يستنجد بها في هجاء الناس فيصف رجلا اسمه خالد بقوله : (٢)

خالد لولا ابوه كانوا الكلب سواء
لوكما ينقص يزد اذا نال السماء

لقد اعتمد الشاعر على هذه المفارقة والمقابلة الجميلتين ليجعل معناه انفذ الى السامع او القارئ لان تدني خالد هذا كان كبيرا فلوكان الامر عكس ذلك وصار خالد يزداد لنال السماء على تلك الوتيرة .

ان الاسلوب الشعبي واضح في هذه المقطوعات فهو يتميز بتلك العبارات العادية والخاصة بالشعب والتي لايمكن ان نجدها عند من يسمون بالخاصة . لايمكن حصر هذه العبارات اوتعدادها فهي كثيرة متنوعة حسب نوع بيئات الشعراء فمن ذلك قصيدة جمياة لجحظة البرمكي يتهكم فيها على شخص ما وهي خير دليل على ما قلنا على الرغم من ان جحظة البرمكي متاخر قليلا عن

---

١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٥٥٨ - ٥٥٩
٢) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ٥٢٧

عصرنا لكنه ليس منفصلا عنه بل هو امتداد له ، فهو يقول : (١)

يالفظة النعي بموت الخليل	ياوقفة التوديع بين الحمول
ياشربة البارح ، يا اجرة المنزل	، ياوجه العـــــــذول
ياطلعة النعش ، يامنـــزلا	اقفر من بعد الانيـس الحلول
يانهضة المحبوب عن غفـــة	يانعمة قد آذنت بالرحيـــل
ويا كتابا جاء من مخلـــف	للوعد مملوءا بعذر طويـــل
يابكرة الثكلى الى حفـــرة	مستودع فيها عزيز الثكـول
ياوثبة الحافظ مستعجـــلا	لصرخة القيان عند الاصـيل
ويلا طبيبا قد اتى باكـــرا	على اخي سقم بماء الهقـــول
ياشوكة فيقدم رخصـــــة	ليس الى اخراجها من سبيـــل
ياعثرة المجذوم فيرجله	ويا صعود السعر عند المعيل
ياردة الحاجب عن قـــوة	ونكسة من بعد برء العليـــل

ان كل ماجاء فيهذه القصيدة ينطبق على العصر العباسي الاول ويمكن ان نستخلص منها امورا كثيرة جاءت عرضا لوصف هذا الرجل لكنها في الحقيقة من صميم هموم ذلك العصر ، منها اجرة البيت التي ذكرها الشاعر والتي تعني ان بعض القوم كانوا يملكون بيوتا يؤجرونها ويتابعون اهلها الفقراء مطالبين بتسديد هذه الاجرة كما هي الحال في عصرنا هذا بالضبط ومنها دور القيان والمواخير التي انتشرت خاصة في الحواضر الكبيرة كبغداد والبصرة ومنها تلك الاشارة الى الاطباء ولعل هذا من حسنات ذلك العصر حيث وجد بعض الاطباء يذهبون الى المرضى حيثما كانوا زيادة على ان الاشارة تذكر اهمية النبات الذي كان اهم

---

١) الحصرى القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر ص٢٢٤

الادوية في ذلك العصر ، فقد تعمق العرب في تلك الصناعة حتى وصلوا الى درجة كبيرة من التقدم ومنها وجود بعض الامراض الخبيثة كالجذام وغيره وكذلك ارتفاع الاسعار من حين الى اخر الخ ...

وفيما يلي نلاحظ الامور التالية على مقطوعات الهجاء وقصائده السابقة التي ذكرناها ، وهي:

١ - تطور الهجاء : لقد تطور الهجاء في العصر العباسي الاول تطورا ملحوظا فيمضمونه وشكله ، ففي مضمونه لم يعد يهتم بتلك القضايا التي اهتم بها في العصر الجاهلي مثلا كالهجاء باحتقار النسب وجعل القبيلة كلها مرمى للصفات السيئة ولم يعد مثل العصر الاسلامي هجاء مبنيا على اسس دينية ولم يعد فقط هجاء سياسيا كما كان في العصر الاموي بل زيادة على هذه الامور كلها نجد اشياء جديدة يمكن ان نجمعها كلها بتسمية الهجاء الاجتماعي لان التركيبة الاجتماعية التي ولدت انماط الهجاء السابقة قد تفتتت في العصر العباسي الاول او بدأت تتفتت . وهكذا اختفى تدريجيا دور القبيلة وتأثيرها على الفرد وكذلك بسبب تلك الشعوب الوافدة على الاسلام والتي أصبحت جزءا لايتجزأ من المجتمع العربي . رفع هذا التفتت من قيمة الفرد على حساب القبيلة وعلى حساب الجماعة الضيقة التي عرفت من قبل بهذا الشكل وما شابهه فأصبح الفرد جزءا من مجتمع عريض يصعب على الفرد ان يتحسس خصوصياته كلها بسبب هذا العرض ولكنه في الوقت نفسه تغيرت اهتماماته فأصبح يهتم ان قليلا وان كثيرا بما يجرى في هذا المجتمع الكبير الذى خلقته الظروف الجديدة . وما الهجاء الاجتماعي هذا الا ضرب من ذلك الاهتمام وهو نقد اوتقويم او وجهة نظر في تطورات هذا المجتمع الكبير . لقد اختلطت الاجناس والعقليات والعادات بسبب تنوع عناصر ذلك العصر وطبيعي ان

لايوافق هذا الاختلاط بعض النفوس بل انهم كانوا يرون فيبعض جوانبه نقصا فاحشا اوتدنيا للاخلاق والعادات الحميدة فراحوا يتصدون لها •

وهذا لايعني ابدا ان انواع الهجاء الاخرى اندثرت في العصر العباسي الاول بل تراجعت قليلا فقط واصبحت تحتل مرتبة ثانوية بعد ان كانت تحتل الصدارة في يوم من الايام • لقد اوجد المجتمع الجديد اخلاقا جديدة وامورا لم تكن ذات اهمية من قبل اولم تكن موجودة اصلا، وبدهيا ان يتأثر الشعراء بالوضع الجديد وان ينعكس ذلك في اشعارهم بالموافقة والتشجيع حينا وبالرفض والنقد حينا آخر ومن هنا اختلاف الهجاء في العصر العباسي عن العصور السابقة •

ب ـ التصوير الكاريكاتوري : من مميزات هذا الجديد ذلك الوصف الكاريكاتوري الساخر الذي هووسيلة يقصد بها الايذاء والايلام اللذان يوصلان الى النتيجة المتوخاة وهي التلقيح الاجتماعي ضد تلك الامراض التي ظهرت فيه بسبب التطور الحضاري الكبير الذي عرفه ذلك العصر ومن خصائص هذا الاسلوب انه يبعث في الصورة حركة تجعل القصيدة اوالمقطوعة تنبض بالحياة حتى يجلب اليه اهتمام السامعين •

ج ـ المبالغة : وهي امر مقبول في الشعر عموما ، لكن شعراء الهجاء في العصر العباسي استفادوا منها كثيرا وطوروها لتخدم اغراضهم المنشودة واضافوا اليها الغلو حتى يكون لشعرهم وقع انفذ في النفوس لتتم الفائدة بأقصى حد ممكن ولعل ذوق عصرهم كان يشجع على ذلك •

د ـ المفارقات : وهي جزء آخر من عملية الايصال تلك حيث يتم بواسطتها جلب انتباه السامع وجعله يضحك من تلك العيوب فيسمجها ويزدريها ثم يحاربها ويتجنبها في النهاية • والمفارقات من صميم

الهجاء في العصر العباسي اذ اعتمد عليها كثير من الشعراء في طرحهم لمشاكل عصرهم .

هـ - استعمال العبارات النابية : لقد كان هذا الاستعمال امرا مألوفا لدى شعراء ذلك العصر فهم لم يكونوا يتحرجون من ذكر بعض الامور التي نخجل نحن من ذكرها الان وفائدتها عندهم انها تفيد احيانا في توضيح الفكرة التي يريد الشاعر تطبيقها على مجتمعه . وربما كانت لها اسباب اخرى ذات علاقة بعلم النفس ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بالشعراء الشعبيين وحدهم بل لقد وجدت لدى جميع الفئات في ذلك العصر حتى تلك الفئات الوقورة كرجال الدين والكتاب والاعيان وغيرهم وربما كانت تدل على بعض التحرر في مثل هذه الامور التي قد سبقونا فيها احيانا أشواطا كبيرة .

و - شعبية الهجاء : اى انه كان يهتم اولا بالشعب والجماعة ويحاول ان يقوم سلوكه مستعينا في ذلك بالزاد الحضاري لذلك الشعب ومستغلا له احسن استغلال وذلك بذكر بعض التقاليد والعادات وبعض الاعتقادات الشائعة لدى الشعب كما في قصيدة جحظة انفة الذكر .

وكما لاحظنا من قبل في غرض المدح أن الكرم نال الحظ الاوفر فان البخل في غرض الهجاء استحوذ على حصة اكبر وذلك لان الشعراء الشعبيين كانوا يركزون على ذم البخل انطلاقا من واقعهم ومن حياتهم التي كانت على الدوام صراعا ضاريا ضد مختلف العوامل والظروف التي جعلت منهم طبقة " دنيا " . ان للبخل علاقة بعيشهم وبحياتهم اليومية لانهم كانوا فقراء وكانوا في حاجة ماسة ودائمة الى الطعام ، والبخل مقرون بالطعام بالدرجة الاولى .

البخل ظاهرة شنيعة يحتقرها العربي بطبعه لان مجتمعه عودة على الكرم ذلك الكرم الذي جاء هو الاخر نتيجة ظروف معينة فرضتها قساوة

الطبيعة حتى بدا وكأن بين العرب اجمعين اتفاقا على طول الجزيرة وعرضها ان يكرم المسافر في الصحراء اياكان، البيت الذى طرقه وبغض النظر عن كون صاحب ذلك البيت غنيا ام فقيرا ، عدوا ام صديقا، لان الجود بالموجود كما يقال ، ولنا في قصة الخطيئة مثل رائع على ذلك لان الكرم اصبح واجبا على العربي حتى ولو كان الطارق عدوا ، فهم يعرفون حق المعرفة ان كل واحد منهم قد يضطر ذات يوم الى السفر وسيحتاج الى الزاد والى الماء اثناء الطريق . وهكذا انغرزت تلك العادة في نفسية العرب حتى اصبحت طبيعة ثانية فيهم ، ومنها جاء احتقارهم للبخل الذي هو نقيضها . ولذلك نجد الشعراء الشعبيين كثيرا ما يتناولون هذا الموضوع اى البخل ، فيبينون مفاسده وسلبياته ، وهم بهذا يسهمون في تربية الجماهير على حب الاخلاق الحميدة وعلى تشجيع العادات الايجابية وعلى نبذ كل ما هو فاسد ومخالف للعرف .

وكان على هؤلاء الشعراء المعلمين ان يكونوا هم اولا نماذج تقتدى بها الجماهير ، اى كان عليهم ان يكونوا صادقين فيما ينادون به ، لانهم مطالبون اكثر من غيرهم بان يكون كرماء حتى تنفذ كلمتهم الى الجماهير الواسعة وتؤثر فيها التأثير المرغوب ، وبعبارة اخرى كانوا مطالبين بالا يكونوا بخلاء ، كما قال ابن ابي فنن:(١)

وان احق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل

وهذا البيت بيان هام في هذه القضية لانه يؤكد على التطابق بين النظرية والتطبيق ويؤكد على الصدق في المبادئ لدى الشعراء الشعبيين الذين هم طليعة المجتمع ومعلموه بوصفهم نماذج تقتدى بها الجماهير لما لهم

---

١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس : ق ١ ص ٦٢٩

من سمعة طيبة لديها وتأثير واسع عليها .

وتجدر الاشارة هنا الى علاقة الفرس بالبخل فقد الف فيهم الجاحظ ما الف ، فما حقيقة ذلك ؟ قد يتبادر الى الذهن ان الجاحظ قد زيد عليهم من اجل التندر ، وانه ربما كان يفعل ضمن حملة الشعوبية التي عرفها ذلك العصر بحيث راح الفرس يبحثون عن عيوب العرب ويخرجونها للناس فتصدى لهم بعض القوم بالاسلوب نفسه اي باظهار عيوب الفرس والبخل واحد منها . كل هذا جائز لكنه ليس بالتفسير الوحيد لتلك الظاهرة ، اذ يبدو لنا ان الفقر كان وراء البخل ايضا لان البخل من نتائج الفقر السلبية . الفقر اذا ولد الكرم والبخل معا . ولسنا هنا ندافع عن اهل المنع والجمع بل يبدوان البخل كان الوجه الثاني للقضية فالانسان الذي عانى الحرمان سنين طويلة وواتاه الحظ يوما قد يخشى ان تسرده الايام مرة اخرى الى حالته الاولى فيلجأ حينئذ الى التوفير وبعبارة ذلك العصر الى البخل . ونحن نظن ان البخل لم يكن عند الفرس وحدهم بل تعداهم الى العرب على الرغم من ان اخلاق العرب لفتحهم ضد هذا المرض منذ العصر الجاهلي وربما ابعد منه ، لان الظروف المحيطة تغيرت فلم يعودوا وحدهم بل اندمجوا بغيرهم من الامم ولان الحاجة ازدادت والمكاسب قلت .

ومع ذلك فقد كان البخل عند شعرائنا مذموما بكل مواصفاته لكنهم ركزوا على شيئين اثنين هما البخل بالطعام والبخل بالمال ، وهما مرتبطان اشد الارتباط فبالمال يستطيع الانسان ان يحصل على الطعام ، ولهذا فمن بخل بالمال فكأنه بخل بالطعام . والبخل بالطعام يعد اشنع انواع البخل . وهذا لايعني ابدا ان الشعراء الشعبيين كانوا يهتمون ببطونهم اكثر من اللازم بل ان الاوضاع الاقتصادية كانت تدفعهم دفعا

الي ذلك فهم لايحصلون علىمايرغبون بسهولة لانطرق الحصول على المال معدودة ولايستطيع ان يمارسها جميع الناس ولم يكن لهم الا الزراعة البسيطة اوتربية المواشي من غنم وجمال وماشابه ذلك • لقد كانت الثروة الوطنية الكبيرة فيايدى اقلية صغيرة هم الحكام عموما واتباعهم ، وحين لم يجد الفقراء شيئا من طموحاتهم راحوايطالبون بالاشياء الضرورية العادية وهي توفير الغذاء اليومي لهم ولذويهم، ووضع كهذا زاد الطين بلة اذ جعل ظاهرة البخل تنتشر لدى كثير فمن يملكون الاموال وبعبارة اخرى يملكون الطعام ، الامر الذي جعل شاعرا كأبي العتاهية يتشاءم الىدرجة ان يقول : (١)

اطرح بطرفك حيث شئت فلن ترى الا بخيلا

وفيهذا الشعر مبالغة واضحة لكنها لابد ان تكون مستندة الىواقع ما • ان الحرص علىالمال اوالطعام ناتج كماقلنا عن تلك الظروف الصعبة التيكان يحياها الناس فيذلك العصر لان الدولة لم تكن تهتم بمايحتاجون اليه بل كان ممثلوها يحصرون الثروات والخيرات فيهم فقط وينتفعون بها دون سواهم •

اما البخل بالطعام فقد شنعوا به كثيراً والحوا على اظهاره بمظهر العيب البشع الذي لايغتفر فقد قال الحسن بن هانيء (ابو نواس) : (٢)

---

١) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٥٩٥

٢) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ٦٣٣ - ٦٣٤

رأيت الفضل متكئـــا ... يناغي الخبـز والسمكـا
فقطب حين ابصرنـــي ... ونكس رأسه وبكـــــى
فلما ان حلفت لـــه ... باني صائم ضحكـــــا

وسوف نلاحظ فيهذه المقطوعات ان ماذكرناه سابقا في الهجاء عمومـــا سيتكرر فيها ايضا كالكاريكاتور والمبالغات والمفارقات ومنها اقـوال ابي نواس السابقة ومن ذلكقوله ايضا في بخيل آخر :(١)

ابو نوح دخلت عليه يومـا ... فغداني برائحة الطعام
فكان كمن سقى الظمآن آلا ... وكنت كمن تغدّى في المنام

وابو نواس بارع فيايجاد هذه المفارقات الذكية والجميلة ومنها هذه التي بين فيها بخل هذا الرجل وانها فعلا صورة جذابة لجأ فيها الى هذه المقابلات التي تجعل ذلك البخيل ينتصر في الحالتين فهو يسقي الظمآن سرابا ويتغدّى ضيفه فيالمنام .

واشنع من هذا كله ذلك البخيل الذي يبخل حتى علىنفسه واهلـــه وهذه قمة البخل كماقال ابن الرومي: (٢)

يقترعيسى علىنفســـه ... وليس بباق ولاخالـــد
ولويستطيع لتقتيـــره ... تنفس من منخر واحد

وماذا عسانا نقول عن مثل هذا الرجل ؟ هذا الرجل الذي جمع البخـــل والكسل في شخص واحد فراح يقتتر حتى في الهواء الذي يتنفسه وهو موجود

---

١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ٥٢٨
٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م١ ج ٢ ص٦٦٦

بكثرة ، وهذا ما جعل ابن الرومي ينتج في فضح هذا الرجل .

اما ابو فرعون الساسي فيجمع بين ذم البخلين : بالمال وبالطعام ، بقوله : (١)

ولايريم الدهر من مكانه ... اشجع من ليث على دكانه
لايطعن السائل في رغفانه ... اعطاني الفلس على هوانه

وقريب من هذا قول ابي الشمقمق : (٢)

يبس اليدين فما يستطيع بسطهما ... كان كفيه شدا بالمسامير

وهذه لقطة اخرى تبين مدى استهجان هؤلاء الشعراء للبخل حتى راحوا يبذلون اقصى ما عندهم من اساليب وطرق فنية فيذمه واحتقاره كما يتضح اكثر فيما يأتي من مقطوعات ، فمن ذلك قول ابي الشمقق ايضا:(٣)

رأيت الخبز عز لديك حتى ... حسبت الخبز في جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنا ... ولكن خفت مرزية الذباب

ومن ذلك كذلك قول حماد عجرد فيا حد اصدقائه وهو حريث ابو الفضل(٤)

حريث ابو الفضل ذو خبرة ... بما يصلح المقد الفاسده
تخوف تخمة اضيافه ... فعودهم اكلة واحده

ان بعض البخلاء كانوا يعلمون ان البخل مذموم من اغلب الناس ولذا نجدهم كثيرا ما يبررون بخلهم ذلك بايجاد علل تبدو لهم منطقية او بعبارة اخرى كانوا يفلسفون هذا البخل ويجدون له الاعذار الكثيرة .

---

١) ابن الجراح : الورقة ص٥٧
٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص١٢٨
٣) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص٣١٧ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ١٢٨
٤) الاصفهاني: الاغاني ج ١٤ ص ٣٣٩ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ٧٠

و ياتون بمختلف الحجج التي تخدم قضيتهم فابو الفضل جريث هذا منهم و رايه ان كثرة الاكل تتخم الانسان و في التخمة اذى و ضرر له ولذا فمن الافضل له ان يكتفي بوجبة واحدة حفاظا على معدته وهو ايضا كما قال حماد عجرد : (١)

زرت اسرا في بيته مرة ... له حيا ، وله خير

يكره ان يتخم اضيافه ... ان اذى التخمة محذور

ويشتهي ان يؤجروا عنده ... بالصوم والصائم مأجور

فانظر الى الحيلة التي لجأ اليها حتى يجعل اضيافه يمسكون عن الطعام فهو يحدثهم اولا حديث طبيب بالمعدة عليم ثم يحدثهم حديث فقيه يرى في الصوم اجرا عظيما .

ومن حيلهم كذلك لجوؤهم الى تصغير القصاع حتى يقدموا للضيف اقل شئ ممكن كما قال منصور الاصبهاني في ذلك : (٢)

خوانك يابن ابي نوفل ... كما زعموا فلكة المغزل

وكبر قصاعك مخروطة ... من البخل من اصغر الخردل

وقد اشتهر بعض الناس بالبخل حتى صار يضرب بهم المثل و يقول فيهم الشعراء القصائد الكثيرة مثل ولد سعيد بن سلم الباهلي الذين هجاهم احمد بن يوسف بقوله : (٣)

ابني سعيد انكم من معشر ... لا يعرفون كرامة الاضياف

قوم لباهلة بن يعصر ان هم ... نسبوا حسبتهم لعبد مناف

قرنوا الغداء الى العشاء وقربوا زادا لعمر ابيك ليس بكاف

---

١) ـ ابن المعتز : طبقات الشعراء ص : ٧١

٢) ـ ابن المعتز : المصدر نفسه ص : ٣٤٤

٣) ـ المبرد : الكامل في اللغة والادب ٢/٢٦ والشريف المرتضى : الامالي ٢/٢٦٩

وكانني لما حططت اليهم ... رحلي نزلت بأبرق العرّاف

بينما كذلك اتاهم كبراؤهم ... يلجون في التبذير والاسراف

ويقول فيهم ابو الشمقمق وبالاصح في سعيد نفسه (١) :

هيهات تضرب فيحديد بارد ... ان كنت تطمع فينوال سعيد

والله لو طلك البحار بأسرها ... واتاه سلم فيزمان مدود

يبغيه منها شربة لطهوره ... لابى وقال : يتيمن بصعيد

وربما تزيد بعض الشعراء على هؤلاء الناس الا ان هذا التزيد لم يأت اعتباطا فلا بد من وجود سوابق له حدثت فعلا فتراح الشعراء يبنون حولها اشعارهم .

ويدلي مسلم بن الوليد بدلوه فيذم بخل سعيد بن مسلم الذى لحقته لعنة الشعراء بقوله : (٢) :

سعيد بن مسلم الأم الناس كلهم ... وما قومه من بخله ببعيد

خريمة لا بأس به غير انه ... لمطبخه قفل وباب حديد

وقد هجا مسلم بن الوليد شخصا آخر اشتهر بالبخل اسمه موسى بقوله : (٣)

يا ضيف موسى اخي خزيمة صم ... او فتزود ان كنت لم تصم

اطرق لما اتيت ممتدحا ... فلم يقل لافضلا على نعم

فخفت ان مات ان اقاد به ... فقمت ابغي النجاة من امم

لو ان كنز البلاد في يده ... لم يدع الاعتلال بالعدم

هذا من ذمهم البخل والبخلاء لكنهم وصفوا بدقة الحيل التي يلجأ اليها

---

١) المبرد: الكامل ٢/٢٥

٢) المبرد : الكامل ج٢ ص٢٥

٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص٢٣٦

البخيل عند مايجد نفسه مضطرا الى استقبال ضيف وذلك بالتشاغل عن هذا الضيف باشياء كثيرة ومنها التظاهر بالصلاة كماقال احد الشعراء : (١)

تراهم خشية الاضياف خرسا يقيمون الصلاة بلا اذان

وقد يطول سجودهم حتى يمل الضيف ويهرب من الجوع بحثا عن الطعام في مكان اخر .

ويظهر البخيل لاضيافه ان قضايا كثيرة تشغله فيقوم ويقعد حتى يعذروه وينصرفوا كماقال الشاعر : (٢)

ياقائما في داره قاعدا من غير معنى لاولا فائده
قدمات اضيافك من جوعهم فاقرأعليهم سورة المائده

وقد يهرب البخيل في وجه الاضياف ويترك البيت حتى لايضطر الى تقديم الطعام اليهم كماقال احدهم : (٣)

يا ايها الخارج من بيته وهاربا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفا على الضيف

ومن العجب ان الضيف يدعو المضيف الى الطعام كمافعل هذا الشاعر ؟ وكل ذلك لان البخل قد انتشر لديهم . والذى يحاول ان يأكل من طعام البخيل انما يذل نفسه دون فائدة لان البخيل سوف يمتنع مهماكانت الظروف .

ولذا تكون محاولة الحصول على طعامه امرا مهينا للغاية كماقال دعبل الخزاعي في ابن طاهر : (٤)

---

١) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٢٠٨
٢) المرجع نفسه ص ١٩٥
٣) المرجع نفسه ص ١٩٤
٤) المرجع نفسه ص ١٩٩

اتينا ابا طاهر مفطريـــــن الى داره فرجعنا صياما
وجاء بخبز له حامـــــض فقلت دعوه وموتوا كراما

وبعد فاننا نلاحظ من الامثلة السابقة امرين هما :

اولا: ان ذم البخل جزء من غرض عام هو الهجاء الذى تطور في العصر العباسي في رأينا فتناول موضوعات جديدة لم تكن تحظى بالاهتمام الزائد في العصور السابقة ومنها البخل الذى افردناه لما له من خلفيات اقتصادية ولانه وانكان يجرح المهجو الا انه يمنح المجتمع مناعة حصينة ضد هذا المرض الخطر .

ثانيا : ان المبالغة واضحة في الشعر الذى يذم البخل وهي كما قلنا سابقا من اساليب ذلك العصر وكانت محببة لدى النقاد زيادة على انها كانت تؤثر اكثر في المتلقي .

++++++++++++

++++++

٤ - رثاء المتاع

كان الرثاء ومازال اصدق ماقيل من شعر لانه ينبع من عاطفة صادقة لنفس جياشة داهمها الموت فلم تجد الا الشعر متنفسا لها عن الالام التي يسببها لفز الالغاز ، الموت، بحيث تطغى العاطفة على الشعر في هذه الحال حتى يأتي ذلك الشعر يقطر حزنا وكمدا .

وزيادة على هذا فان كل الاغراض الشعرية الاخرى قد يرجو صاحبها فائدة منها اما الرثاء فلا رجاء معه سوى ان الانسان عاجز امام الموت وعجزه هذا يولد فيه الحزن وفي الحزن يكون الانسان صادقا ختما .

لكن الشعراء الشعبيين زيادة على رثاء الاقارب والاهل والاصدقاء فقد كانوا يرثون كل ما افتقدوه من متاع والمتاع يشمل كل مايملكه الفقير من ادوات او حيوانات اوممتلكات ما ، لان فقد اى شيء لدى الفقير ، مهما كان تافها فينظر غيره فهو جليل عنده لان من الصعب على الفقير ان يعوض ماضاع منه ولكن عزة اوجملا اوهرة او فانوسا اولوحة وما الى ذلك. ومن امثلة شعرهم ذلك قول ابي محمد القاسم بن يوسف في عنزة سوداء له ، وكان كثير الشعر في رثاء البهائم : (١)

عين بكي لعنزنا السوداء كالعروس الادماء يوم الجلاء
ذات لون كالعنبر الورد تدّعل بما فساق لون الطلاء
ذات رقبين املسين روقين وضرعين كالدّلاء الملاء

وهي قصيدة طويلة عدد ابياتها سبعة واربعون بيتا تسير كلها على هذا النسق ويبدو تأثره بموت عنزته السوداء كبيرا لانها كانت تعطيه

---

١) الصولي : الاوراق ص ١٦٤

تعطيه واولاده الحليب فحينماتت فكأن مصدر الرزق انقطع عليهم .
ويقول فيهرة كانت لجيرانه وماتت : (١)

الا قل لمخة او مسـاردة ... تعزوا عن الهرة الصايدة
عسى أن تدور صروف الزما ... ن بحسن الخلافة والفائدة
وان رحلت عنكم نعمة ... ففي غيركم نعمة وافدة
يقولون كانت لنا هرة ... مربية عندنا تالدة
لها قنص كاقتناص الفهو ... د واثبة فيه او لابدة
ترى الفأر من خوفها خشعا ... جواحر وهي لهم راصدة
فان اطلعت رأسها فارة ... فليست الى جحرها عائدة
كان المنية في كفها ... اذا اقبلت نحوها قاصدة

وفي هذه القصيدة تبدو مقدرة الشاعر الكبيرة على الوصف الدقيق كهذه الهرة التي تلعب دورا كبيرا في حياة الانسان البسيط لانها تخلصه من الفئران وكأنها حارس امين على بيته .

اما ابو الشبل البرجمي فقد اشترى كبشا للاضحى فجعل يسمنه ويعلفه فأفلت منه يوما على قنديل له كان يسرجه وبين يديه سراج قارورة للزيت فنطحه الكبش فكسره وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما عاين ذلك ذبح الكبش قبل الاضحى وقال يرثي سراجه : (٢)

---

١) الصولي : الاوراق ص ١٧٢ - ١٧٣
٢) الانطاني ج ١٤ ص ٢٠٤

يا عين بكي لفقد مسرجـــه كانت عمود الضياء والنور
كانت اذا ما الظلام البسني من جندس الليل ثـــوب كديجور
شقت بنيرانها غياطلـــه شقا دعا الليل بالدياجيـــر

وهي قصيدة طويلـة عدد ابياتها واحد وخمسون بيتا تأثر فيها الشاعـــر اشد التأثر لفقد سراجه وصب فيها غضبه على ذلك الكبش الذى كان السـبب في فقدها .

ولابي الشبل هذا قصة اخرى مع قرطاسه ، فقد ذكر الحسن بن علـــي الشيباني قال(١): " دخلت على ابي الشبل يوما فوجدت تحت مخدتـــــه ثلث قرطاس . فسرقته منه ولم يعلم بي ، فلما كان بعد ايام جاءني فانشدني لنفسه فيذلك الثلث القرطاس :

فكر تعترى وحزن طويـــل كسقيم انحى عليه النحول
ليس يبكي رسما ولا طلـــلا مح كما تندب الربا والطلول
انما حزنه على ثلث كان لحاجاته فخالتـــــه غـــــــول
كان للسر والامانة والكتمـان ان باح بالحديث الرســـول

وعدد ابيات هذه القصيدة ثلاثـة وعشرون بيتا . ويلاحظ ان لابي الشبـل نفسا طويلا في رثائه لمتاعه وهذا يدل على تأثير فقد تلك الاشيـــاء في نفسه فهي ثمينة الفائدة .

اما ابن بيسير فقد رثى الواحا له سرقها منه رجل اسمه قثم وفيها يقـول : (٢)

---

١) الاغاني ج ١٤ ص ٢٠٩ (مصورة عن دار الكتب)
٢) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٥٧٠

عين بكي بعبرة تسفاح واقيمي مآتم الالـواح
اوحشت حجرتي وردنا ى منها في بكورى وعند كل رواح
واذكريها اذا ذكرت بماقد كان فيها من مرفق وملاح
ايئوس دهماء حالكة اللـو ن لباب من اللطاف الملاح
ذات نفع خفيفة القـدر والمحمل حكوكة الدرا والنواحـي
وسريع جفوفها ان محاها عند كل مستعجل القوم ماحي
هي كانت على علوتي والا داب والفقه عدتي وسلاحـي
هي كانت غذاء زورى اذا زا رورني النديم يوم اصطباحي

ويقول فيها مرة اخرى: (١) :

ابقـت الالواح اذ اخذت حرقـة في القلب تضطرم
زانها فصان من صـدف واحمرار السير والقلم
وتولى اخذها قثـم لاتولى نفعها قثـم

وبعد فهذه مجموعة من مقطوعات الرثاء الشعبي نستدل منها على ان حياة الانسان تكسب بعض القيم بارتباطها ببعض الاشياء احيانا لان الانسان حين يملك هذه الاشياء يشعر بالسعادة اما اذا ضاعت منه فانه يحـزن ويحس بالتوتر وقد يبكيها كما فعل هؤلاء الشعراء لان الفة بعض الامـور تولد رابطة بينها وبين النفس زيادة على ان بعضها ضرورى لحياة الانسان. ومن هنا تفهم مدى الخسارة التي احس بها اولئك الشعراء حين فقدوها ولاعجب حينئذ ان ينعكس هذا الحزن على شعرهم فيبثونه كمدهم وبكـاءهم.

وطبعي ان يؤثر فينا هذا الشعر لانه رثاء ومعناه ان الانسان لايرثي احدا اوشيئا ما الا اذا كان صادقـا .

---

١) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٥٧١

ربما كانت الاغراض الشعرية الاخرى ناتجة عن المصالح التي تتحكم في الفرد اما الرثاء فان الشاعر لاينظر من ورائه فائدة معينة اللهم الا الراحة النفسية التي قد يشعر بها عندما يروح عن نفسه بالحديث عن الانسان او الشيء المفقودين . ان رثاء الاهل والاقارب هو اسمى انواع الرثاء لكن الشاعر الشعبي او الانسان العادي يرتبط بتلك الامور التي لها قيمة في حياته كالحيوانات الاليفة او اشياء المنزل حتى يصبح يحس وكان بينه وبينها قرابة معينة ولاعجب حينئذ أن يبكيها كل ذلك البكاء .

.....

.....

٥ - التعامل مع البيئة الشعبية

حياة الفقير شكوى مستمرة ، شكوى من الحياة نفسها ومن وضعه التعس ومن الحاجة والحرمان . ان الفقر يجلب له كل شيء سيء ويوثقه بأمور كثيرة جدا فحتى الطبيعة نفسها تبدو وكأنها تتآلب عليه لانه لايملك شيئا يواجهها به فهو اعزل الا من الايمان بالله وبالانسان وفي ان هذه الظروف لابد ان تتغير يوما فيسعد فيه التعساء . لم يكف الطبيعة ان تراه يرزح فيكل هذه المصائب حتى تطلق عليه بعض مخلوقاتها لتزيد من عذابه .

تطلق عليه البق والبرغوث والنمل وما شابه ذلك لتنغص عليه نومه الذى ربما كان الفترة الوحيدة التي يسعد فيها بنسيانه بؤسه . ان هذه الامور كلها من نتائج الفقر فلوكان يسكن في بيت صحي ويملك مالا يشترى به ثيابا جديدة ويحارب به تلك الطفيليات لما انزعج ابدا . ولكن ما الحل وهو لايملك مايدفع به تلك المنغصات؟ لم يكن له حل سوى ان ينفس على نفسه اذا كان شاعرا بوصفها وذمها والشكوى منها، فقد تخصص بعض الشعراء فيمثل هذه الامور وابرزهم هو ابو محمد القاسم بن يوسف فقد قال مرة يشكو النمل : (١)

خراب الدور عامرها ... فواقعها وطائرها
لنا جارات سوء مؤ ... ذيات من يجاورها
حوارث غير زراعة ... اذا انتشرت عساكرها
كتعبية الكتائب حين تلقى ... من يغاورها
فمقتول ومأسور ... اذا خربت مشاعرها

---

١) الصولي: الاوراق ص ١٧٥ - ١٧٦

وهي قصيدة طويلة قوامها اربعة وثلاثون بيتا اكتفينا بذكر ماذكرنا لنعطي فكرة عن الموضوع • وهو يقول من قصيدة اخرى طويلة عدد ابياتها اربعة وعشرون يشكو فيها من البق والبراغيث : (١) .

قد منينا بهنات هن من شر الهنات
نافرات آهزات قلقات مقلقات
سافكات لدماء الناس منها شاربات
معنا في الدرش والقمص علينا واثبات
بين محنك وفال ثوبه في الغاليات

ويبين ان الشاعر يملك قدرة عجيبة على الوصف الدقيق لهذه المنغصات زيادة على صدقه ومعاناته في هذه الحادثة •

وفي البراغيث يقول اعرابي كان بالبصرة حين ارقته : (٢)

ظللت في البصرة في مراش (٣)
وفي براغيث اذا هاشي
من نافر منها وذى خراش (٤)
يرفع جنبي عن الفراش
فانا في حرب وفي تخراش .
يترك في جنبي كالحواشي

---

١) المصدر السابق ص ١٧١-١٧٢
٢) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق ٢ ص ٩٨ - ٩٩
٣) المراش : الخراش
٤) الخراش : التحرش للقتال

ويبدو ان مثل هذا الشعر كان كثيرا لكن الايام غالته اوبعبارة اخرى فان رواتنا القدامى سامحهم الله قد ترفعوا عن ذكر مثل هذه الامور وان صانف وذكرها بعضهم فمن اجل التفكه لاغير • ومثل هذا الشعر يكشف عن جوانب عديدة من حياة الشعب اليومية ومن المشاكل الحياتية التي كانوا يعانون منها •

ولايمكن ان نحصر هذه المشاكل ضمن هذه الامور القليلة لان الشاعر كان يتعامل مع محيطه وبيئته وكانت هذه البيئة متقلبة الاحوال تفرحه حينا وتحزنه حينا اخر اوتنغص عليه عيشه ومن هنا جاء هجاوءه لمثل هذه الاشياء اومدحه لها •

وكما هو معروف فان بيئة الشاعر متعددة الجوانب اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وجغرافية وثقافية وما الى ذلك ويمكن ان نقول باختصار ان كل ماقاله الشاعر الشعبي كان نتيجة تفاعله وتعامله مع جانب من هذه الجوانب •

.....

٦ - الفكاهة والتندر

لم نر فيما سبق من موضوعات الا الجد والصراحة لكن سوءالا ملحا يطرح نفسه علينا وهو : هل انعدم الفرح كليا من حياة اولئك الشعراء الفقراء ؟ والجواب انهم يكفيهم ما نالوه من عذاب ومشقة ومعاناة من واقعهم المر الذى لم يرحمهم ابدا بل كان باستمرار يتفنن في دحرهم ويبطش بهم كلما رأى منهم استعدادا للثورة عليه ، فقد تألبت عليهم جملة من الظروف أحالت حياتهم جحيما . لكن الانسان ، مهما كانت ظروفه فقد تمر عليه لحظات يفرح فيها ويجد نفسه مدفوعا الى ان يروح على نفسه وينفس عنها ، وفي التنفيس عن الاحزان والواقع الاليم فوائد كثيرة منها ان الانسان يجدد نشاطه بتلك اللحظات التي يدوس فيها على الفقر ويضحك منه فيها ملء فيه ومنها انه يضحكه ذلك يواجه اليأس ولا يستسلم له ابدا .

ومن هنا يصعب تحديد الفكاهة لكثرة الاغراض التي تحتوى عليها ، فهي تشمل السخرية واللذع والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة ..... (١)

وكل هذه الامور تحتاج الى تعريفات دقيقة حتى نفهم معنى الفكاهة على حقيقتها ، لكننا سوف ننظر اليها نظرة اجمالية لا تفصيلية .

واهم شيء نلاحظه هو ان للفكاهة قسمين : فكاهة هادفة ذات مغزى اخلاقي او سياسي او اجتماعي الخ ... وفكاهة عادية تأتي من اجل التندر لا غير . والذى يهمنا هو الشق الاول نظرا لما له من علاقة ببحثنا اى بالشعر الشعبي في العصر العباسي الاول ، لان شعراء الفكاهة في ذلك

---

١) شوقي ضيف : الفكاهة في مصر ص ١٣ دار الهلال العدد ٨٣

العصر كانوا باستمرار يسقطون على فكاهاتهم همومهم ومشاكلهم وما شابه ذلك .

وتبعا لهذا فقد كان للناس دائما موقفان (١) من الفكاهة ، موقف متزمت يرى فيها تفاهة وقلة عقل ، وموقف متقبل لها لكونها نابعة من الشعب ومعبرة عنه .

ويرى بعض الباحثين (٢) ان الفكاهة العربية تتميز بخصائص ثلاث هي :

١ - واقعيتها المكشوفة .

٢ - هجوميتها واستعدادها .

٣ - تكلفها اوصنعها .

ويعني بواقعيتها المكشوفة تناولها لجميع الموضوعات بدون حرج ، ويعني بهجوميتها واستعدادها تلك الشجاعة التي تحلى بها اصحاب الفكاهة في ادبنا العربي اذ كانوا يسخرون من كل من خرج على الصواب حتى ولوكان خليفة . اما تكلفها فيقصد به بعض النماذج التي تأتي فيها الفكاهة متكلفة متصنعة وهي غالبا ذلك النوع الذى يخترعه المثقفون فيذلك العصر .

ونحن نوافق الباحث على الخاصتين الاوليتين اما الثالثة فنحن نلحقها بذلك النوع الذى لامغزى اجتماعيا فيه .

ويقول الباحث ان الفكاهة العربية نضجت فيالعصر العباسي و" ماكان لها ان تنضج الا في هذا العصر ، عصر الترف والقوة والاستمتاع بالحياة المليئة ." (٣) ونحن نوافقه علىان هذا العصر كان عصر ترف وقوة واستمتاع بالحياة ولكن من ناحية الحكام والموسرين فقط

١) انيس فريحة : الفكاهة عند العرب ص ٣٧ - ٣٨ مكتبة رأس بيروت ط١ ١٩٦٢

٢) المرجع نفسه ص ٢٤٠

٣) المرجع نفسه ص ٥٢

فهم وحدهم الذين كانوا يملكون هذه الاشياء ، اما غيرهم من الجماهير العريضة فكان يرزح تحت نير الفقر والحرمان .

ويناقض الباحث نفسه هنا بعض الشيء عندما يجعل الفكاهة ناتجة عن مثل هذه الامور مع العلم انه يقول في مكان اخر ان الفكاهة" ناتجة من الشعب وهي دليل على الكبت والحرمان ." (١)

ولكن لانلومه على هذا التناقض لانه لم يكن يبحث في كتابه عن الفكاهة الشعبية وحدها بل كان يبحث في الفكاهة العربية ككل .

ونعود الى شعرائنا الشعبيين الذين لهم اساليب متعددة في تندرهم تدل كلها على الروح المرحة التي كان يتمتع بها الانسان في ذلك العصر وسوف نتعرض لبعض الموضوعات التي تناولوها بأسلوب ساخر والملاحظ انها سارت جميعا مسرى الامثال كشاة سعيد ونعجة منيع وطيلسان ابن حرب وحمار طياب وبغلة ابي دلامة وضرطة وهب الخ ....

اما وهب هذا الذي اشتهر بضرطته فهو" وهد بن سليمان بن وهب ابن سعيد _ صاحب بريد الحضرة ، افلتت منه ضرطة في مجلس الوزير عبدالله بن يحيى بن خاقان وهو غاص بأهله فطار خبرها في الافاق ووقع في السن الشعراء وصارت مثلا في الشهرة حتى قالوا : اشهر من ضرطة وهب وافضح من ضرطة وهب ، وعمل أحمد بن ابي طاهر كتابا فيذكرها والاعتذار عنها بعد كلام كثير لايل فيها"... (٢)

ومن الشعراء الذين ذكروها في شعرهم ابوعلي البصير الذي قال

---

١) الميس فريحة : الفكاهة عند العرب ص ٣٧ ـ ٣٨

٢) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

فيها : (١)

قتل لوهب البغيض يا وحش الخلقة يا ناطقا بغير لسان
كانت الضرطة المشومة نارا اضرمت في جوانب البلدان
قتلت مفلجا وكان لعمرى عدة في الحروب للسلطان

والملاحظ ان الشعراء الظرفاء لاينسون واقعهم الاجتماعي حتى وهم يتندرون بل نجدهم فيموضوع كهذا يشيرون الى الكرم والبخل والفقر وما شابه ذلك فهذا ابن الرومي يقول (٢) :

ما لقينا من ظرف ضرطة وهب تركت اهل دهرنا شعراء
هي عندى كجود فضل بن يحيى غير انها ليس تنعش الفقراء

وهي اشارة واضحة الى ان الشعراء كانوا يرتزقون بشعرهم وكان الفقر يجعلهم شعراء يكسبون بشعرهم قوتهم .

وقال فيها شاعر آخر ربط بين اسراف آل وهب فيمثل هذه الامور وبين منعهم وبخلهم ، قال: (٣)

يا آل وهب حدثوني عنكم لم لاترون العدل والاقساطا ؟
مابال ضرطتكم يحل رباطها عفوا ودرهمكم يشد رباطا ؟
صروا ضراطكم المبذر صركم عند السؤال الفلس والقيراطا
اوفأسمحوا بنوالكم وضراطكم هيهات لستم للنوال نشاطا
لوجدتم بها معا لوجدتم فرشا لكم عند الرجال بساطا
لكنكم افرطتم في واحد وهوالضراط فعدلوا الافراطا

---

١) الثعالبي:ثمار القلوب فيالمضاف والمنسوب ص ٢٠٧
٢) المصدر نفسه ص ٢٠٧
٣) المصدر نفسه ص٢٠٧

ولقد تفنن الشعراء بعدذلكفي وصفها فأحدثوا لها تشبيهات جميلة وراح كل واحد منهم يبين مقدرته على الوصف وعلى ابتكار المعاني لهذه الحادثة فقد قال احدهم : (١)

ياوهب ذا الضرطة لاتبتئس	فان ... انفاسا
واضرط لنا اخرى بلا كلفة	كأنما مزقت قرطاسا

وقال اخر معتذرا له ومواسيا : (٢)

ايا وهب لاتجزع لافلات ضرطة	نعاها عليك العائبون وافرطوا
ولاتعتذر منها وان جل امرها	فقد يغلط الحر الكريم فيضرط

وقال احمد بن يحيى البلاذرى ساخرا :(٣)

ليت طويل العيد تحكي لنا	ضرطة وهب بن سليمان
فانها كانت تروع العدا	من بين مصر وخراسان
ياضرطة لو انها اشرقت	اودت بصنعا وسجستان

وقال آخر متهكما (٤) :

ان وهب بن سليما	ن بن وهب بن سعيد
حمل الضرطة للرى على ظهر البريد	
لم يجد في القول فاحتاج الى دبر مجيد	

---

١) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف المنسوب : ص٢٠٧

٢) المرجع نفسه ص ٢٠٨

٣) المرجع نفسه ص ٢٠٨

٤) المرجع نفسه ص٢٠٨ - ٢٠٩

اما طيلسان ابن حرب فقد قال فيه الحمدونيقرابة ماتتي مقطوعة وكان ابن حرب اهدى هذا الطيلسان الىالشاعر وفيه يقول :(١)

يابنحرب اطلت فقرى برفوى طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العرض على النار بكرة وعشيا

والملاحظ هنا انه يشير الىفقره وقد كان فقيرا فطلا وزاد من فقره هذا الطيلسان البالي الذى اضطر الىرفوه مرارا حتى ذهب الطيلسان وبقي الرفو كماقال : (٢)

طيلسان لوكان لفظا اذا ما شك خلق في انه بهتان
كم رفوناه اذ تمزق حتى بقي الرفو وانقضى الطيلسان

وفي هذا المعنى يقول ايضا : (٣)

فيما كسانيه ابن حرب معتبر فانظر اليه انه احدى الكبر
قدكان ابيض ثممازلنا به نرفوه حتى اسود من صدإ الابر

ومن نوادر ماقال فيه مقتبسا من القرآن وقدكانوا يلجؤون الىالتراث بكل مناحيه فيأخذون منه كماقال : (٤)

يابن حرب كسوتني طيلسانا امرضته الاوجاع فهو سقيم
واذا مارفوته قال سبحا نك محيي العظام وهي رميم(*)

وقال مقتبسا من الحديث الشريف : (٥)

---

١) ابن المعتز:طبقات الشعراء ص ٣٧٠
٢) الثعالبي : خاص الخاص ص١١٩ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦ م
٣) ابن المعتز : المصدر السابق ص ٣٧٠
٤) الحصرى القيرواني : جمع الجواهر فيالملح والنوادر ص١٥٧
٥) الثعالبي : ثمار القلوب ص٦٠٢ — ٦٠٣
*) سورة يس ، آية (٧٧)

وطيلسان ان تأملتـــه - شققته بالطول والعرض
لو انه بعض بني آدم كان اسير الله في الارض

لان في الخبر: ان العبد اذا بلغ تسعين سنة كتبت له الحسنات وكفرت عنـــه السيآت وسمي اسير الله في الارض . (١)

وقد لجأ الحمدوني في مقطوعاته هذه الى التضمين فمن ذلك قوله مضمنـــا قول ابراهيم الموصلي وغناه : (٢)

كساني ابن حرب طيلسانا كأنه فتى عاشق بال من الوجد كالشن
يغني لابراهيم حين لبسته : ذهبتُ من الدنيا وماذهبتْ منـــي

وعلى الرغم من هذا الهجوم على ابن حرب في الطيلسان الذى اهداه الا ان الشاعر يعترف بالجميل ويذكر لنا بعض اياد ى هذا الطيلسان قائلا : (٣)

طيلسان لابن حـــرب ذو اياد ليس تحصـــى
انا فيه اشعر النـــا س اذا ما الشعر نسا
وارانـي صرت ادنـــى بعدما كنت اقصـــى
واتقاني الناس وازدا دوا على شعرى قمصـــا
كان دهرا طيلسـانا ثم قد اصبح شصـــا (*)

ومن احسن التشبيهات التي قالها فيه هذه المقطوعة الجميلة : (٤)

---

١) الثعالبي : ثمار القلوب ص٦٠٢ - ٦٠٣
٢) المصدر نفسه ص٦٠٣
٣) الحصرى القيرواني: جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ١٥٣
* الشص : اللص الذى لايدع شيئا الا اتى عليه .
٤) المصدر السابق ص١٥٣

قل لابن حربطيلسا ... تك قوم نوح منه احدث
اقنى القرون ولم يزل ... عما مضى من قبل يورث
فاذا العيون لحظنه ... فكأنه باللحظ يحرث
يودي اذا لم ارفه ... واذا رفوت فليس يلبث
كالكلب ان تحمل عليه الدهر اوتتركه يلهث

واما حمار طياب فقد اشتهر كذلك على لسان ابي غلالة الذي وضع فيه كثيرا من المقطوعات كان يضمنها بعض الاصوات الغنائية التي اشتهرت في عصره. وكان هذا الحمار لطياب جاره وكان طياب هذا فقيرا لم يستطع ان يعلف حماره فاصبح جلدا على عظم، ساهم البال محتارا، فوصفه ابو غلالة على هذه الطريقة وهو سواء ادرك ام لم يدرك فقد كان يشير الى فقر جاره وامثاله فقد قال فيه: (١)

يا سائلي عن حمار طياب ... ذاك حمار حليف اوصاب
كأنه والذباب يأخذه ... من وجه نقار ووشاب

وقال متهكما على اسلوب الاطلال والوقوف عليها وانه لايهتم بذلك بل يهتم بحمار طياب هذا: (٢)

اقسمت بالكأس والمدام ... وصحبة الفتية الكرام
ان لست ابكي على رسوم ... غيرها هاطل الغمام
لكن بكائي على حمار ... موكل الجسم بالسقام
قد ذاب ضرا ومات هزلا ... فصار جلدا على عظام
ومر يوما به شعير ... مقدار كفين للحمام
وحمّل قت لشاة قوم ... كلاهما في يدى غلام

---

١ - ٢) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٣٦٧-٣٦٨

فظل من فرحة يغنـــي وقال : قد جاءني طعامي
يازاعرينا من الخيام حياكم الله بالســـلام
لم تطرقنا ني وبي حراك الى حلال ولاحـــــرام

وفي هذا المعنى يقول كذلك (١) :

لم ابك مشجوا لفقد حب ولا ابتلاني بذاك ربـي
لكنني قد بكيت حزنـــا على حمار لجار جنـــب

وقال اخيرا مضمنا بعض الالحان كعادته : (٢)

وحمار بكت عليه الحمير دق حتويه الذباب يطير
اكان فيما مضى يقوم بضعف فهو اليوم واقف لايسير
كيف يمشي وليس يعلف شيئا وهوشيخ من الحمير كبيـر
يأكل التبن في الزمان ولكن ابعد الابعدين عنه الشعير
عاين القت مرة من بعيـــد فتغنى وفي الفؤاد سعير:
ليس لي منك ياظلوم نصيـر انا عبدالهوى وانت اميـــر

اما بغلة ابي دلامة فهي ايضا يضرب بها المثل في الشهرة وقد وصفهـــا ابو دلامة في قصيدة طويلة عدد ابياتها ستة وخمسون بيتا ذكر فيهـــا كيف عذبته فاحتال حتى باعها لاحدهم . ويذكر فيها جملة من عيوبها وهذا مطلعها وبعض من ابياتها : (٣)

ابعد الخيل اركبها ورادا وشقرا فيالرعيل الى القتال

---

١) الثعالبي ثمار القلوب ص ٣٦٨
٢) المصدر نفسه ص ٣٦٧
٣) الجاحظ : القول في البغال : ص ١٠٠ـ ١٠٥

رزقت بغيلة فيها وكسال وخير خصائلها فرط الوكال
رأيت عيوبها كثرت وغالت ولو افنيت مجتهدا مقالي
ليحصي منطقي وكلام غيـــري عشير خصائلها شر الخصال
فأهون عيبها انها اذاما نزلت وقلت : امشي لاتبالي

ونكتفي بهذا القدر لان مثل هذه الامور كثيرة جدا لانستطيع ذكرها كلها . لكن قد يتبادر الى الذهن سؤال : لماذا اهتم هؤلاء الشعراء بمثل هذه الامور التي لاتبدو جادة ؟ لقد قلنا من قبل ان حياتهم كانت قاسـية وانهم كانوا يغتنمون الفرص ليروحوا عن انفسهم وزيادة على هذا كان عليهم ان يملأوا الفراغ الهائل الذي كان يحيط بهم فلم يكن العمل يشغلهـم لانه كان غير موجود او لنقل كان نادرا جدا فكان لزاما عليهم ان يجدوا وسيلة يتعلون بها ومثل هذه الموضوعات كانت افضل وسيلة لديهم بحيث ينسون للحظة من الزمن فقرهم وان كان لاوعيهم يتذكر وضعهم باستمرار فينعكس حتى على هذه الموضوعات كما رأينا ، اضافة الى ان بعض الشعراء كانوا فكهين بالطبع مثل الحمدوني وأبي دلامة وغيرهما .

.....

....

٧ - تسلط المـــال

تحولت بعض الحواضر الكبيرة في العصر العباسي الاول الى ســـوق استهلاكية كبيرة مما زاد من قيمة المبادلات النقدية الامر الذى اعطى للمال نفوذا كبيرا . والذين يكسبون المال هم الاغنياء طبعا وهـــم لايشبعون ابدا كما لايشبع الفقير لكن شتان بين الشبعين فالغني لايشبع لجشع في نفسه بينما لايشبع الفقير لانه لم يجدما يأكل .

وحال كهذه تعطي صاحب المال هيبة وتجعله مرهوباً مطاعا مسموع الكلام نافذ الرأى ، كما تجعله يتصرف في هؤلاء غيره من الضعفاء وفي مصائرهم بواسطة ماله . وهذا ما دفع اناسا الى التكالب على جمع المال بينمـــا جعل اخرين يمدون ايديهم لانهم لم يكونوا محظوظين حتى يكونوا اغنيـــاء. وهكذا اصبح للمال لسان ينطق فيقنع ويجعل الباطل حقا كما يجعل الحق باطلا ، فهذا احد الشعراء يقول مشيرا الى الرشوة التي انتشرت : (١)

بعثتني حاجتي رســـولا ... يكنى ابا درهم فتمـت

ولو سواه بعثت فيهـا ... لم تحظ نفسي بما تمنت

ولهذا انتشرت ظاهرة التزلف لذوى المال لدى بعض الناس فعابها الشعراء لانهم راوا فيها حطا من قيمة الانسان واستعبادا له واستذلالا، لكن فـــي كل مجتمع يوجد افراد يرضون بهذا الاستعباد ومثال ذلك ماقاله عبـــد الصمد بن المعذل في اخيه احمد حين قبض خمس مئة دينار من اسحاق بـــن ابراهيم ثم رجع الى البصرة وكان خرج منها على ان يغزو : (٢)

---

١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص : ١٢٧

٢) زهير غازى : شعر عبدالصمد بن المعذل ص ١٣٣

يرى الفراة بان الله همته وانما كان يغزو كيس اسحاق
فباع زهدا ثوابا لانفاد له وابتاع عاجل رفد القوم بالباقي

ويبدو ان احمد هذا كان كثير التزلف لذوى الجاه واصحاب السلطان فها هو يقول فيه مرة اخرى : (١)

عذيرى من اخ قد كان يبدى على من ليس السلطان عتبه
وكان يذمهم فيكل يوم يشي بالجهل والهذيان خطبة
فلما ان اتته دريهمات من السلطان باع بهن ربه
كسيت ابا الفضول لنا معابا وعارا قد شملت به وسبه

وعرضنا يعبر صراحة عن موقفه من امثال اخيه الذين يتزلفون للسلطان ويبيعون انفسهم مقابل دريهمات ويحتقرهم ،وهو يفضل ان يبقى زاهدا في الحياة على ان يمد يده لصاحب مال لان صاحب المال لن يعطيه شيئا دون مقابل فالعطاء تتبعه عادة ضغوط لايرضى بها عبد الصمد وامثاله .

ومن عجب الامور ان بعض الناس اصبحوا يقيسون الانسان بما يملك من مال ، وان كان معدما فان الاصابع تشير اليه بالعيوب كما قال احدهم :(٢)

اذا قل مال المرء قل صديقه واومت اليه بالعيوب الاصابع

ويبتعد عنه الاصدقاء والناس اذا ادبرت عنه الدنيا كما قال آخر : (٣)

اذا كان جد المرء في الشيء مقبلا تأتت له الاشياء من كل جانب
وان ادبرت عنه دنياه توعرت عليه واعيته وجوه المطالب
وان قل مال المرء اقصاه اهله واعرض عنه كل الف وصاحب
وكذبه الاقوام فيكل منطق وان كان فيه صادقا غير كاذب

---

١) زهير غازى :شعر عبدالصمد بن المعذل : ص ٤٢.
٢) البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٢٧٦
٣) المصدر نفسه ص ٢٨٠

هذه هي حال الانسان الذى لايملك مالا في ذلك العصر ينفر منه الاصدقاء ويقصيه الاهل ويصبح عديم المعنى فينظرهم لايساوى شيئا كما قال احمد ابن ابي طاهر : (١)

ولايساوى درهما واحدا　　من ليس في منزله درهم

لقد فقد الانسان قيمته واصبح يقاس بما يملك من اموال ، لكن الشعراء كما قلنا تصدوا لهذه الظاهرة وحاولوا ان يبينوا ان الانسان يجب الا تطغى عليه المادة وتستحوذ على مصيره ، والا فسوفيفقد انسانيته ، ولذلك لجؤوا الى عدة اساليب ليظهروا عيوب المال فربطوه بالمعاصي وجعلوا الغنى ملازما للشر وجعلوا الفقر محمودا كما قال محمود الوراق : (٢)

من شرف الفقر ومن فضله　　على الغنى لوصح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى　　ولست تعصي الله كي تفتقر

ولكن هذه الصيحات لاتنفع لان الاوضاع الاقتصادية فرضت على الناس ان يبحثوا عن المال بجميع الوسائل ولان المال اصبح يملك سطوة على نفوسهم وعلى ارزاقهم ولذا ظلوا يميلون الى الاغنياء متى ماضحكت لهم الدنيا وان مالت مالوا معها كالريح ، وذلك ماقاله ابو العتاهية من قصيدة جميلة نذكر منها هذه الابيات وهي : (٣)

اذا انقطعت عني من العيش مدتي　　فان بكاء الباكيات قليل
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي　　ويحدث بعدى للخليل خليل
احبك قوم حين صرتا لى الغنى　　وكل غنى في العيون جليل

---

١) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م١ ج٢ ص٤٩٨
٢) المصدر نفسه م١ ج ٢ ص٥١٣
٣) الشريف المرتضى: امالي المرتضى ج ٢ ص٢٢٨-٢٢٩

اذا مالت الدنيا الى المرء رغبت اليه ومال الناس حيث يميل

وقريب من هذا ما اشار اليه بشار وان كان يقصد به مدح الكرم الا انه من جهة ثانية ذم للذين يهرولون الى اصحاب المال حين يقول : (١)

يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء

وكل ذلك لان المال في نظر البعض كالمرهم يجبر العظم الكسير كما قال مطيع بن اياس : (٢)

ثناء من امير خير كسب لصاحب مغنم واخي ثراء

ولكن الزمان يرى عظامي ومالي كالدراهم من دواء

وهذا ما جعل جعيفران ينفجر ويسخط لانه رأى ان المال عقل من لاعقل له وحسن من لاجمال له، وان كان فقيرا فكل النواقص تلحق به وذلك في قوله : (٣)

رأيت الناس يدعوني بمجنون على عمد

ومابي اليوم من حسن ولا لبس ولاعقد

وان كنت كقارون ووالي رحبة الجند

رأوني راجح العقل جميلا حسن القد

وماذاك على حق ولكن هيبة النقد

وفي الاخير نقول ان هذه الظاهرة لم تكن دخيلة على ذلك العصر بل اوجدتها ظروفه التي تحدثنا عنها سابقا وان الذين هرعوا الى اصحاب

---

١) ابن عبدالبر القرطبي : بهجة المجالس ق١ ص٢٦٨

٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص٩٣

٣) النيسابوري : عقلاء المجانين : ص٨٩ المط العربية بمصر ١٩٢٤

المال يطلبون مالهم ويمدون ايديهم كانوا معذورين اذ لم يكن امامهم من وسيلة اخرى غير ذلك• صحيح انهم كانوا لابد ان يثوروا على الوضع وقد فعلوا وان لم تنجح ثوراتهم وحاولوا بشتى الطرق الممكنة تغيير ذلك الوضع • وكان الشعر احد الاساليب المستعملة فيناضالهم ذلك وما هذه المقطوعات التي ذكرناها لهم الادليل عليها •

وفيختام هذا الفصل نكرر ان حياة الشعب لايمكن حصرها في قوالب واغراض محددة ومحدودة وجامدة بل هي متنوعة تنوع الحياة نفسها • وما هذه الاغراض التي ذكرنا الا دليل علىذلك التنوع والخصب •

.....

.....

الفصل الثانـــــــي

الخصائص الفنيـــــــة

أ ـ الاوزان

ب ـ القوافـي

جـ ـ الالفـــاظ :

١ ـ سهولة الالفاظ

٢ ـ المعرب

٣ ـ المصطلحات

د ـ في ثنايا الشعر :

١ـ الاقتباس

٢ ـ المحسنات اللفظـية

٣ ـ الصور الشعرية الشعبية

٤ ـ المبالغة

٥ ـ الصدق في التعبيـــــر .

هـ ـ بناء القصيـــدة .

. . . . . .

مدخـــل :

تغيرت الحياة الاجتماعيـة في العصر العباسي تغيرا كبيرا نتيجة للتطـــور السريع الذى شهدته المنطقـة اعقاب انتصار العباسيين واستيلائهم على السلطـــة. وكان من نتائج هذا التغير ان ابتعدت السلطـة عن العرب عمليا فحتى العاصمـــة لم تعد قريبـة من المناطق العربيـة كماكانت من قبل بل حاذت فارس التي كـــان اغلب جند الخلافـة من فرسها وعربها وغيرهم من سكان تلك الاقاليـم . وهذا مـــا يساعد تلك الشعوب على الانصهار بجديـة في المجتمع الجديد مما اتاح لهم فرصـــة التأثير في الحضارة العربيـة الاسلاميـة بجميع مجالاتها . ان نظـرة بسيطة لاصـل الشعراء في ذلك العصر واللغويين والنحويين ومن شابههم تكفي للدلالـة علـــى ذلك ،فقد تعلموا العربيـة حتى اتقنوها والفوا فيها الكتب والمصنفات الكثيـــرة كما نظموا الشعر فمهروا فيه الى غير ذلك من النشاطات الفكريـة . وهكذا استطاعـت تلك الحضارات التي كانت متنافرة من قبل ان تمتزج في بوتقـة واحدة بفضل الاســـلام وان تكون مجتمعا جديدا يمتاز عن عناصره المكونـة بمايمتاز به الكل عن الاجـــزاء . وبالمقابل تطورت جميع البناءات الفوقيـة بحيث لم تعد وسائلها القديمة والموروثـــة عن بني اميـة تتلاءم مع العصر الجديد ولم تعد تكفي للتعبير عماجد فيه الامـــر الذي حدا بهم الى خلق انظمـة وقياسات جديدة جاءت بطريقة موضوعيـة اى ان الناظر اليها لايراها مفروضـة فرضا على هذا العصر اومقحمـة فيه بصفة تعسفية بل هـــي نتيجة ظروف منطقيـة ،ومع ذلك لانستطيع ان نعدد تلك الاسباب الان واحـــدا فواحدا بل يمكن ان نذكر بعضها عرضا عندما نتعرض لجوانب التغيير التي حدثـــت في شعر ذلك العصر فيمايلي .

. . . . . .

آـ الاوزان

لقد كان الشعر يمتاز بهيمنة كبيرة على نفوس العرب وكأن له سحرا يأسرهم اليه ،حتى قيل ان بيتا من الشعر قد يشعل حربا كما ان بيتا اخر قد يطفئها ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان تأثير الشعر على العرب كان عظيما جدا لانه كان كل شيء عندهم فهو المدافع عن انسابهم والذاب عن اعراضهم والمراد على خصومهم (١) وهومستودع عواطفهم وتراث تجاربهم اضافة الى انه كان وسيلة الاعلام الوحيدة التي لها مفعول عظيم على الجماهير ،ومازالت بقية من ذلك في عصرنا هذا المتسم بالتطور (التكنولوجي) الهائل .

لكن الشعر العربي ،او اى شعر اخر ،لايبقى جامدا عبر العصور وكيف يمكنه ان يركد وهوابن الانسان ،والانسان في اضطراب دائم ؟ لذا كان محكوما على الشعر ان يتطور وان تلحقه اسباب التغير لانه يمثل جانبا هاما من النشاط الفكرى والعاطفي للانسان .

وليس قولنا هذا مقصورا على الشعر الشعبي وحده ،لان الشعر اياكان نوعه يبقى مرتبطا بانسان معين يعيش وسط ظروف معينة ،فسوف نرى ان ماحدث للشعر الشعبي انعكس صداه على الشعر الرسمي والعكس صحيح ايضا لان عملية التأثير والتأثر لايمكن ان تحول دونها الطبقات .

حدث التغير في هذا الشعر ،لافي اغراضه العامة فحسب ،بل في ثنايا ه في معناه وفي شكله ، فمن حيث الشكل تطورت الاوزان والقوافي ومن حيث المعنى تغيرت الموضوعات التي تناولها .

---

(١) محمد شكري الالوسي :بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ٣ ص : ٨٤
شرح وتصحيح محمد بهجة الاثري ،طبع المكتبة الاهلية ،طبعة ثانية ـ مصر ـ ١٩٢٤

ففي الاوزان مثلا حدثا امران هامان تبدو فيهما روح العصر واضحة جـــدا هما :

اولا : ظهور الاوزان القصيرة التي شغف بها العباسيون ايما شغف وافتتنوا بها حتى نظم كثير من شعرائهم عليها .

لقد وجدوا تراثا من الشعر يتسم بالجدية والعبوس وهم في مجتمع تعـــددت فيه اسباب الفقر والحرمان من جهة واسباب الرفاه واللهو من جهة ثانيـة فاحـــرى بهم حينئذ ان يعيشوا عصرهم وان يطرحوا جانبا تلك الاوزان الطويلـة التي تشبـــه امتداد الصحراء ورتابتها .

ماكان احوجهم الى اوزان قصيرة تتمثل فيها الحياة الجديدة بصخب حواضرها الكبيرة المحتويـة على جميع التناقضـات والمعبرة عن التطور السريع الذى حدث فـــي عصرهم . كانت وتيرة التطور سريعة جدا بعد ثورة العباسيين فكان محكوما عليهـــم ان يحدثوا ثورة في كل شيء .

وبقي ان نشير الى ان الشعراء الشعبيين وغيرهم من الشعراء لم يهملوا الاوزان الطويلـة كلها بل نجدهم يستعملونها من حين لاخر لانه من الصعب عليهم جميعـــا ان يتخلوا دفعة واحدة عن الموروث الشعرى سواء في المعاني ام في الاشكـــال . لقد بقيـت اسباب الحياة متداخلـة وقد بقيـت الاتجاهات متداخلـة فكلما ابتعدنا عن المدن كلما كان الشعر اقرب الى العصر الاموى والجاهلي من قبله وكلمـــا اقتربنا من الحواضر كلما بدت لنا الاساليب الجديدة المتلائمـة مع العصر الجديد . هذا من جهة ومن جهـة اخرى فان الشعراء لم يكونوا دائمـا شعبيين خلصـــا اورسميين خلصا لان اغلب الشعراء كانوا في بداياتهم من طبقات فقيرة لكنهم مـــع الايام ومع اقترابهم من السلطان قد تغير بعضهم وتأثر بحياة البلاطات فنســـي اصله وصار يصدر انطلاقـا من وضعه الجديد . فلاتناقض اذا ان نستشهد احيانـا بشعر بعض عماليق الشعراء الرسميين في ذلك العصر كبشار وابي نواس وابي تمـــام وغيرهم .

وليست هذه هي الاسباب الوحيدة في بروز الاوزان القصيرة في تلك الفترة فهناك ايضا تطور الغناء وازدهاره بشكل استثنائي لم يشهدوا له مثيلا من قبل وحسبنا ان نتذكر كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني لنعي مدى هيمنة تلك الظاهرة على العصر العباسي . صحيح ان الاغنياء هم الذين كانوا يستمتعون بهذا الغناء وان شعراءهم هم اول من تأثر بذلك لكن لا ننس ايضا عملية التأثير والتأثر بين مختلف طبقات ذلك العصر ، وهكذا لعب الغناء دورا كبيرا في هيمنة الاوزان القصيرة التي تناسبه وتناسب الموسيقا السريعة النابضة بالحياة .

ثم لا ننس ايضا شيوع التعليم والشعر التعليمي في ذلك العصر والناتج عن تلك الحركة الثقافية الواسعة التي نتجت عن اختلاط الاجناس والحضارات ، فقد عمدوا الى صب القواعد والقوانين والعلوم المختلفة في قصائد شيقة موزونة يسهل حفظها لما فيها من موسيقا زيادة على حب الناس للشعر .
وطبيعي ان يلجؤوا في مثل هذه الظروف الى الاوزان الخفيفة السهلة القصيرة .

وكانت وسيلتهم في هذه الامور كلها ، في الغناء والتعليم والتعبير عن امور الحياة ، هي استعمال الاوزان القصيرة اولا وتقصير الطويلة ثانيا بتجزيئها وانهاكها وما الى ذلك ، مثل قول ابن مناذر في رثاء عبد المجيد (١) :

ياعين حق لك البكا ء لحادث الرزء الجليل
فابكي على عبد المجيد واعولي كل العويل
وابكي لمبتاع الندى والحمد بالثمن الجليل

وهي من مجزوء الكامل ؛ اوكقول جحظة البرمكي : (٢)

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٤—١٢٥
٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٦٠٤

وباحسنت لا يباع الدقيق

اوكقول جعيف=ران : (١)

ماجعفر لابيه ولاله بشبيه
اضحى لقوم كثير فكلهم يدعيه
هذا يقول بني وذا يخاصم فيه
والام تضحك منهم لعلمها بابيه

اوكقول عبدالصمد بن المعذل : (٢)

قالت حيل ماذا العمل
شؤم الغزل هذا الرجل
حين احتفل اهدى بصل

وهي على غرار قصيدة سلم الخاسر التي يقول فيها : (٣)

موسى المطر غيث بكر
ثم انهمر الوى المرر
كم اعتسر ثم ايتسر
وكم قدر ثم غفر

وكلاهما على تفعيلة واحدة هي مستفعلن مع جوازاتها ، وهذا مايبين ايضا ان الاتجاهين الرسمي والشعبي قد تأثرا معا بمختلف الامور التي جدت في ذلك العصر .

---

١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٢٦
٢) عبدالصمد بن المعذل : شعر عبدالصمد بن المعذل ص ١٥٣
٣) احمد كمال زكي : الحياة الادبية في الكوفة ص ٣٣٨

وكما قلنا فان الشعراء لم يستعملوا الاوزان القصيرة وحدها بل نجدهم ايضا يستعملون الطويلة منها فهذا جحظة البرمكي يذكر ان الفقراء ايضا كرماء في قصيدة من بحر البسيط مطلعها : (١)

جاء الشتاء وماعندى له ورق ... ساوهبت ولاعندى له خلع

كانت قبل ذها جود ولعت به ... وللمساكين ايضا بالندى ولع

وقريب من هذا ماقاله الحسين بن مطير من بحر الطويل : (٢)

ات رجلا اوى بوافر لحمه ... طلاب المعالي واكتساب المكارم

خفيف الحشا ضربا كان ثيابه ... على قاطع من جوهر الهند صارم

فقلت لها لاتعجبن فانني ... ارى سمن الفتيان من المشاتم

اما الغناء فاثاره واضحة جدا في شعرنا العباسي الشعبي والرسمي ، ويبدو ذلك جليا مثلافي مقطوعة لبشار بن برد تتردد فيها عبارة معينة كماكان الشعراء يفعلون اذ يختارون عبارة يرددونها لتكون بمثابة ايقاع لبقية الابيات مثل هلليلنة هلليلنة التي هجا بها ابو دلامة بشار بن برد (٣) او كقول بشار نفسه : (٤)

ذرخلتا ذرخلتا ... يابن خليق قد اتى

ذرخلتا ذرخلتا ... هل لك في اني فتى

ذرخلتا ذرخلتا ... سخن اذا جاء الشتا

ذرخلتا ذرخلتا ... فعلت فيك القلتا

ذرخلتا ذرخلتا ... قال متى قال متى

ذرخلتا ذرخلتا ... فتتت قلبي فتتا

---

١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٥٠٦

٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٩٩

٣-٤) مصطفى هداره : اتجاهات الشعر ص ٤٣٢

ثانيـا : وثاني الامرين هو اختراع اوزان جديدة ، فالشعر العربي القديـم او على الاقل منذ عرفناه كان ينظـم وفق انماط معينـة فرضتها ظروف الحياة المختلفة وجاء الخليل بن احمد الفراهيدي فاكتشف اليـة الشعر بحيث وضع قوانين سماهـا علم العروض تيمنا بمكـة المكرمـة لاعتراضها وسط البلاد (١) وربطها بحياة العرب فسمى البحور الشعرية باسماء لها علاقـة بوضعهم ، فالعربي كما نعرف فارس ، والفروسـية ان لم يجدها لاتكتمل رجولته ، فربما قضى الواحد منهم ثلثي حياتـه متطيا صهوة جواده بحيث كان يقطع مسافات طويلـة اما غازيـا واما باحثـا عـن عن العشب والكلاء وحينما كانت تطول عليه الطريق كان يحدو او بعبارة اخرى كـان يترنـم بما يعتمل في نفسـه وكانت حوافر الخيل والابل خير ايقاع يصب فيه تلـك الشحنات العاطفيـة التي تعتمل في داخله اذ على وقعها يتغنى اويشكو مابه . (٢) ومن هنا استنبط الخليل بن احمد تلك التسميات التي اعطاها لبحور الشعر كالطويل والسريع والخفيف وما شابه ذلك . وكشف الخليل في دوائره عن البحور المستعملـة والمهملـة معا . وظـل الدارسـون والباحثون من بعده يرددون اختراعه ويضيفون عليه من الاحتمالات والمصطلحات حتى اثقلوا كاهله فأصبح من الصعب علـى طالب الادب ان يعي باستمرار كل تلك المعادلات الرياضـية التي اصبحها علـم العروض .

ومع ذلك فان الشعراء لم يربطوا انفسهم بما ابتدع الخليل ، وان سـاروا على مبادئه ، لان النفس يستحوذ عليها النظام . ومع ذلك فلـم يرضخوا له لان الحياة في تفاعل مستمر لاترضى بالقيود ابدا ، والبشر مدفوعـون حتما الى ايجاد الاشكـال المناسبة للدلالـة على اوضاعهم المختلفـة عبر الازمان .

---

١) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ٤٩

٢) اغناطيوس كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الادب العربي ص ٨–٩ ترجمـة المعصراني دار النشـر موسكو ١٩٦٥ .

ولذا حدث في العصر العباسي ان استنبط الشعراء بحورا جديدة تتناسب مع عصرهم دون ان يلغوا بالتراث في غياهب النسيان بل استغلوه الى اقصى درجة ممكنة ،فقد نهلوا منه المعاني اولا وظل بعضهم يسير على عمود الشعر المعروف حتى عصرنا هذا .

ان ابا العتاهية فارس بعيد الشأو في هذا المضمار ـ مع العلم ان ابا العتاهية اقرب الى روح الشعب في شعره معنى ولفظا ـ فالمصادر تذكر ان له اكبر الفضل في ابتكار الاوزان ومثال ذلك ماقاله عنه ابنه محمد : " سئل ابي : هل تعرف العروض ؟ فقال : ان اكبر من العروض . وله اوزان لاتدخل في العروض" (١) .

ومن هذه الاوزان دق الناقوس اوماسماه الاخفش بالمتدارك او الخبب وهو كقول ابي العتاهية : (٢)

هم القاضي بيت يطرب ... قال القاضي لما عوتب

مافي الدنيا الا مذنب ... هذا عذر القاضي واقلب

وربما كان يقصد الغدر في الشطر الاخير وذلك بقلب لفظة عذر ،وهي كما نلاحظ على وزن فعلن اربع مرات مع الجولات في كل شطر .

ومن خير الامثلة التي توضح مخالفة ابي العتاهية لقواعد العروض الخليلي قوله من وزن المنسرح : (٣)

---

١) سعد شلبي : الشعر العباسي ،التيار الشعبي ص ٢٠٠ مكتبة غريب بدون تاريخ .

٢) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ١٩٥ طبع مكتبة الانجلو المصرية طبعة خامسة القاهرة ١٩٧٨

٣) ابراهيم انيس : المرجع نفسه ص ١٩٥

من لم تعطه الخطـــوب　　لم تثنه الايام والحقب
يا ايها المبتلى بهمتـــه　　الم تر الدهر كيف ينقلب
راى خلق الاله يعجـــب　　يعجب والخلق كله عجب

ويسمى شاعر اخر برزين العروضي لخروجه على العروض ومن ذلك قصيدته التـــي مدح بها الحسن بن سهل واخاه الفضل وقال عنها ياقوت انها غريبة العـــروض وهي : (١)

ذو الرياستين اخوك النجيب　　فيه كل مكرمة وفيك
ذو الرياستين وانت اللذان　　يحييان سنة غازى تبوك
لم تزالا كالحيا للبـــلاد　　والعباد مالكما من شريك
انتما ان اقحط العالمون　　منتهى الغيث ومأوى الضريك

واذا ناقشا الان هذه الظاهرة فاننا نحط الامرين التاليين :

اولا : قد تكون هذه الحالات التي خرج فيها بعض الشعراء على العـــروض الخليلي محاولات حقيقيـة لايجاد اوزان جديدة وهذا امر محتمل جدا لان العصر العباسي كان عصر تشكل للحضارة الاسلاميـة العربيـة على اسس جديدة تختلـــف عن المراحل السابقـة بسبب انصهار مجموعة من الثقافـات والعقليـات فيها . وليس غريبا ان ينزع بعض الشعراء الى تجديد الاوزان العربيـة المعروفـة وادخال اوزان ربماكانت لها اصول غير عربيـة لان كثيرا من الشعراء كانوا من جنسيات مختلفـــة ولم يتخلوا دفعة واحدة عن حضاراتهم السابقـة .

ثانيـا : والامر الثاني له علاقـة بالاول وهوان الشعراء وجدوا انفسهـــم في مجتمع ظهرت فيه لغتان ،لغة راقيـة وهي العربيـة الفصحى ولغة شعبيـــة فيها الفصيح وغير الفصيح ،مع العلم ان الناس غير المتخصصين في علوم اللغة كانـــوا

---

(١) محمد نبيه حجاب: معالم الشعر واعلامه ص ١٢٥

على استمرار العصور ساهلون في قواعد الاعراب ،ومن هناقد ينظم بعضهم شعرا على غرار اوزان الخليل لكن دون مراعاة للقواعد بصفة صارمة فنتج هذا الذى سمي خروجا على العروض لان تلك الاشعار اذا قرئت معربة اختل الوزن . ودليلنا في هذا هوتلك القصائد الزجلية التي اشتهرت فيمابعد وقد ذكر ابن خلدون بعضها في مقدمته لكن بعض الباحثين لايراها تطورا في " وزن الشعر وبحوره وانماهو تطور في القافية وتنويعها من ناحية وقواعد الاعراب من ناحية ثانية ."(١)

وتذكر بعض المصادر انهم لجؤوا الى قلب الاوزان المعروفة اودمجها في بعضها البعض مماولد لديهم بحورا جديدة تماما منها المستطيل والمتوافر والمتئد والمطرد والمنسرد والممتد ولم يكفهم كل هذا " فلجاوا الى اوزان اخرى حصرها الدمنهورى في سبعة انواع هي : فن السلسلة والدوبيت والقوما والموشح والزجل وكان كان والمواليا ... (٢)

لكن الذى يهمنا من كل هذا هوهل كان للشعراء الشعبيين دور في هذه المحاولات التطويرية؟ الجواب هو انهم لهم كل الفضل في ذلك لان التغيير الجوهرى في مثل هذه المجالات لاينتظر ابدا من الشعراء الرسميين لارتباطهم بالسلطة التي من اهم خصائصها المحافظة .

وهنا نريد ان نناقش قضية تبدو متناقضة للوهلة الاولى وهي :
بما ان الشعراء الشعبيين هم الذين حملوا لواء التطور في الاوزان فلماذا لم يبق اى دليل من شعرهم على ذلك ؟

ان بعض الاشارات المتناثرة هناوهناك في طيات كتب الشعر والادب تجيبنا على ذلك ،فقد كان الرواة لايهتمون الابالشعر الرصين الفصيح حسب رأيهم واهملوا ماسواه،وان اخطأ احدهم مرة وذكره فمن اجل التفكه والتندر لاغير . من المؤكد

---

١) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ٢١١
٢) محمد نبيه حجاب: معالم الشعر ص ١٢٥

ان الجماهير الواسعة في ذلك العصر كانت تتكلم لغة ليست كاللغة الفصحى التي بقيت من ذلك العصر وان كان فيها كثير من الالفاظ الفصيحة ، وهذا يعني حتما انه كان هناك شعراء يكتبون بتلك اللغة التي تفهمها الجماهير والتي يمكن ان نسميها عامية ذلك العصر ،فاين شعرهم ؟

هل ضاع لانه ضعيف لايستحق البقاء ام انه كانت هناك ايد تعمل في الخفاء من اجل وأده وطمسه ؟ نرجح الشق الثاني من التساؤل لان كتب الادب واللغة التي وصلت الينا تدل على ذلك فمثلا نجد ان المواليا كان مشهورا في ذلك الوقت وهوضرب من الاوزان قريب جدا من الروح الشعبية لان الشعراء قد استخدموا فيه العامية ولان بعض الروايات تقول ان الخليفة هارون الرشيد حين نكب البرامكة منع الشعراء من رثائهم باى شعر لكن جارية من جواريهم كانت ترثيهم بهذا الشعر وهي ترددكلمة يا مواليا ،فسمي بالمواليا ولانهم ذكروا ايضا ان العتابي الشاعر قال على وزن المواليا : (١)

ياساقيا خصني بماتهواه　　لاتمزج اقداحي رعاك الله
دعها صرفا فاني امزجها　　حين اشربها بذكر من اهواه

ولان كتب العروض تستشهد على الوزن المخترع الممتد بقول ابي العتاهية : (٢)

عتب ماللخيال خبريني ومالي　　لا اراه اتاني زائرا مذ ليالي

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان تلك الضروب من الشعر قد عرفت فعلا في العصر العباسي الاول اوعلى الاقل كانت لها فيه بدايات وارهاصات

---

١) محمد نبيه حجاب: معالم الشعر ص ١٢٥
٢) محمد نبيه حجاب : المرجع نفسه ص ١٢٤

ساعدت على ظهورها جليا فيما بعد لكن ظروفا عديدة حالت دون وصول الشواهد الينا . ونحن نرجح ان السبب هو ان تلك الضروب كانت ذات صلة وثيقة بالجماهير العريضة في ذلك العصر .

. . . . . .

ب ـ القوافـــــي

القافيـة هي انتهاء الجملـة الموسيقيـة التي تحمل شحنة عاطفيـة معينـة وقد عرفها الباحثون تعريفات عديدة ومتنوعة منها انها " الوحدة الصوتية التـي تكرر في اخر كل بيت من القصيدة واليها تنسب القصيدة كلها ... " (١) فيقال لامية فلان مثلا .

ومثلما جدد العباسيون في الاوزان فانهم قد جددوا في القوافي فتحرروا من الكثير من القيود لان القافيـة التي وصلت الى ذلك العصر من العهود السابقـة لم تعد وحدها كافيـة للتعبير عن مستحدثات العصر بل ربماكانت تمثل احيانـا حاجزا امامهم من الصعب اجتيازه على غير المتضلعين في اللغة منهم . كان لابـد من ايجاد قافيـة تتعدد فيها الحركـة للدلالـة على حركـة الحياة الجديدة السريعة الخطى .

وتجدر الاشارة هنا الى ان بعض الشعراء قد استفادوا مما دخل الى الحضارة العربيـة من الحضارات والثقافـات الاخرى في هذا الشأن من انواع شعريـة وطـرق لم تكن معروفـة ومنها تعدد اشكال القصيدة ، وربما كان بعض الشعراء مـازال محافظـا على لغته الاصليـة كالفارسـية مثلا وربما نظم فيها الشعر وحاول ان يستغـل خبرته في شعر لغته الاصليـة ليزيده الى الشعر العربي وبذلك يحدث التطور .

ان التجديدات التي احدثوها كثيرة منها المزدوج وهو ما اتفقت عروضـه وضربه وهذا نوع انتشـر بكثرة وكان للتعليـم دور كبير فيه مع العلم ان المـزدوج يختلف عن الارجوزة بكون المزدوج ليس من بحر الرجز كما قال ابو العتاهية مـن

---

١) رجاء عيد : الشعر والنغم ، دراسـة في موسيقى الشعر ص ٢٨٤ طبع دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٥ .

بحر السريع : (١)

لكل شيء معدن وجوهـر　　واوسط واصغر واكبـر
مازالت الدنيا لنادار اذى　　مزوجة الصفو بالوان القذى

ومنها المسمط وهوعبارة عن قصيدة تدور حول المسمط الذى يسمى العمود اى انهـا تتألف من ادوار يتركب كل منها من اربعة اشطـر اواكثـر على ان تتفق كلها فـي القافيـة ما عدا الشطر الاخير الذى يجب ان يوافق باستمرار قافيـة السمط اوالعمود اوالقافيـة الثانيـة التي بدأ بها الشاعر(٢)

وبقي ان نشير الى ان الشعراء الشعبيين هم اقرب الى هذه التجديدات من الشعراء الرسميين لارتباط الاخيرين بالسلطـة التي كانت تشجع الحـفاظ على التقاليد الموروثـة كما قلنا سابقـا بينما الشعراء الشعبيون سريعو التأثر بمختلف التيـارات الفكرية والفلسفيـة والفنيـة الناتجـة عن اختلاط الشعوب والعادات والثقافات الخ . . هذا على الرغم من ان شعرهم لم يصل الينا كله ولكن من المؤكد انهم تأثـروا جدا بتلك الافكار التجددية في ميدان الشعر .

ونقول هنا مثل الذى قلناه اعلاه من ان الشعراء الشعبيين هم اقرب الـى هذه التجديدات على الرغم من ان الشواهد لم تصل الينا لاسباب عديدة .

وهناك تجديد اخر في القوافي اشتهر به ابو العتاهية خاصة لكن بعـض الشعراء الاخرين قد استعملوه ايضا وهوالنوع الذى يجعل الابيات كلها تتصـل فيه اتصالا وتتداخل فيه تداخلا يجعل القصيدة كلها مترابطـة متماسكـة مبتعـدا بذلك عن الطريقـة القديمـة التي كانت تجعل كل بيت مستقلا بحاله في اطار القصيدة

(١ ـ ٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ١٢٦ـ١٢٧

الواحدة وان كان يمثل جزءا هاما في بنائها الكلي . ولقد عاب النقاد القدامى هذا الضرب الذى اشتهر به ابو العتاهية لكن ماجدوى كلامهم اذا كانت اسباب الحياة تدعو الى ذلك وتحبذه وهو كقول ابي دلامة : (١)

ووسوسوا بقران في مسامعه ... مخافة الجن والانسان لم يخف
شيئا ولكنه من حب جارية ... امسى واصبح موقوفا على التلف

وكما نلاحظ فان هذين البيتين متصلان بعضهما ببعض اشد الاتصال بحيث انك لوقرأت بيتا دون مايتبعه لما فهمت المراد .

وهناك نوع اخر من التجديد تبدو فيه اللغظة بكاملها قافية بحيث تتكرر هذه الكلمة على طول القصيدة ، وهونوع طريف تتضح فيه الصنعة لانها ضرب من الجناس وسوف نرى ان كل كلمة تحمل معنى جديدا اوتضيف ايحاء جديدا مثل قصيدة دعبل بن علي في الفضل : (٢)

نصحت فاخلصت النصيحة للفضل ... وقلت فسيرت المقالة في الفضل
الا ان في الفضل بن سهل لعبرة ... ان اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر ... اذا ازدجر الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل في الفضل بن يحيى مواعظ ... اذا فكر الفضل بن مروان في الفضل
فابق جميلا من حديث تفرّ به ... ولاتدع الاحسان والاخذ بالفضل
فانك قد اصبحت للحكم قيما ... وصرت مكان الفضل والفضل والفضل
ولم ار ابياتا من الشعر قبلها ... جميع قوافيها على الفضل والفضل
وليس لها عيب اذا هي انشدت ... سوى ان نصحي الفضل كان من الفضل

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٢٦٧ (مصورة عن دار الكتب)
٢) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٣٣٨-٣٣٩

اومثـل قول ابي الينبغي : (١)

الا يامالك الناس	وخير الناس للناس
انتهاني عن الناس	فاغنني عن النـاس
والا فدع النـــاس	ودعني اسال الناس

ومن القوافي المبتكرة تلك التي لاقافيه لها وان كانت تسير كلها على وزن واحد مـــــن بحور الشعر المعروفـة كقول رزين الشاعر العروضي : (٢)

قربوا جمالهم للرحيـل	غدوة احبتك الاقربـون
خلفوك ثم مضوا مدلجين	منفردا بهمك ماودعوك

وهي محاولة جديرة وان لم يكتب لها النجاح في ذلك العصر الا انها وجدت بعثهـا في عصرنا هذا في ظاهرة الشعر الحر الذى يلتزم التفعيلة ولايعطي القافيـة الواحدة اى اعتبار لاعتماده على الموسيقا الداخليـة للاشطر الشعرية .

ان رزينا العروضي لم يلغ الشكل العام للقصيدة في ذلك العصر فقد بقـــي البيت عنده مقسما الى شطرين متساويين الا انه الغى القافيـة بمفهومها الشائـــع في ذلك العصر ولم يلغ شكلها .

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

٢) مصطفى هداره : اتجاهات الشعر ص ٥٤٢

ج ـ الالفـــاظ

ان اللغـة ،ايـة لغة ،لاتعيش بمنأى عن المجتمع بل هي تتفاعل باستمرار بالمجتمع الذ ـ تحيا فيه ومن هنا نجد ان اللغة العربيـة في العصر الامـــوى كانت اقرب الى لغة الجاهليين نظرا لبطء حركـة التطورفي تلك الحقبـة مـــن تاريخ العرب ، وهذا لايعني انها بقيت كما كانت من قبل لان التغيير ـ ولـــو كان طفيفا ـ قد حدث فعلا وماعلينا الا ان نتذكر الالفاظ الاسلاميـة (١) اوبعبارة اخرى تلك المجموعة الهائلـة من الالفاظ التي لها علاقـة بمصطلحات الديـــن الاسلامي الحنيف لنعرف مدى التطور الذى طرأ عليها . الا ان العصر الامـــوى صار مع مرور الايام حاجزا امام ذلك التطور لان القائمين على الحكم ارادوا ان يحيـوا سنن الماضي وتقاليده مثل العصبيـة القبليـة والسلفيـة الخ . . . وكان لهـــذه العمليـة انعكاس على مختلف مناحي الحياة ومنها اللغة . اما في العصر العباســي فان الامر يختلف . لقد كانت الثورة العباسـية ـ قبل ان تنحرف ـ ثورة علـــى الظلم والمعاصي والاضطهاد وثورة على كل ماله علاقـة بالعهد السابق وحين نقـول ثورة على كل مايذكر بذلك العهد فان اللغة ايضا لكونها تتأثر باحداث المجتمـــع تدخل ضمن هذا . لم تكن اللغـة اذا بمنأى عن تلك الثورة ،وحين نقول اللغـة فنحن نقصد اشكالها ومعانيها معا اذ ان الشكل لايتطور ابدا الا اذا تطـــور المحتوى الذى يحمله هذا الشكل ،والعكس صحيح ايضا لان العلاقـة بينهما مترابطة. لم يعد معقولا ان تبقى اللغة على حالها بعد ان امتزجت حضارات عديدة مولـدة بذلك حضارة جديدة تتفاعل فيها تلك المعطيات الجديدة وتنصهر بعضها ببعـض لان اللغة هي " الواقع المباشر للفكر" (٢) وهي الصورة الخارجية منه وهي التـي

---

١) جلال الدين السوطي : المزهر في علوم اللغة وانواعها ج ١ ص ١٧٢ ومابعدها طبع محمد علي صبيح واولاده بدون تاريخ .

٢) مجموعة من الاساتذة السوفييت : في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ٢٣٦ ترجمة خ الضامن . دار التقدم موسكو ١٩٧٥ م

تنشره على ابناء جيلها وتنقله الى الاجيال القادمة .

وبسبب ذلك كله ظهرت العاميات في وقت مبكر اوبالاصح ظهرت عاميات جديدة لاختلاف المناطق التي كان يسكنها المسلمون العرب والمستعربون .
ونحن نقول هذا لان اللهجات العربية في العصر الجاهلي مثلا ليست سوى صور متعددة للغة العربية تكون في مجملها الفصحى التي نعرفها عن ذلك العصر ، وهذا امر طبعي لان الظروف التي تتعرض لها الجماعات تختلف باختلاف المناطق ولهذا فلا غرابة ان تختلف بعض الاسماء عند هذه القبيلة اوتلك وماشابه ذلك .
ويمكننا ان نقول باطمئنان ان العرب على اختلاف عصورهم كانت دائما تربطهم لغة واحدة مشتركة .

اما اذا عدنا الى لغة الشعر الشعبي الذى وصل الينا من العصر العباسي الاول فاننا سوف نلاحظ الامور التالية :

١ — سهولة الالفاظ

اول ظاهرة تلفتنا في هذا المجال هي مانسميه موقنا بسهولة الالفاظ ،وذلك ان الشعراء الشعبيين قد استعملوا الالفاظ المتداولة بين الناس والتي يسميها احيانا بعض اللغويين القدامى والمحدثين على السواء بالالفاظ المبتذلة ،والسبب في هذه التسمية ان جماعة المؤلفين من نحاة ولغويين وغيرهم — اى الخاصة — هي التي كانت تتمسك بالقديم تمسكا استثنائيا وكانت ترى كل شيء حديث خروجا على القواعد والاعراف فتحط من قيمته لذلك السبب . ومن هنا ايضا جاءت صفة الابتذال التي الصقوها بتلك الالفاظ الشائعة .

وكان جمهور الشعراء في نظرنا على حق في استعمالها لانهم بذلك يعيشون عصرهم حقيقة فيغرفون من انتاجه اللغوى مايفهم من جميع الناس ولنا فيما حدث

لابي تمام مثال واضح عندما مدح ابا العميثل ـ كاتب عبد الله بن طاهر بقصيدة مطلعها :

اهن عوادى يوسف وصواحبه ....

فقال ابو العميثل : لم تقول مالايفهم ؟ فكان رد ابي تمام : ولم لاتفهم مايقال ؟ (١)

فعلى الرغم من ان الناس اولعوابجواب ابي تمام المفحم الا ان ابا العميثل كان على صواب لانه ليس من المفروض ان يعرفكل شخص مفردات اللغة ويفهم قديمها وحديثها . وكانه متخصص فيها .

ان العقلية السائدة في ذلك العصر بين جمهور المؤلفين من لغويين ونحاة وغيرهم لم تكن شاذة في اطار ذلك العصر لانها تعكس مايسميه بعض الباحثين بالنظرية الهرمية في الفكر العربي ككل (٢) وهي نظرية ترى ان مختلف المجالات في ذلك الفكر وفي تلك الحضارة على شكل هرم بحيث تجد الخليفة في السلطة السياسية هورأس الهرم وقمته وعنه تتدرج نزولا جميع السلطات الاخرى وكذلك الحال في الشعر حيث وضع المدح ،الذى هوالغرض المناسب للملوك والبلاطات حسب العقلية القديمة على قمة الهرم وكان غيره من الاغراضيأتي في مرتبة اقل منه ، ونجد الامر نفسه في اللغة والفاظها حيث وضع اللفظ الفصيح الذى يناسب المدح اى يناسب الخلفاء ومن لف لفهم على رأس ذلك الهرم وتنحدر عنه الالفاظ الاخرى حسب قيمتها وحسب قرابتها من البلاط وانظمته .

---

١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٢٤٧—٢٤٨

٢) مجموعة من السوفييت : بحوث سوفييتية في الادب العربي ص ١٥ حتى ٤٩ ترجمة خيرى الضامن دار التقدم موسكو ١٩٧٨ م

وكنا سمينا في البداية هذا الملمح من اللغة بسهولة الالفاظ موقتا لاننا نراها هي الفصيحة بينما يراها الاخرون غير ذلك . نراها هي الفصيحة ونسميها كذلك لانها تستوفي بعض الشروط قد لانجدها فيما سمي بالفصيح (١) فهي اولا شائعة بين الناس وهي ثانية مفهومة من قبلهم وهي ثالثا اقرب الى الروح الشعبية بينماكادت ان تصبح الالفاظ الفصيحة لغة صالونات بمفهوم عصرنا هذا .
وما اصدق الجاحظ حين قال وهو الذى عاش ذلك العصر: " كلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات " (٢)

والامثلة على الالفاظ السهلة التي استعملها الشعراء الشعبيون في ذلك العصر كثيرة جدا نذكر منها مايلي : يقال ان امرأة اعترضت المأمون وكان قد غصبها ضيعتها فقالت له : (٣)

الا ايها الملك المرتجى	لريب المنون وصرف الزمن
بحق النبي وحق الوصي	وحق الحسين وحق الحسن
وحق التي غصبت حقها	ووالدها بعد ذا ما اندفن
شفعت اليك باهل الكساء	فان لم تشفع شيعي فمن ؟

وهذا شعر لانجد فيه لفظة غريبة حتى عن عصرنا الحاضر كل ذلك لان الفاظه سهلة بسيطة لم تنحتها صاحبتها من صخر ولم تأخذ ها من قاموس للالفاظ الجاهلية بل استمدتها الشاعرة من واقعها اليومي ومن اللغة التي يتحدث بها البائع الجوال والجرار والفلاح والعامل البسيط في عصرها . ويقول الحمدوني في شاة سعيد : (٤)

---

١) جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة وانواعها ج ١ ص ١١١ ومابعدها
٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص : ٩٠
٣) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٤٨٥
٤) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ١٤٣

لسعيد شويهـــــة سلها الضر والعجف
بأبي من بكفـــــه برء مابي من الدنـــف
فأتاها مطمعـــــا وأتته لتعتلـــــف
فتولى فاقبلـــــت تغنـــي من الاســـف
ليتـــه لم يكن وقـــف عذب القـلب وانصرف

وهذا ايضا شعر لا كلمة وعرة او حوشية فيه ولا لفظ غريبا بين جنباتـــه بل انه بسيط كبساطة الناس حين يفرحون ويغضبون ويتألمون ويشكون. وهـــذا ابو الهول الحميرى يغضب لنفسه من بخيل كان مدحه ولم ينل من عطاياهـــاء شـــيئا فقال فيه (١)

أصبحت محتاجا الى الضرب في طـــلبي المعروف من كلب
قد وقح السب له وجهـــه فصار لاينحاش للضـــــرب

ومن سهولة الالفاظ ايضا ما قاله محمد بن امية في شكل حكمة رائعـــة تدل على ان الرجل جرب الحياة فاعطانا هذه الابيات الجميلة :(٢)

اقطع الدهر بظن حسن واجلي كربة لاتنجلـي
كلما املت وجها صالحـــا عرض المكروه دون الامل
وكذا الايام لاتدني الذى ارتجـــي منها وتدني اجلي

وفوق هذا كله فقد استعمل شعراء ذلك العصر العبارات الموغلـــة فـــي العاميـــة وكان ذلـــك الشعر فيـــه مثل هذه العبارات لم يصل الينا منه الا القليل القليـــل كقول الفضـــل بن هاشـــم :(٣)

(١)- ابن المعتز : طبقات الشعراء صفحة ١٤٣
(٢) - الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص : ٤٥٥
(٣)- ابن الجراح : الورقـــة ص : ١٢٩

قل لـهـا ايها الرسول عساها ان ترد وصلنا نعيش بخـير
ايش معنى لصوق صدغ بصدغ انما الشـأن .....

نلاحظ اولا ورود لفظة (ايش) التي هي استعمال شعبي محض لعبارة (اى شيء) وهذا ناتج عن تطور اللغة عموما وهذا مايسمى ايضا بظاهـرة الاقتصاد اللغوى حيث يلجأ المرء عادة في حديثه اليومي الى اختصـار الالفاظ ودمجها او تبديل الحركات من الصعب الى السهل حتى يبذل اقـل جهد عضلـي ممكن دون ان يضر بالمعنى المراد توصيله .

وثانيا نلاحظ عدم احترام قواعد الاعراب حيث جعل الشاعر جواب الشـرط غير مجزوم في الشطر الثاني من البيت الاول (نعيش) .

٢— المعرب والدخيل *

نحن امام عصر تعددت فيه مناهل الثقافة ومشاربها اى تعددت فيه اللغات واللهجات بتعدد الاجناس الداخلة في الاسلام . وكان امرا طبيعيا ان تأخذ هذه الحضارات بعضها من بعض وان تتأثر كل واحدة منها بغيرها فتأخذ ماتراه مفيدا لها . وكانت اللغة بمفرداتها وتراكيبها هي نقل تلك الخبرات والتجارب من مجتمع الى اخر . وليس هذا دليل ضعف اذا لجأت لغة ما الى مثل هذا الاسلوب في الاخذ ،بل هو رمز قوة بحيث ان لغة ما اذا استطاعت ان تستوعب محتويات لغة اخرى(اى حضارة اخرى) فهذا مؤشر صحة وهذا يعني ايضا انها مقتدرة ومتفتحة بشرط الا تذوب اللغة المستقبلة في الوافدة .

وكانت اللغة العربية منذ عرفناها في العصر الجاهلي تلجأ الى هذا الاسلوب في الاستفادة من غيرها من اللغات ولنا خير دليل في القران الكريم الذى وجدت فيه بعض الالفاظ من اصل حبشي اوفارسي اوروبي الخ . . . وهوماسمي بالمعرب ، شرط ان يخضع لشروط وطرق معينة يتم بها ذلك النقل حتى يتلبس بزى العربية .

لقد ظل الامر على تلك الحال في العصر الجاهلي وجزء كبير من العصر الاموى ،امافي العصر العباسي فقد تغيرت الامور كثيرا . فقد بقيت حركة التعريب مستمرة لكن الذى حدث حينئذ ان وابلا من المصطلحات والالفاظ دخلت العربية نظرا لانفتاحها على امصار جديدة وخاصة الفرس ، حتى اصبح التعريب المقنن غيركاف مماسمح لعديد من الالفاظ ان تدخل العربية وتبقى على شكلها دون تغيير حتى وان خالفت النطق العربي وهذا في الالفاظ الفارسية بصفة استثنائية لظروف معروفة .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر منها مايلي :

---

* انظر في باب المعرب : السيوطي : المزهر ج ١ ص ١٥٩ ومابعدها .

قال اسود بن ابي كريمة : (١)

لزم الغرام ثوبـــي ... بكرة في يوم سبت
فتمايلت عليهـــم ... ميل زنكي بمســت
قد حسا الداذى صرفا ... اوعقارا بابخســت
كم كفتــم ذو زينـــاد ... ويحكم ان خركفــت
ان جلدى دمغتـــه ... اهل صنعاء بحفــت
وابو عمرة عنـــدى ... ان كور يذ نمســت
جالس اندرمكنـــاد ... ايا عمد بنهشــت

وواضح ان هذا الشاعر يعيش ازدواجية رهيبة قد تؤثـــر على حياته كلها هذا ان لم يكن قاصدا ذلك قصــدا .

وقال ابن مناذر يعير قاضيا : (٢)

جعل الحكم باللناس من آل طليق
ضحكة يحكم النـاس برأى الجاثليق

اوكماقال الفضل بن هاشــم : (٣)

انا المخبــل صرفـا ... حماقتي ليس تخفى
فعاجلوني بلطـــم ... وشججوا الرأس نقفا
ثم اقصفوا الظهر منـي ... بالبشتبانات قصفـا

فالبشتبانات ليست عربيه على الاطلاق وحتى تركيبها غريب على لغتنـا .
لكننا اذا عرفنا ان عددا كبيرا من شعراء العصر العباسي الاول شعبيين ورسميين ،

---

١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص : ٩٠
٢) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ١٤٧
٣) ابن الجراح : تـة ص ١٣٠

كانوا من الموالي فان الامر لايصبح غامضا ولاموجبا للتساؤل ،فهؤلاء الشعراء لم يستطيعوا ان ينسوا لغاتهم الاصلية زيادة على بعض الامور الاخرى كالشعوبية التي تغرض عليهم احيانا ان يمزجوا العربية بلغتهم احياء لماثرهم وحطا من قيمة العربية .لكن المدهش ان يلجأ العرب انفسهم الى استخدام بعض الالفاظ غير العربية ،وقد تنبه الجاحظ لهذه القضية حين قال :" . . . قد يتملح الاعرابي بان يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :(١)

من يلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالصرد
يجول بين رأسه والكرد *

ان الجاحظ يرى ان هذا من التملح او بعبارة اخرى من عرض العضلات بمعرفة اللغات لكن الحقيقة ان هذا الاعرابي-والاعراب اشد حفاظا على لغتهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس- يعكس الحال التي كان عليها عصره حيث اصبح للفرس مثلا نفوذ كبير فطغت لغتهم من جديد واللغة تتصرف وفق الجماعة التي تنتمي اليها .

ويعطينا الجاحظ صورة اخرى عن تلك الشعوب التي دخلت الاسلام وتعصبت العربية بقوله :" وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيرا فاخرا ،ومعناه شريفا كريما ،ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه انه نبطي وكذلك اذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فانك تعلم مع اعرابه وتخير الفاظه في مخرج كلامه انه خراساني وكذلك ان كان من كتاب الاهواز . . . (٢)

---

١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص : ٨٩
* الكرد : اى العنق .
٢) الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٥١

وقد اشار الجاحظ هنا الى قضية اللكنات التي تبقى لدى الفرد حين يتعلم لغة جديدة لان من الصعب ان يتعلم الانسان خصائص لغة ما الابعد طول مدة ومراس ، فمهما تعمق المرء في قواعد تلك اللغة وظواهرها فان لكنته الاصلية اوبالاصح لغته الاصلية تبقى مسيطرة في بعض الحروف مثلا . ولكن الذى يهمنا هوان هذه اللكنة اذا كانت بكثرة وردودها قوم عديدون فانها قد تؤثر في اللغة التي يستعملونها اى قد تؤثر في العربية وهذا ماحدث فعلا ومنه مابقي حتى في عصرنا هذا فاننا نجد مجموعة قليلة من الناس هي التي تستطيع وحدها ان تفرق عمليا بين حرفي الضاد والظاء .

وهذا الاختلاف بهذه اللكنات من الاسباب المكونة للعاميات ، وما كلام الجاحظ سوى دليل على وجود تلك اللهجات ، فالمغلاق الذى تحدث عنه قد يلجأ حين يحوله مخزونه اللغوى العربي الى مخزون لغته الاصلية فيستعمله محاولا الباسه بلبوس عربي ، ومع التكرار وتداول الناس له يدخل ذلك اللفظ في العربية .

•

++++++++++++

٣ ـ المصطلحـــات

نشأ كثير من العلوم في صدر الاسلام وتواصل البحث فيها على امتداد العصر الاموى ، وكان للدين الاسلامي الاثر الكبير في نشوئها ، فقد كان من الضـــرورى نشر الدين الجديد وتعليم تعاليمه وتحفيظ القران للداخلين في الاســلام مــن غير العرب وهذا من الاسباب التي اضطرتهم الى ايجاد النحو والصرف وعلوم اللغـــة المختلفـة زيادة على الامور التي تمس الدين مباشرة كالفقه والتفسير وماشابه ذلـــك لان انتشار الاسلام في اقاليم عديدة لاتعرف العربيـة جعل امرا كهذا حتميا .
وجاء العصر العباسي فازدهرت تلك العلوم ازدهارا عظيما كما ظهرت الى الوجـــود علوم اخرى نتيجة التطور الهائل ونتيجـة الترجمـة والاحتكاك بشعوب اخرى .
وقد كانت حركـة الترجمـة حثيثـة الخطى في مجالات عدة كالفلسفـة والطـــب والهندسـة والزراعـة وغيرها ولاضرر ان نذكر ان بضعة مئـات من الكتب قد نقلـت الى العربيـة منها" ثمانيـة في الفلسفـة والادب لافلاطون و ١٩ كتابا في الفلسفة والمنطق والادب لارسطو وعشـرة كتب في الطب لابقراط وثمانيـة واربعون في الطب لجالينوس وبضعة وعشرون كتابا في الرياضيات والنجوم لاقليدس وارخميدس وابو لونيوس ومنالاوس وبطليموس . . . وغيرهم . . . . " (١)

واما المنقولات الاخرى فمنها نحو" عشرين كتابا نقلت عن الفارسـية فـــي التاريخ والادب ، ونحو ثلاثين كتابا من اللغة السنسكريتيـة واكثرها في الرياضيات والطب والنجوم والادب ، ونحو عشرين كتابا عن السريانيـة والنبطيـة واكثرها فـــي السحر والطلسمات الا كتاب الفلاحـة النبطيـة . . . . وهناك بضعة كتب نقلـــت عن اللاتينيـة والعبرانيـة . . . " (٢)

---

١) ٢) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٥
طبعة دار الهلال ، بدون تاريخ .

والذي احدث فوق هذا كله ان هذه المعارف وجدت طريقها الى الجماهير العريضة لان طريقة التدريس المتبعة في ذلك الوقت في المساجد تسمح لكل من اراد ان يتعلم ان يحصل مايريد بحيث لم تعد هذه المعارف حكرا على المتخصصين في ذلك العصر بدليل ان بعض الشعراء ،شعبيين كانوا ام رسميين ،كانوايستعملون مصطلحات تلك العلوم في شعرهم وهذا يدل من جهة اخرى تفشي شيوع تلك العلوم بين الناس .

ومن امثله استعمالهم لتلك المصطلحات قول الخريمي متأثرا بالفلسفة وعالم الكلام: (١)

اذا مامات بعضك فابك بعضا فبعض الشيء من بعض قريب

فلفظة(بعض) هذه قد اتخذت مدلولا جديدا في ذلك العصر وهوفلسفي كماهو واضح .

ولذا فان هذا الشاعر قد تأثر بتلك المدارس الفلسفية والفكرية التي كانت موجودة في عصره وما اكثرها وكذلك فعل غيره من الشعراء وليس في هذا عيب ابدا لان تلك المدارس ساعدت على تطور اللغة في معانيها ومدلولاتها .

ويقول ابو الشمقمق ايضا متأثرا بتلك المعارف واصفا البرغوث : (٢)

ياطول يومي وطول ليلتـه فليهـن برغوثـه بجلدته

قد عقدت بندها على جسدى واجتهدت في اقتسام جملته

فالاجتهاد معروفوهو احد ،عناصر التشريع في الاسلام والجملة هنا مصطلح فلسفي اى الكل .

---

١) الثعالبي : خاص الخاص ص ١١٣ تقديم حسن الامين طبع مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦

٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ٢ ج ٤ ص ٦٨٧

وقال احمد بن يوسف واصفا غلامه بعبارات يبدو فيها التأثر بالهندسة واضحا جدا وذلك بقوله (١) :

ولي غلام طال دقة كخط اقليدس لاعرض له .
وقد تناهى عقله خفة فسار كالنقطة لاجزء له

وتكفينا هذه الامثلة لنأخذ فكرة عن تداخل العلوم وتأثيرها على الناس .

---

١) سعد شلبي : الشعر العباسي ، التيار الشعبي ص ١٥١

د ـ في ثنايا الشعـــر

هناك جملة من الامور كان الشعراء يلجؤون اليها من حين لاخر كالاقتباس والمحسنات اللفظية والصور الشعبية والمبالغة والصدق في التعبير ، والحقيقة انهم لم يكن لهم خيار في اللجوء الى هذا اوذاك من هذه الامور بل ان المواقف التي يتناولونها شعرا هي التي تفرض عليهم سلوكا معينا وسوف نعرضها الان واحدا فواحدا .

١ ـ الاقتبـــاس

لجأ الشعراء في كثير من الاحيان الى الاقتباس من التراث الموجود لديهم من قران وحديث وشعر وامثال وخرافات واعتقادات حسب مايتطلب منهم الموقف الشعرى بحيث يصبح لشعرهم عادة صبغة من الحكمة والجد ، معتبرين بالماضي وتجاربه اضافة الى طابع الاخلاق الذى يهيمن على مثل هذا الشعر .

والاقتباس امر مشروع وليس سرقة ، ليس في الشعر فحسب بل في جميع مجالات الحياة لان تطور الانسانية على مر العصور يتم بطريقة حلزونية اى ليس متجها دائما نحو الامام كالسهم اونحو الوراء كالصخر النازل من عل بل ان الانسانية تبدو وكانها تخطو خطوة الى الوراء وخطوات عديدة الى الامام حتى يبقى هذا الرباط المتين بين الانسان واخيه الانسان في مختلف العصور وتبدو تلك الخطوة التي تقوم بها الانسانية الى الوراء كتوثب جديد واخذ للنفس حتى تقفز الى الامام تلك الخطوات التي يجب ان تسيرها .

وفي هذا الاطار يمكن ان نفهم فلسفة الاقتباس في الشعر وفي غيره . وهناك امثلة كثيرة لدى الشعراء الشعبيين في هذا المجال منها قول اسماعيل القراطيسي (١) :

---

(١) نبيه حجاب: معالم الشعر واعلامه ص ١٢٠

الاقل للذى لم يهده الله الى رشـــــــد
لئـن اخطأت في مدحيك اخطأت في منعي
لقد انزلت حاجاتي بواد غير ذى زرع (*)

واثر القران الكريم واضح في هذه الابيات .

وقول عبد الله بن المبارك : (١)

ارى اناسا بادنى الدين قد قنعوا ولا اراهم رضوا بالعيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيـا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وهذا القول ماخوذ من كلام المسيح عليه السلام :" كماترك لكم الملكوك الحكمـــة فاتركوالهم الدنيـا ." . .

اما دعبل بن علي فيقول : (٢)

وكان كالكلب ضراه مكلبه لصيده فعدا يصطاد كلابـه

وهذا مأخوذ من المثل القائل :" انا اجره الى الخراب وهويجرني الى الخراب".

واما ابو الجهم احمد بن يوسف فيقول في محمد بن حماد مستنبطا كلامه مـــن الامثال : (٣)

كان فبان والرزايا قمـن بان تسوء من تراخى اجله
فهي كما ارسل حي مثلا مالك من شنجك الا عملـه .

وهو غني عن التعليق .

---

١) ابن الجراح : الورقـة ص ١٥
٢) الثعالبي : خاص الخاص ص ٢٥
٣) ابن الجراح : المصدر السابق ص ١٣٢
*) سورة ابراهيم ، آية (٣٧)

٢ ـ المحسنات اللفظيـة

لقد بدأ الاهتمام باللفظ وتحسينه منذ مدة لابأس بها قبل العصر الـذى نتناوله بل منذ العصر الجاهلي فما مدرسة زهير بن ابي سلمى الا اتجاه من تلك الاتجاهات التي تهتم بصقل القصائد وتجويدها اى تهتم بالالفاظ في اطار القصيدة العام ،لكن هذا الاهتمام لم يكن هدفا بحد ذاته وكثيرا ماكانت الصنعة بسيطة ،يأتي اغلبها عفو الخاطر . واذا تقدمنا قليلا في عصور الادب نجد ذلك الاهتمام يتزايد حتى يصبح في النهاية غاية خاصة توٴلف الاشعار لابرازها وحدها دون الاهتمام بمضمون تلك الاشعار .

ونجد في العصر العباسي الاول بعض معالم تلك الصنعة تبرز لدى شعراء كصريع الغواني ،مسلم بن الوليد ، وهو مثل واضح على بروزها ثم يتابع المسيرة بعده ابو تمام والبحترى ،حتى يتفاقم امرها في عهد الدول المتتابعة .

لكن الذى يهمنا من هذا كله هوان نبحث عن المحسنات اللفظية عند الشعراء الشعبيين وهل اهتموا بها مثلما فعل الشعراء الرسميون ام لا ؟ الحقيقة انه لابد ان يكونوا قد اهتموابها في اطار التأثير والتأثر بين الاتجاهين الرسمي والشعبي ولان كثيرا من الشعراء كانوايختلفون الى هذين الاتجاهين . لم تكن الصلة معدومة بينهم ابدا ويكفينا ان نتذكر ابا العتاهية الذى كان وسطا بين الاتجاهين فلا يجوز اطلاقا ان نحسبه على الاتجاه الرسمي كما لايجوز ان نحسبه على الاتجاه الشعبي وحده .

وفي هذا المجال فان هناك قصيدة فريدة من نوعها قيل هوٴلاء الاعلام جميعا وهي فريدة لانها غريبة فعلا على عصرها حيث نظمها شاعر مخضرم بين الدولتين الاموية والعباسية وهو ابن هرمة القرشي . وهي غريبة لانها تعتبر بحق بداية الصنعة الشكلية ، اذ عمد فيها ابن هرمة الى عدم اعجامها

كلها بحيث لايوجد فيها حرفمعجم الا تاء التأنيث وهي : (١)

ارسم سودة محل دارس الطلل	معطل رده الاحوال كالحلل
لما رأى اهلها سدوا مطالعها	رام الصدود وعاد الرد كالمهل
وعاد ودك داء لادواء له	ولو دعاك طوال الدهر للرحل
ماوصل سودة الا وصل صارمة	احلها الدهر دارا مأكل الوعل
وعاد امواهها سدما وطار لها	سهم دعا اهلها للصرم والعلل
صدوا وصد وساء المرء صدهم	وحام للورد ردها حوسة العلل
وحلوؤه رداها ماؤها عسل	ماماء رده لعمر الله كالعسل
دعا الحمام حماما سد مسمعه	لمادعاه رآه طابح الامل
طموح سارحة حوم ملمعة	ومرع السر سهل ماكد السهل
وحاولوا رد امر لامرد له	والصرح داء لاهل اللوعة الوصل
احلك الله اعلى كل مكرمة	والله اعطاك اعلى صالح العمل
سهل موارده سمح مواعده	مسود لكرام سادة حمل

وبين ان هذه القصيدة لم تأت عفو الخاطر لان معالم الصنعة فيها واضحة لاتحتاج الى دلالة عليها اذ لايعقل ان تأتي قصيدة بكاملها على هذا النحو عفوا .

ان هذه القصيدة التي قيلت في وقت مبكر بالنسبة لعصرنا العباسي تحاول ان تبين تلك الازدواجية التي كان يحياها الناس بين تراث مازال ماثلا وبين نزوع نحو المستقبل الذى يحمل في طياته بوادر التغيير . انها تعبر عن ان العرب بدأوا يخرجون من الاطار الضيق الذى كانت تحدهم به جزيرتهم بالرغم من فساحتها .

واذا سرنا قليلا في العصر العباسي نجد هذا التيار ،تيار التجديد، يتضح

---

١) الاصبهاني : الاغاني ج ٤ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ (مصورة عن دار الكتب) .

اكثر فأكثر ولا داعي لذكر تلك الامور التي اهتم بها علماء اللغة كثيرا والتي تدل على هذا التجديد في الشعر الرسمي خاصة غير ان هذه الامور لم تأت من عدم ولم تكن غريبة على الشعر العربي كل الغرابة ، فالتشبيه والجناس والطباق وماشابه ذلك كانت موجودة كلها من قبل في الشعر الجاهلي لكنها كانت تأتي عفو الخاطر كما قلنا . اما في العصر العباسي فقد حدث ان اهتم بها الشعراء اهتماما خاصا وليس ذلك لابراز مقدرتهم فقط بل هو امر فرضته المرحلة التي كانوا يمرون بها .

وقد يتساءل بعض الناس لم حدث ذلك في ذلك العصر بالذات ؟ ربما يرد على هذا السؤال بان ازدهار المجتمع وتنوع الثقافات هو السبب ، وهذا صحيح غير انه لايكفي لاننا نجد هذه الظاهرة تستفحل فيما بعد عندما ينحط ذلك المجتمع سياسيا واقتصاديا . ويبدو ان المجتمعات ، في عهد ركودها وانحطاطها تهتم بالشكل اكثر من المضمون وهذا ماحدث فعلا فيما يسمى بعصر الانحطاط . ومن هنا نعرف ذلك الولع بالبحث عن الالفاظ المبتكرة والصور المستحدثة والبراعات اللغوية .

ويمكن ان يكون ذلك الولع ناتجا عن تأثر العرب وشعراء ذلك العصر عموما بالزخرفة الفنية الموجودة في انماط الشعر الفارسي .

اما في العصر العباسي الاول خاصة فان الشعر اتضح مليا بعد ان كان متشبثا بالموروث القديم واصبح خالصا لعصره في الاغلب الاعم فبدأت مغامرة كبيرة هدفها البحث عن معان تلائم هذا العصر وبدأ السعي الحثيث وراء الصور الطريفة التي تدل على حضارتهم الزاهية ومفاهيمها المستجدة ، فقد صار العصر العباسي كما كان العصر الجاهلي من قبل عصر ابتكار في الاساليب الشعرية المختلفة .

. . . . . .

٣ـ الصور الشعبيـــــــــة

ان الشاعر الشعبي محكوم عليه ان ينتقي من الجماهير كل وسائل صنعتـــــه وهوليس في ذلك متصنعا اومتملقا بل كان يصدر عن روح الشعب لانه واحد من افـراده ولانه بغير ذلك لن يكون شاعرا . الشعبية في الفاظـه ومعانيه واخيلته وصـــوره هي قدره المحتوم . على ذلك الشاعر ان يقدم لنا الواقع كما يتفاعل بين النـــاس لامجردا من تلك العوامل التي يعاني الشاعر منها ايضـا ،وفنيـة الشاعـر الشعبي لاتتأتى له الا اذا كانت صوره الفنيـة تعبر عن الجماهير زيادة على نبوعها منهـــا في الوقت نفسه . ان حياة الجماهير تزخر بكثير من المشاكل والقضايا والمفارقـــات وكلها تصلح لان تكون صورا شعبية .

ان الصور التي تتردد في شعر اولئـك الشعراء الشعبيين هي التي لهـــا علاقـة مباشـرة بحياتهم اليوميـة فهذا جحظـة البرمكي يقول : (١)

لاتنكرني على حمـــار ... يضيع في مثله الشعير
وكيف لايمتطي حمـــارا ... من جل اخوانه حمير

ان هذه الصور تعبر عن الواقع المر الذى كان يعيشه الشعب ،فهذا الشاعـــر عيره بعضهم بركوب الحمار لانه لم يكن غنيـا حتى يملك حصانا او دابـة اكثر قيمـة من الحماراوفيها ايضا ثورة على واقعـه فهويرى ان اولئـك الناس لم يعودوا يعرفـون قيمـة الانسان لانهم صاروا يقيسون هذه القيمـة بمايملك .

ومن ذلك ايضا ان اعرابيـا اتى الى خياط بثوب يخيطه قميصا فقطعه الخيـاط فملاه الاعرابي بالهراوة وهو يقول : (٢)

---

١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٤ ص ٦٣٥
٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٦٣

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله ... فيما مضى من سالف الاحقاب
من فعل علج جئته يخيطلي ... ثوبا فخرقه كفعل مصاب
فعلمته بهراوة كانت معي ... ضربا فولى هاربا بالباب
ايشق ثوبي ثم يقعد آمنا ... كلا ومنزل سورة الاحزاب

ان هذا الاعرابي جاد عليه الزمن فاستطاع ان يحصل على قطعة من الثياب واراد ان يخيط بها ثوبا لكن الخياط خرقها وافسدها ، وامر كهذا جدير باغضاب الاعرابي لانه من النادر ان يحصل على مثل هذه الامور .
انها صورة الفقر تتكرر مرة اخرى . الفقر الذى يجعل لمثل هذه الاشياء قيمة خاصة في نفوس اصحابها .

وصورة الفقر هذه تتكرر باشكال مختلفة كاختلاف مظاهرها من ذلك ماقاله ابو فرعون الساسي واصفا احد البخلاء ، وللبخل علاقة وطيدة بالفقر : (١)

هذا زمان عارم من يبسه ... ترى اللئيم ينتقي من جنسه
يصبح من صبيانه وعرسه ... مستأثرا بخبزه ودبسه

لان سعادة الانسان كانت دائما في ان يجلب القوت لعياله فاذا خالف احد هم هذه القاعدة عد ذلك من اعظم الشائنات .

وكما رأينا من قبل صورة ذلك الخياط الذى افسد ثوب الشاعر فاننا سوف نجد ان الشعراء الشعبيين تناولوا الحرف في شعرهم لالتصاقها بالطبقات المحرومة لان الاغنياء كانوا يعدونها امرا مهينا ، وتناول الشعراء لهذه الصور يتخذ اشكالا مختلفة تدلل عليها بالحلاق وكيف ينظر اليه الشاعر الشعبي وذلك في قول عتبة الاعور لابراهيم بن سيابة الذى كان ابوه حجاما : (٢)

---

١) ابن الجراح : الورقة : ص ٥٧
٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٣

ابوك اوهى النجاد عاتقه　　كم من كمي ادمى ومن بطل
يأخذ من ماله ومن دمه　　لم يمس من ثأره على وجل
ذلت رقاب الملوك خاضعة　　من بين حاف له ومنتعل

ان الشاعر هنا يسخر من الحلاق لكنه دون ان يدري اشار الى ان الحلاق ملتصق بالناس وان مهنته شعبية بالدرجة الاولى .

ان حياة اولئك البسطاء تزخر بالمشاكل والامال والاعتقادات ولقد استطاع ابو نواس ، الشاعر الرسمي ، ان ينقل لنا صورة شعبية صادقة وذلك بقوله لاحد الناس هاجيا : (١)

ياغراب البين في الشؤم وميزاب الجنابه
ياكتابا بطلاق　　ياعزاء بمصابه
يامثالا من هموم　　ياتباريح كآبه
يارغيفا رده البقال يبسا وصلابه

انها حقا مجموعة من الامور التي تجلب الغم للانسان البسيط فغراب البين طائر اعتقد الناس انه مفرق الاحباء وهذا ناتج عن طيرة موروثة عن العصور السابقة وربما كان لشكل الغراب ولونه وصوته دور في هذا الاعتقاد ؛ وكذلك ميزاب الجنابة امر يتحسس منه الانسان البسيط الذي يكون الدين عنده عادة قويا ؛ وكذلك كتاب الطلاق الذي هو مصيبة عظيمة بالنسبة للمرأة البسيطة في ذلك العصر لانها تفقد بيتا ومعيلا ولان وجودها في بيت ابيها سوف يسبب لها المشاكل الكثيرة لكونها فردا غير منتج بل مستهلك فقط . والرغيف كان اكبر مصائبهم على الاطلاق في جميع حالاته .

---

١) مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر ص: ١٩١

وهذا يجرنا الى صورة اخرى ذات علاقة بما سبق وهي من صميم الحياة الشعبية واليومية لاولئك الناس ، فقد ذكر الاصمعي انه كان على بعض الاعراب دين ثقيل فتعلق به غرماؤه وكان معدما ، فساموه ان يحلف لهم بالطلاق الا يهرب ، فحلف لهم بطلاق امرأتين كانتا له ، ثم هرب وانشأ يقول : (١)

لو يعلم الغرماء ما مقتي لهم ... ما حلفوني بالطلاق العاجل

قد طلقتا وطلقت من وجهيهما ... عجفاء مرضعة واخرى حامل

ان هذا الشاعر مطارد من قبل غرمائه وحين لم يستطيعوا ان يأخذوا مالهم من عنده حلفوه بالطلاق فصادف ان كان هو ايضا يرغب في ذلك ، وبغض النظر عن السخرية الموجودة في هذه القصة التي ذكرها الاصمعي — كعادته — فان الجانب الثاني فيها هو الذي يهمنا وهو تكوين الاسرة في ذلك العصر وتركيبها مع وجود الغرماء ، ونحن نشم في هذا الشعر رائحة سياسية وان كانت مغطاة بصبغة اجتماعية واقتصادية وهذا ما يجعلنا نستشهد بقول شاعر اخر في وزير : (٢)

ومظهر نسك ما عليه ضميره ... يحب الهدايا بالرجال مكور

إخال به جبنا وبخلا وشيمة ... تخبر عنه انه لوزير

وهذا القول تعبير عن رأي الناس في الاوضاع السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت فهو يرى مع الناس ان حكام ذلك العصر جشعون مرتاشون ، يتلاعبون بارواح الناس زيادة على بخلهم الفاحش وجبنهم المشين . وفوق هذا كله كانوا يحاولون الظهور بمظهر النساك امام الناس لكن سيماهم على وجوههم فهم اينما ذهبوا تخبر عنهم انهم حكام .

---

١ — الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٤٨٥

٢) ابن طيفور : بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ٨٧ مطبعة مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة المعارف ببيروت طبعة اولى ١٩٦٨ م

وخلاصة القول ان الصور التي استعملها اولئك الشعراء الشعبيون في شعرهم كانت مستمدة من واقعهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وهي كثيرة جدا ولذا نكتفي بما ذكرنا .

. . . . . .
. . . .

٤ـ المبالغـــــــة

كانت المبالغـة مظهرا من المظاهر المستمرة في الشعر العربي على امتـداد عصوره لانها خاصـية من خصائص الشعر،وهي مقبولـة في الشعر وغير مقبولـة في سواه من الامور . ان المبالغـة وليدة الخيال والشعر يحتاج الى الخيال دائما ولـذا كانت المبالغـة مرتبطـة بالشعر،فهي اذاً نوع من الصنعـة فيه لاتأتي عفويـة الا نادرا لانها تحتاج الى إعمال للفكر الذى يغوص وراء المعاني ويجرى خلفهـا ليكشف عنها الغطاء اينما كانت . ان المبالغـة مرتبطـة ايضا بالصورة الشعريـة بل لانكاد نجد المبالغة الا مع الصورة الشعرية .

انها وسيلـة من الوسائل التي يلجأ اليها الشاعر ليؤثر في مستمعيه وليسترعي انتباه المتلقي ويشده اليه فيتذوقها اولا لمافيها من خروج على ما أُلف في حياته اليومية ويتأثر بها ثانيـا . قلنا ان دور الخيال في المبالغة واضح جدا لكنها يجب الاتصـل الى حد الاغراب الذى تندثر معه المعاني المطلوب ايصالها .

وقد لجأ شعراؤنا الشعبيون الى هذه الوسيلـة،والامثلـة على ذلك كثيـرة جدا نذكر منها ان احدهم تهكم على شخص فقير فرثاه برثاثـة الحال قائلا : (١)

يأتيك في جبة مخرقـــة	اطول اعمار مثلها يـوم
وطيلسـان كالآل يلبسـه	على قميص كأنه غيـــم

المبالغـة هنا واضحـة جدا وهي لايشترط فيها ان تكون مطابقـة للواقع والا لمـا سميت مبالغـة . انها صورة جذابـة فيها تشبيهات موفقـة تجعل الانسان المستمع يرقى الى عوالم يتعدم فيها المنطق ويزدهر فيها الخيال لان المهم فيها هـو

---

١) المبرد : الكامل في اللغة والادب،طبع مكتبة المعارف،بدون تاريخ،ج ٢ ص ١١٥

التأثير الفني الذى لايحتاج الى تحليلات منطقيـة وتبريرات علميـة لانها موجهـة بالدرجـة الاولى الى الذوق .

ويقول ابو الشمقمق في زيد بن عمارة ،صاحب بريد الاهواز ،والذى كان اعرج وكانت ساقه شديدة الاعوجاج : (١)

رجل زيد بن عمـاره　　مثل مفتاح مناره

ان هذا البيت يذكرنا بماقلناه سابقا من ان الشاعر الشعبي محكوم عليه ان يستلهم فنه من محيطـه اى من حياة الجماهير التي هوفرد منها ،ولذا فان المبالغـات التي يلجأ اليها هؤلاء الشعراء مهما بلغت من الغرابـة فانها ستبقى دائمـا مرتبطـة بالجماهير فزيد بن عمارة هذا الذى يشبه ابو الشمقمق ساقه بمفتـاح منارة لم يعد وضعه غريبا اذا ماعرفنا قيـمة المنارة بالنسبة للمسلمين فهي مرتبطـة اولا بهذا المكان المقدس الذى هو المسجد وهي ايضـا تمثل عظمـة المسجد مـن حيث بناؤه فهو عادة بناء كبير شاهق واعلى مافيه المنارة وهذه المنارة التي تبلغ ارتفاع هذا العلو كله لابد لها من مفتاح عظيـم والمفتاح عادة محدب ذو اسنان وهكـذا تبدو رجل زيد بن عماره للشاعر .

ويقول جحظـة البرمكي في احد البخلاء : (٢)

لاتعذلوني ان هجرت طعامه　　خوفا على نفسي من المأكول
فمتى اكلت قَتَلْتُه من بخلـه　　ومتى قَتَلْتُ قُتِلْتُ بالمقتـول

انها حقا مبالغة جميلـة وظريفـة ، وهذا النوع هو الذى اشتهر به الشعراء الشعبيون عموما لانه يحمل طابع النكتـة البسيطة التي تضحك لها الجماهير ولانها تحمل فـوق هذا كله محتوى ومضمونا قريبا من همومهم ومشاكلهم .

---

١) الجاحظ : البرصان والعميان والعرجان والحولان ص ٢٣١
تحقيق فوزى عطوى ـ دار صعب بيروت ١٩٦٨
٢) سعد شلبي : الشعر العباسي التيار الشعبي ص ٥٤

انها صورة البخل تتكرر باشكال عديدة اولنقل انها صورة الفقر وما قاربه من امـــور اوتنتج عنه . وانها فعلا لملاحظـة جديرة بالذكر ان الشعراء الشعبيين يبدعـــون كلما عالجوا القضايا الاقتصاديـة التي يعانون منها .

وبالمقارنـة بهذه المبالغة الجميلـة فاننا نلاحظ السخف الذى وقع فيـــه الشعراء الرسميون اوالشعراء عندما يتناولون موضوعا رسميا مثل قول الهنازى عندما مدح احد الخلفاء قائلا (١) :

ان السيوف اذا أنتضاها سخطه　　طالت وقصّرَ دونها الاعمار
ملك كأن الموت يتبع امـــره　　حتى يقال : تطيعه الاقدار

لااحد يستطيع ان ينكر البراعـة الفنيـة في هذا القول الا ان الذوق يمج مثل هـذه الامور لانها تعتمد على التحليلات المنطقيـة والعقليـة وهذا يفسد من فنيـة الشعر، وهنا تجدر الاشارة الى ان هناك فرقا بين المبالغـة والمغالاة اوالغلو فهذا القـول الاخير وضح فيه الغلو والاصطناع لان الشاعر لم يكن صادقا مع نفسه في قوله هـــذا . وبقي ان نقول ان هذا الكلام يذكرنا بقرقعـة ابن هاني الاندلسـي حين قال :

ماشئتَ لاماشاءتِ الاقدار　　فاحكم فانت الواحد القهار

والتأثر بالهنازى واضح في هذا القول .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٩٩

٥ - الصدق في التعبير

ان الواقعية في شعر اولئك الشعراء تتمثل في مجموعة من الامور منها وصفهم لما يحيط بهم من مشاكل وهموم وظواهر وغيرها ومنها ذلك الصدق الذى نلمسه في شعرهم حيث لا مكان فيه لنفاق او تدليس او تزلف . ولعلنا نذكر انهم حتى عندما اضطرتهم الحاجة الى التسول ومد الايدى ،وذلك بمدح الاغنياء ،لم ينحرفوا ابدا عن صدق مشاعرهم .

ويمكن ان ندرك صدقهم جليا من الامثلة التي سنذكرها فيما يلي في وصف احوالهم من حب وفراق ووصف للفقر ومدح وهجاء ورثاء الخ ....

يقول عبد الصمد بن المعذل في حبيب هجره : (١)

صرفت هواك فانصرفا ... ولم ترع الذى سلفا
وبنت فلم امت كلفا ... عليك ولم تمت اسفا
كلانا واجد في النا ... س ممن مله خلفا

لقد نالت عاطفة الحب عند شعراء العرب حظوة كبيرة سواء اكانوا شعبيين ام رسميين حتى غدا الحديث عنها يتبع تقاليد معينة ورثوها عصرا عن عصر.لكننا من النادر ان نجد شاعرا في مثل صراحة عبد الصمد الذى خالف ذلك العرف وذكر ماكان غيره من الشعراء يترددون في ذكره،وان الناس ، لكونهم سبب كل الادواء فهم ايضا الدواء لها .

واذا انتقلنا الى نقيض هذه العاطفة ،اى الى الكره فان شاعرا كمحمد بن ابي امية كان يمقت الرقاشي ويبغضه فصدف ان اجتمع الرجلان في مجلس واحد فقال محمد : (٢)

---

١) عبد الصمد بن المعذل : شعره ص ٥٤

٢) الجاحظ : البيان والتبيين جزء ١ ص ٤٠٤

شهدت الرقاشي في مجلس وكان الي بغيضا مقيتا
فقال : اقترح يا ابا جعفر فقلت : اقترحت عليك السكوتا

اذا انهم لايذرون شيئا في صدقهم لانهم اشتهروا بتلك الصراحة المعهودة فيهم حتى وان تجاوزوا احيانا حد اللياقة والادب . انهم يطبقون المثل القائل : قل الحق ولوكان مرا .

اما اذا انتقلنا الى لغز الالغاز ، الموت ،فاننا نجد شاعرا كابن يسير يرثي صديقه داود بمايلي : (١)

الليل والارض قد غشى وحللها ثوب الدجى فهو في الارض مسدود
وسد كل فروج الارض منطبقا وكل فرج به في الارض مسدود
وفي الوداع وفي الابداع لي عنت دون المسير وباب الدار موصود
من لي بداود في ذا الحال يرشدني من لي بداود ؟ لهفي اين داود ؟
لهفي على رجله الاقدامها قدام رجلي فتلقاها الجلاميد
اذ لازلت اذ اقبلت ينكبني حرف وجرف ودكان واخدود
فان تكن شوكة كانت تحل به اونكتة من سواد الليل اوعود

لااحد يستطيع ان ينكر العاطفة الجياشة التي ولدت هذه القصيدة ولااحد يستطيع ان يقول ان هذا الشاعر كان متصنعا لان الحرارة المنبعثة منها تنفي ذلك وتؤكد ان الشاعر كان يتألم لفقد صديقه داود .

فأي صراحة وأي صدق بعد هذا القول نريد ؟ ان ابن يسير يبكي داود بعد موته لانه كان في حياته رادا عنه المصائب وحامياله من عثرات الطريق، فالشاعر كان سكيرا يقضي في الخانات وقتا طويلا حتى يتأخر الليل فلم يكن يجد من يسنده اويدله الا داود هذا على ان يتقدم داود ليجنب ابن يسير الحفر والصخور

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٤ ص٢٩—٣٠ (مصورة عن دار الكتب)

وماشابه ذلك . نلاحظ ان الشاعر لم يخجل مماكان يفعل بصديقه فهو يرى في ذلك نوعا من ضريبة الصداقة وعلى هذا الاساس فان الخجل يكون حين يقوم المرء بعمل ما ثم يذكر عكسه ولهذا كان لابي المخفف ،عاذر بن شاكر ،دفتر يسجل فيه اسم كل من له عليه وظيفة ، وكان على الدفتر هذه الابيات : (١)

دفتر فيه اسامي كل قرم وهمام
وكريم يظهر البشر لنا عند السلام
يوجب النصف عليه حاتما في كل عام
اوفلوسا كل شهر لثلاثين تمام

وهذا الدفتر يعكس موقف الشاعر من الناس وموقفهم منه بدون حرج فهو يذكر علاقاته بهم بكل وضوح فان اكرموه مدحهم وان خذلوه هجاهم .

ويتجلى صدقهم هذا ايضا في انهم كانوا يصفون حياتهم كما هي بخيرها وبشرها ، ولم يكونوا يظهرون من حياتهم ذلك الجانب المشرق فقط ،بل انهم كانوا ايضا يذكرون في شعرهم حتى تلك الجوانب السيئة فيهم فمن ذلك قول احد الطفيليين : (٢)

كل يوم ادور في عرصة الحي اشم القتار شم الذئاب
فاذا مارأيت اثار عرس اوختان اومجمع الاصحاب
لم اروع دون التقحم لاار هب دفعا ولا لكزة البواب
مستهينا بما هجمت عليه غير مستأذن ولا هياب
فتراني الف بالرغم منهم كل ماقدموه لف العقاب
ذاك ادنى الي من التكلف والغر م وغيظ البقال والقصاب

---

١) ابن الجراح : الورقة ص ١٢٤
٢) الشريف المرتضى : امالي المرتضى ج ١ ص ٥٠١

ان هذا الشاعر يصف اقتحامه ابواب الناس دون خجل اومواراة لان الفقـــر دفع به الى ذلك ،والفقر ليس عيبا عنده .

كان الشاعر الشعبي يحس ان وضعه التعس لم يكن شيئا مختارا بل ان ظروفا معينـة هي التي فرضت عليه ذلك الوضع ولذا فانه لم يكن يتحرج من التعبير عنـــه بمختلف الوسائل فمن ذلك قول جحظـة البرمكي يصف فقره : (١)

الحمد لله ليس لي كاتـب	ولاعلى باب منزلي حاجب
ولا حمار اذا عزمت علـــى	ركوبه قيل : جحظـة راكب
ولا قميص يكون لي بـدلا	مخافـة من قميصي الذاهـب
واجرة البيت فهي مقرحة	اجفان عيني بالوابل الساكب
ان زارني صاحب عزمت على	بيع الكتاب لشبعة الصاحب

وبالرغم من فداحـة واقع جحظـة فاننا نلاحظ صدقه وصراحته في وصف حاله بيد ان بعض الناس كان ربما استحى لوشابه وضعه هذا الشاعر .

ان الشاعر الشعبي يتجلى صدقه ايضا في حبه للناس والخير ،ولذا نجـــده يركز كذلك على العلاقـات الانسانيـة الشريفـة كالقرابـة والمحبـة والصداقـــة وغيرها ويعرض بكل مايخالفها فيقوم بهجوم عنيف على كل من اساء الى هذه العلاقـات الحميمـة كالذى يتنكر للصداقـة مثلا ،فهذا محمد بن حازم الباهلي يقول فـــي شخص كان يظنه صديقه : (٢)

وصل الملوك الى التعالي	ووفا الملوك من المحال

---

١) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ٢٢١

٢) الاصفهاني : الاغاني جـ ١٤ ص ١٠٥ (مصورة عن دارالكتب)

مالي رأيتك لاتدو م على المودة للرجال
ان كان ذا ادب وظر ف قلت ذاك اخو ضلال

اوكان ذا نسك ودين قلت ذاك من الثقال
اوكان في وسط من الامرين قلت يريغ مالي
فبمثل ذا — ثكلتك امك — تبتغي رتب المعالي ؟

وكان هذا الصديق قد نال مرتبة عند السلطان فتغير وتنكر لمعارفه القديمة وجفا اصدقاءه ايام الشدة فماكان من ابن حازم الا ان يذكره ان الملوك لاتدوم على حال وان وفاءها محال . ان ابن حازم في هذه الابيات ،زيادة على اعطاء رأيه في هذا النوع المتقلب من الرجال ،فانه يبدي رأيه في السلطة المتمثلة في الملوك ورأيه هذا ناتج عن تجربة عاشها او سمع عنها بمر الاجيال السابقة . وهنا تجدر الاشارة الى ان الشعراء الشعبيين عمّوما كانوا يبدون اراءهم في مثل هذه الامور بكل صراحة وبشجاعة نادرة ،فاننا نجدهم باستمرار يتصدون للسلطان وينتقدونه دون خوف من قوته وجبروته وكل ذلك لانهم كانوا صادقين مع انفسهم اولا . اننا نجدهم في اغلب الاحيان يتخذون مواقف واضحة من السلطة فيتصدون لها بكل الوسائل لمحاربتها اولمقاطعتها ومن ذلك قول اسماعيل بن عمار عندما عرض عليه ان يعمل للسلطان : (١)

رأيت صبيحة النيروز امرا فظيعا عن إمارتهم نهاني
فررت من العمالة بعد يحيى وبعد النهشلي ابي ابان
وبعد الزورين ابي كثير وفيقد اشجع وابي بطان
فحاب بها اها عثمان غيرى فماشأن الامارة لي بشان
احاذر ان اقصر في خراجي الى النيروز اوفي المهرجان

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ١١ ص ٣٦٩ (مصورة عن دار الكتب)

ان ابن عمار هذا يرفض ان يعمل عند السلطان لان هؤلاء العمال محكـــوم عليهم اما بقهر الجماهير للحصول على الاموال ارضاء للسلطان اوالسجن في احسن الاحوال ان لم نقل القتل في اغلب الاحيان .

وبعد فان المجال لا يسمح بذكر كل الشواهد عن صدقهم ولذا نكتفـــــــي بماذكرنا حتى الان .

. . . . . .

هـ ـ بناء القصيدة

ان قصيدة الشعر العربي مرت بمراحل عديدة الى ان وصلت الى ماهي عليه الان ،وكان لابد لها ان تتطور حسب العصر الذى تجتازه . فكانت في العصر الجاهلي تمثل تجربة حياة كاملةتتكرر باستمرار في مناخ متشابه . كان الشاعر الجاهلي في اغلب الاحيان يصب كل همومه في قصيدته وكأنه يخشى ان تغيله الايام فجأة لان الطبيعة المحيطة به غيرمأمونة الجانب فهو معرض للهلاك في اى وقت اما بغارة اوبجدب وماشابه ذلك .

كان عادة يصف الاطلال في البداية وذلك ان القبائل كانت ترتحل من حين الى اخر بحثا عن العشب ويكون الانسان قد الفمكانا ماوكوّن فيه علاقات ما فيتعلق بذلك المكان فاذا ما ارتحل ترك ذلك في قلبه حزنا وكمدا . بما ان الشاعر كثير التطواف ، فكثيرا مايصادف ان يمر على مكان كان له فيه شان فيطغوحنينه ومن هنا جاء وصف الاطلال . ثم يصف الشاعر رحلته وراحلته معا بشيء من الاسهاب لان السفر في حياته جزء هام بل انه كان اغلب حياته مسافرا متنقلا . وكثرة السفر هذه تجعله يكون علاقة حميمة مع راحلته ،علاقة صداقة والفة تكونت مع الايام ثم يمدح اويهجو الخ . . . ان القصيدة الجاهليه لم تكن مفككة كمايظن البعض اوانها تتكون من اجزاء عديدة لايربطها رابط بل ان تلك القصيدة كل متكامل لان الشاعر صب فيها حياته كلها .

ان الذى يوحد تلك القصيدة ليس الموضوع الواحد بل ان حياة الشاعر هي التي توحدها وتعطيها قيمتها الفنية .

ولم تتغير الامور كثيرا في العصرالاموى مع نزوع طفيف الى التحرر من تلك الطريقة الموروثة عن العصر الجاهلي . اما في العصر العباسي الاول فتبعا لمجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع فان الامور اكتست طابعا جديدا شمل

جميع ماكان موجودا من قبل،ولم تنج القصيدة الشعرية من قدرها المحتوم،فكما رأينا من قبل التغير الذي حدث في الاوزان والقوافي والاغراض والموضوعات فان ذلك كان لابد ان ينعكس على البناء العام للقصيدة .

كان الانسان من قبل يعيش في اطار القبيلة الذي يضمن نوعا من الوحدة اما في العصر العباسي فان هذا الانسان وجد نفسه في مجتمع تغيرت هياكله كلها فصار وحيدا غريبا بين الناس . ان هذا التجزوء في الحياة فرض عليه ان يجزىء همومه وان يتصدى لها واحدا فواحدا .

ويجدر بنا قبل ان نعطي سمات القصيدة العباسية ان نستمع الى محمد بن حازم الباهلي وهويقول حين عاتبه يحيى بن اكثم على تقصيره الشعر: (١)

ابى لي ان اطيل الشعر قصدى ... الى المعنى وعلمي بالصواب
وايجازي بمختصر قريب ... حذفت به الفضول من الجواب
وابعثهن اربعا وستا ... مثقفة بالفاظ عذاب
وهن اذا وسمت بهن قوما ... كأطواق الحمائم في الرکاب
وهن ،وان اقمت ، مسافرات ... تهاداها الرواة مع الركاب

ان اول ظاهرة نلاحظها اذا هي قصر القصائد ولنسميها بالمقطوعات والسبب في ذلك ان الحياة لم تعد تسمح بتلك المطولات كما كانت الحال من قبل . ان وتيرة التطور اصبحت سريعة ولابد ان يواجهها نبض سريع في القصائد فنتج عن ذلك هذا النوع الذي سيناه المقطوعات التي تتكون من مجموعة قليلة من الابيات تدور كلها حول موضوع واحد فقط في اغلب الاحيان . ان الشاعر اصبح ينظر الى الامور نظرة تحليلية بعد ان كان ينظر اليها نظرة كلية . ولايخفى مافي هذه المقطوعات

---

١) القفطي : المحمدون من الشعراء ج ١ ص ٢٨٠ تصحيح محمد عبد الستار ،طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية — حيدراباد — الهند طبعة اولى ١٩٦٦

من دقة وايجاز لان الشاعر يحصر همه كله في موضوع واحد،ثم ان عقلية المستمع ايضا تغيرت فهو لم يعد يملك الوقت الكافي لينفقه في الاستماع الى الشعر وهذا مايذكرنا بالاراجيز التي كانت تقال اثناء الحروب في العصر الجاهلي اواثناء المبارزة فحين لم يكن المقام يسمح بتضييع الوقت فقد كان الشاعر المقاتل يرتجز بيتين اوثلاثة لاغير ثم يهجم على خصمه .

اذاً هذه هي اهم سمة في القصيدة العباسية الشعبية لان التيار الرسمي استمر على الطريقة القديمة بكل تفاصيلها .

واما ثاني الصفات فهي تبعا للاولى وحدة الموضوع المطروح في القصيدة الشعبية وهي صفة نجدها حتى في بعض القصائد الطوال مثل قصيدة بغلة ابي دلامة او عنزة ابي محمد القاسم بن يوسف اوهرته اوسراج ابي الشبل البرجمي ، وهي كلها قصائد طويلة تصل احيانا الى الخمسين بيتا .

واخيرا فان القصيدة الشعبية اصبحت تحمل دائما مشكلة حياتية يومية في اغلب الاحيان نظرا لما لتلك المشاكل من تأثير على نفسيات الشعراء .

على ان هناك سمة اخرى كنا قد اشرنا اليها من قبل الا وهي تلك الموضة التي ظهرت في العصر العباسي الاول ونعني بها محاربة الاساليب القديمة وخاصة الوقوف على الاطلال الذى هوعنصر هام في بناء القصيدة القديمة . وقد وجدنا هذه الظاهرة عند عدة شعراء من ذلك العصر ويبدو ان هذه الظاهرة قد صارت موضة وضربا من التظرف يحاول الشاعر ان يتفرد به بابتكار معين . لم نلمس في تلك المقطوعات والقصائد اية خلفية سياسية كمايظن البعض اى ان محاربة النمط العربي للقصيدة لم يكن في حد ذاته محاربة للعرب انفسهم وحطا من شأنهم، ولكننا لانني ان هذه الظاهرة ربماكانت في البداية مرتبطة بالظروف السياسية، ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على محاربة النمط العربي القديم للقصيدة وحده بل ان المحاربة كانت لمضمون تلك القصائد نفسها بدليل ان بعضهم حارب اسلوب

ابي نواس الذى جعل الخمرة مطلعا لقصائده ونقصد به ابا المخفف عاذر بن شاكر الذى وقف شعره كله على وصف الرغيف . (١) وهكذا نرى ان الشعراء اصبحوا في ذلك العصر يفتشون عن موضوع معين ثم يركزون عليه وكأنه نوع من التخصص كما فعل اسماعيل بن ابراهيم الحمدوني الذى وصف طيلسان ابن حرب بمقطوعات عديدة او ابوغلالة الذى نظم قصائد عديدة في حمار طياب . (٢)

ونلاحظ كذلك انّ هذا التطرف كان نتيجة صراع بين الشعرين الرسمي والشعبي ، فالرسمي ظل متمسكا بالطرق والاساليب القديمة بينما راح الشعر الشعبي يبتكر الموضوعات والاشكال تمشيا مع بيئته الجديدة . وكانت الموضوعات التي استبدلوا بها الاطلال كثيرة جدا منها ان منهم من وصف الدفتر او القرطاس اوالبهرة الخ . . . . كل هذا كان استعاضة عن وصف الاطلال بأشياء لها قيمة في حياتهم كما كان للاطلال قيمة في حياة الشعراء الجاهليين . وهذا امر طبعي لان الغريب هو ان لايفعلوا ذلك نظرا لاختلاف عصرهم عمن سبقهم .

---

١) انظر ص ٨٢ — ٨٣ من هذا البحث

٢) انظر ايضا ص ١٠٦ ومابعدها من هذا البحث .

الفصـل الثالـــــــث

مواقف شعراء الاتجـاه الشعبـــــــي :

١ــ الموقف الساخر (اللامبالـــي)

٢ــ الموقف الحيادى (الزاهـد)

٣ ــ الموقف المتمـرد (الثائـــر)

xxxxxxxx

xxxx

مواقف الاتجاه الشعبـــــي :

نقصد بالموقف ذلك السلوك العام الذى التزمه الشاعر في حياته والذى ينعكس بالضرورة على شعره ، وهذا الموقف يأتي طبعا نتيجة مكونات ذلك الشاعر مـــــع العلم ان كل شخص فريد من نوعه ضمن حدود معينة اذ يستحيل ان نجـــــد شخصين متشابهين في كل شيء الا ان هذا لاينفي وجود عموميات تجمع الشعـــر في جماعات معينة .

ومن هنا فاننا نقسم الشعراء الشعبيين في العصر العباسي الى ثلاثـــة اقسام اوثلاث زمر انطلاقا من شعرهم الذى وصل الينا .

ففي الزمرة الاولى الشعراء اللامبالون اوالذين يظهرون بهذه الصفة ، واللامبـــالاة تتخذ اشكالا عديدة منها السخرية التي يمكن ان نضع فيها مجموعة من الشعـــراء كأبي فرعون الساسي وابي الشمقمق وابي المنبغي وابي المخفف عاذر بن شاكـــر واسماعيل بن ابراهيم الحمدوني وغيرهم كثير .

وسوف نأخذ لهم مثالا ابا دلامـة .

اما الزمرة الثانيـة فهم الشعراء الثائرون المتمردون الذين لم يكتفـــوا بالكلام بل رفعوا السلاح في وجه مضطهديهم مثل دعبل الخزاعي وابي عطاء السندى وشعراء الشيعة كلهم وشعراء الخوارج كلهم .

والثورة لدى هؤلاء الشعراء اتخذت ايضا اشكالا عديدة انطلاقـا من المبـــادىء التي دفعت بهم الى سلوك هذا الامر ، فمنهم من انطلق من خلفيـة حزبيـة سياسية كدعبل مثلا ومنهم من كان الوضع الاجتماعي ككل دافعه الاول كأبي العطاء السندى الذى سوف نتخذه مثالا لهذه الزمرة .

اما الزمرة الثالثـة فهم شعراء الزهد الذين كانوا ينادون بسلوك معيـــن فطبقوه اولا على انفسهم حتى يكونوا مثالا لغيرهم من الناس الا ان الزهد قد اتخـــذ

هو الاخر شكلين ظاهرين : واحد ايجابي والثاني سلبي ،ويمكن ان نمثل للايجابي بعبد الله بن المبارك الذى كان يخرج الى الثغور غازيـا وكان يقوم بالتجارة ايضـا دون ان يؤثر ذلك على زهده . واما الزهد السلبي فاعلامه كثر منهم محمد بـن حازم الباهلي وابو العتاهيـة و غيرهما . وسوف نمثل لهذا النوع بمحمد بـن حازم الباهلي .

ولكن قبل ان نتعرض لهؤلاء الشعراء لابد من توضيح بعض الامور التي قد تثيـر اللبس حول هذه المواقف :

اولا : من الصعب علينا ان نجد شخصا يسلك السلوك نفسه منذ البدايـة حتى النهايـة وهذا يعني اننا لن نجد موقفا خالصا مئـة بالمئـة ،فمن صفة الانسان التغير حسب الظروف المحيطـة به وليس في هذا الامر اى عيب .

ثانيا : نحن لانقصد بالموقف نموذجا ادبيا معينا لان هناك فرقا في نظرنا بينهما ،فالموقف شيء متغير والنموذج شيء ثابت ،والموقف هو الذى يتماشى فـي نظرنا مع الادب لانه مظهر من مظاهر الحياة المتغيرة .

. . . . . .

١ــ الموقف الساخر: (اللامبالي) :

ــ ابو دلامة زند بن الجـــون ــ

ان الضحك من صفات الانسان المميزة وهو يأتي لاسباب عديدة وفي ظـــروف عديدة ، لكن هذا الضحك يكسب قيمة اضافية عندما يستغله شاعر ما ليجعل منه وسيلة يقتات بها ويعيل بها ذويه ، فيتخذ به موقفا متميزا عن غيره من الشعـــراء بحيث يصبح الضحك ، وبالتالي الاضحاك ، هادفا وليس عاديا كما هي الحال فـــي الظروف العادية .

ان ابا دلامة هو ذلك الانسان الذي استطاع ان يجعل من الضحك وسيلة يتكسب بها ، فمن هو هذا الرجل ؟ تجمع المصادر على ان اسمه زند بن الجـــون (بالنون) (١) ماعدا اليافعي الذي ذكر انه زيد (بالياء) (٢) ويبدو انه تصحيـــف وقع فيه الكاتب . اما كنيته ابو دلامة فلاخلاف حولها .

ولد ابو دلامة في اسرة فقيرة لاتحدثنا المصادر عنها الا انها تذكر كونهـــا تدين بالولاء لبني اسد فتختلف في اسم مولى هذه الاسرة ، فالخطيب وابن خلكان يسميانه قصاقص (٣) (بالقاف والصاد) بينما يسميه الاصفهاني فضافض (بالفاء والضاد) (٤) . وهو اختلاف طفيف وربما كان تصحيفا من احد الطرفين . واختلفوا ايضا في العصر

---

١) الاصفهاني : الاغاني ١٠ / ٢٣٥ (مصوره عن دار الكتب) وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠ ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ، وياقـــوت الحموي : معجم الادباء ١١ / ١٦٥ ، طبع دار المأمون .

٢) اليافعي : مرآة الجنان ١ / ٣٤١

٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢ / ٣٢٠

٤) الاصفهاني : الاغاني : ١٠ / ٢٣٥ (مصورة عن دار الكتب) .

الذى عاش فيه قصاقص اوقصاقص هذا ، فالاصفهاني يذكر ان هذا الرجل اسلم وكان من الصحابة وكان شاعرا فاعتق والد ابي دلامة . (١)

اما الخطيب البغدادى فيذكر ان هذا الرجل كان مولى ابي دلامة مباشرة وان اباد لامة كان عبدا فأعتقه ، وان الشاعر لم ينس هذا الجميل بدليل انه لحا التحق بالخليفة ابي جعفر المنصور كلمه فيه فاجابه وصيره من صحابته اى من صحابة ابي جعفر (٢) .

وتجمع المصادر انه كان اسود من اصل حبشي وانه كان اعرابيا ، التحق بالكوفة كعادة اعراب ذلك الوقت اذ كانوا يذهبون الى المدن الكبيرة اما مادحين لوجهائها واما لتسويق اغلالهم ومواشيهم وشراء ماينفعهم منها . وربمايكون الشاعر قد عاش فيها مدة طويلة او ولد بضواحيها لان الاصفهاني وياقوتا ينسبانه اليها (٣) .

وشاعركابي دلامة لابد ان يكتنف الغموض ولادته فزيادة على عادة المصادر القديمة التي لم تكن تهتم بولادة الشعراء فكونه اسود واعرابيا جعل المؤلفين لايهتمون به الابعد اشتهار امره . ان بخل المصادر بهذه المعلومات ليس خاصا بأبي دلامة فاغلب الشعراء لانعرف سنة ولادتهم ولهذا سبب وجيه وهو ان المؤرخين والمشتغلين بمثل هذه الامور لم يكونوايهتمون بأحد الا بعد نبوغه او بروز شأنه كأن يكون شاعرا وكاتبا اوقائدا اوماشابه ذلك ،ونجدهم في الغالب يذكرون سنة الوفاة فقط .

لكن من المؤكد ان ابا دلامة ولد في العصر الاموى ،فقد اتفق ياقوت والاصفهاني وابن خلكان على انه ادرك آخر ايام بني امية وانه لم يكن له شأن انذاك.(٤)

---

١) الاصفهاني الاغاني : جـ. ١/ص ٢٣٥ (مصورة عن دار الكتب)
٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٨/ص ٤٨٩
٣) الاصفهاني الاغاني : جـ ١٠/ص ٢٣٥ وياقوت : معجم الادباء ١١/ ١٦٥—١٦٦
٤) الاصفهاني الاغاني : جـ ١٠/ص ٢٣٥ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٣٢٠ وياقوت : معجم الادباء ١١/ ١٦٥—١٦٦

اما وفاته فقد كا ـ ـنة (١٦١ هـ) ايام الخليفة المهدى الا ان الخطيب البغدادى يذكر انه ربما ادرك خلافة الرشيد وان كان لايجزم بهذا الرأى (١) .

لقد عاصر ابو دلامة ثلاثة خلفاء عباسيين هم السفاح والمنصور والمهدى وكان من صحابتهم ،منقطعا اليهم وكانوا " يقدمونه ويفضلونه ويستطيبون ثواءه " . (٢)

وبعد هذه النبذة القصيرة فاننا سوف نحاول فيمايلي ان نعرف ماهي الاسباب التي دفعت ابا دلامة الى ان يصبح مضحكا للخلفاء . ان المصادر القديمة لاتشير ابدا الى ذلك فهي تكتفي بوصفه انه صاحب نادرة فقط ،بحيث لاتدلنا على اى عنصر اخر يمكن ان ننطلق منه ،ولهذا لم يبق امامنا الاشعره الذى نحاول ان نستشف منه شخصيته .

وهناك سؤال ملح يطرح نفسه علينا وهو : هل كان ابو دلامة ضاحكا ساخرا من كل شيء فعلا ام انه كان مضحكا فقط ؟ وبعبارة اخرى هل كان الضحك من سجاياه ام انه اتخذ هذه الطريقة وسيلة للكسب ؟ ليس في حياة ابي دلامة مايشير الى انه من النوع الاول ،فهو اسود حبشي واعرابي فقير لايملك شيئا ولانظن ان شخصا في ظروفه هذه يجد وقتا للضحك . وهكذا لم يبق امامنا الا الشق الثاني من السؤال الانف الذكر اى ان ابا دلامة اتخذ من الضحك وسيلة يتكسب بها . لقد نظر الرجل من حوله فوجد نفسه فقيرا وصاحب عيال لابد من تغذيتهم وتوفير القوت لهم ووجد ان الشعراء الاخرين قد سبقوه الى جميع الوسائل من مدح وهجاء وتكسب بمختلف الطرق .

فكر الرجل في حيلة يدخل بها الى قصر الخلافة اوبعبارة ادق يصل بها الى مال الاغنياء من ذوى السلطان ، فما وجد امامه الا هذا المنهج الذى حاول

---

١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٨/٤٨٨ — ٤٨٩

٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/٣٢٠

ان يوهمنا به وان يوهم نفسه ومعاصريه بانه منهج طبيعي . اراد ان يبدو امـــام الناس جميعا بانه يسخر من كل ماقي الحياة ،وراح يتمادى في هذا التظاهر بمختلـف الوسائل حتى انه كان احيانا يظهر بمظهر الابله ومن ذلك ايضا انه كان يتظاهـــر بالسخرية من تعاليم الدين فمن ذلك ان السفاح امره بلزوم مسجده الذى كـــان يصلي فيه ،فقال ابو دلامة : (١)

الم تعلموا ان الخليفة لزني ... بمسجده والقصر مالي وللقصـــر
اصلي به الاولى مع العصر آيسا ... فويلي من الاولى وويلي من العصر
ويحبسني عن مجلس استلـــذه ... اعلل نفسي بالسماع وبالخمـــر
ووالله مالي نية في صلاتـــه ... ولا البر والاحسان والخير من امري
وماضره والله يصلح امـــره ... لو ان ذنوب العالمين على ظهـري

ويقول مرة اخرى موجها كلامه الى المهدى : (٢)

ادعوك بالرحم التي جمعت لنا ... في القرب بين قريبنا والابعـــد
إلا سمعت وانت اكرم من مشـى ... من منشد يرجو جزاء المنشـــد
حل الصيام فصمته متعبـــدا ... ارجو ثواب الصائم المتعبـــد
وسجدت حتى جبهتي مشجوجة ... مما اكلف من نطاح المسجـــد

صحيح ان ابا دلامة كان يعرف مسبقا ان هؤلاء الخلفاء سوف يتغاضون عما يقـــول بدليل انه لم يصبه من قوله هذا اى مكروه اوضرر الا ان هذا لاينفي انه يتمـــادى

---

١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٦١ وجمع الجواهر للحصرى ١١٢—١١٣
ووفيات الاعيان ٢/٣٢٢ وتاريخ بغداد ٨/٤٩١

٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٨/١٨٣ — ١٨٤

في تمثيل دور اللامبالاة الذي اشرنا اليه من قبل . ويتضح من هذا الكلام ان ابا دلامة كان دائما يظهر عكس ما يريد حتى يمعن في الغرابة ، لكن هناك اشارة في المقطوعة الثانية لابد من التنبه اليها وهي ماجاء في البيت الاول (١)

ادعوك بالرحم التي جمعت لنا في القرب بين قريبنا والابعد

تقول الرواية ان الخليفة غضب لدى سماعه هذا البيت وسأله عن نوع القرابة هذا فما كان من ابي دلامة الا انه قال ان الذي يجمعنا هو ادم ابو البشرية . يبدو ان ابا دلامة كان صادقا في البيت ، فما الذي يفرق بين هذا الخليفة وهذا الشاعر؟ كلاهما انسان الا ان الظروف لعبت دورها فجعلت هذا خليفة وجعلت ذاك شاعرا مهرجا .

ان ابا دلامة ذكي والا لما استطاع ان يبقى في القصر وان يواجه خلفاءه بمثل ذلك الكلام ، ويتجلى هذا الذكاء من جهة اخرى في انه باستمرار يحرج مطلوبيه امام الناس بأمور لايمكن لهم ان يرفضوها فهو يقول للمهدي مرة : (٢)

اني حلفت لئن رأيتك سالما بقرى العراق وانت ذو وفر
لتصلين على الرسول محمد ولتملأن دراهما حجري

فقد ربط هنا بين الصلاة على الرسول (ص) وبين الدراهم التي يطلبها من الخليفة وهو يعرف ان الخليفة لايمكن ان يفرط في هذا الامر على مرأى من الناس ومسمع منهم وبالتالي سوف يضطر اذا صلى على الرسول ان يعطيه مايطلب .

وبعد هذا فان ابا دلامة رجل مداحة كغيره من الشعراء لكن بأسلوب جديد ذلك لانه لم يكن بعيدا عن عصره ، وإنى له ان يبتعد عنه وهو يعاني هذا

---

١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٨ / ١٨٣ — ١٨٤

٢) اليافعي : مرآة الجنان ١ / ٣٤١ — ٣٤٢ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٥

العصر وكل ماجد فيه ؟ ونحن نعرف ان اغراض الشعر تطورت في ذلك العصر في محتواها وفي شكلها ، وبما ان ابا دلامة كان مداحة مدفوعا من قبل فقره الى المدح ، فمن الضرورى ان تكون له في هذا المجال بعض الاجتهادات التي لايستطيع فيها ان يخرج على عصره . ان تطور الاغراض الشعرية لابد ان يكون قد سبقه تطور في مناحي الحياة المختلفة لان الفن كماصار واضحا يتأثر ايما تأثر بكل مايجرى في الحياة من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية الخ . . . . . ولذا فان المدح صيغ في هذا العصر بصبغة جديدة اولنقل ان المدح اتخذ مظهرا جديدا فزيادة على تلك الصفات التقليدية التي كان الشاعر ينعت بها الممدوح فان الشكل اختلف كثيرا لدى بعض شعراء الاتجاه الشعبي في العصر العباسي . لقد اصبح الشاعر يدخل مباشرة في الموضوع دون التطويل في المقدمات كماكانت الحال من قبل ، لكن الشيء الجديد حقا هوان الشعراء قد اصبحوا يركزون على وصف فقرهم اكثر من قبل بحيث اصبح المدح استجداء واضحا بعد ان كان مقنعا من قبل . اصبح الشاعر يلح في الطلب ويصف حاله وظروفه الاقتصادية السيئة الى الغاية فيذكر بؤسه وشقاءه ومن هنا كانت كثرة ذكرهم لعيالهم وذويهم ، فقد رأينا من قبل ماكان يفعله ابوفرعون الساسي او ابو الشمقمق اوغيرهما من الشعراء الفقراء فقد كانوا باستمرار يركزون على وضعهم المزري وكانت حالة عيالهم موجودة دائما في مدائحهم .

والشيء نفسه فعله ابودلامة الا انه اضاف عنصر الفكاهة وذلك محاولة منه للالتزام بالموقف الذى اتخذه في الحياة ومنها . وتتجلي هذه السخرية في الوصف الكاريكاتورى الذى يصف به اهله كقوله في والدته : (١)

---

١) الاصفهاني : الاغاني ١٠/٢٥٩ — (مصورة عن دار الكتب)

هاتيك والدتي عجوز همة ... مثل البلية درعها في المشجب
مهزولة اللحيين من يرها يقل ... ابصرت غولا اوخيال القطرب
كتبوا الي صحيفة مطبوعة ... جعلوا عليها طينة كالعقرب
فعلمت ان الشر عند فكاكها ... ففككتها عن مثل ريح الجورب
واذا شميه بالافاعي رقشت ... يوعدنني بتلمظ وتثؤب
يشكون ان الجوع اهلك بعضهم ... لزبا فهل لك في عيال لزب
لا يسألونك غير ظل سحابة ... تغشاهم من سيلك المتحلب *

انه يرسم لوحة محزنة لاولاده ويبين ان الجوع اهلكهم وانهم يرتجون من هذا الممدوح مايرد اليهم الحياة والا فسوف يموتون جوعا، ويصف زوجته مرة اخرى بالطريقة نفسها : (١)

ان الخليط اجد البين فانتجعوا ... وزودوك خبالا بئس ماصنعوا
والله يعلم ان كادت لبينهم ... يوم الفراق حصاة القلب تنصدع
عجبت من صبيتي يوما وامهم ... ام الدلامة لما هاجها الجزع
لابارك الله فيها من منيبهة ... هبت تلوم عيالي بعدما هجعوا
ونحن مشتبهو الالوان اوجهنا ... سود قباح وفي اسمائنا شنع
اذا تشكت الي الجوع قلت لها ... ماهاج جوعك الا الريّ والشبع
لا والذى ياامير المؤمنين قضى ... لك الخلافة في اسبابها الرفع
مازلت اخلصها كسبي فتأكله ... دوني ودون عيالي ثم تضطجع
شوهاء مشنأة في بطنها ثجل ... وفي المغاصل من اوصالها قذع

---

*) همة : عجوز فانية . اللحي : عظم الحنك . القطرب : ذكر الغيلان او الصغير من الجن .

٢) الاصفهاني : الاغاني ١٠/٢٣٧ (مصورة عن دار الكتب) وجمع الجواهر للحصرى ص ١٠٠—١٠١ وطبقات ابن المعتز ص ٦٢
ثجل : عظم البطن وارتخاؤه ـ القذع : الاعوجاج .

ذكرتها بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخرنطمت ثم قالت وهي معفية اانت تتلو كتاب الله يالكعُ ؟
اخرج لتبغ لنا مالا ومزرعة كما لجيراننا مال ومزدرع
واخدع خليفتنا عنها بمسألة ان الخليفة للسُّوَّال ينخدع

نلاحظ ان الشاعر يستغل هذه الطريقة الجديدة في المدح ليحصل على مايريد وليس في هذا اى كذب اونفاق لان الشاعر ليس مطالبا بان ينقل الواقع كما هو ،وان فعل فليس بشاعر بل هو مصور لاغير . ووراء هذا القناع الساخر كان الشاعر يخفي حياة مريرة ونفسا كئيبة تحولت من كثرة كآبتها الى التهريج تبعا للمثل القائل : " شر البلية مايضحك" . وعلى الرغم من هذا الحاجز الكبير الذى وضعه الشاعر امام نفسه فانها كانت احيانا تخرج عن صمتها وتفلت من الطوق المحيط بها فترسل اشارات تبدو عادية في سياق القصيدة لكنها تعني الشيء الكثير .

وهناك اشارات كثيرة نجدها في بعض القصائد منها ماجاء في القصيدة السابقة حين قال :

ونحن مشتبهو الالوان اوجهنا سود قباح وفي اسمائنا شنع

انه هنا يشير الى قضية اللون فقد كان الشاعر اسود حبشيا كما قلنا ،ومثل هذه الاشارات نجدها لدى الشعراء الذين اتخذوا السخرية سبيلا مع اختلاف في العقدة التي يعانون منها فبعضهم يشير الى الموالاة وبعضهم يشير الى انه اعرابي وهكذا .

ولقد كانت نظرة العرب قديما الى السود نظرة احتقار وانتقاص ،فالاسود في نظرهم مواطن من الدرجة الثانية وماعلينا هنا الا ان نذكر المتنبي وقوله في العبيد .(١)

---

١ ـ اشارة الى قصيدته في كافور الاخشيدى : عيد باية حال عدت ياعيد .....
ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر : عبده بدوى :الشعراء السود .

من الاشارات الاخرى التي استطاع ابو دلامة من خلالها ان يخبرنا بموقفه الحقيقي مما يدور حوله قوله في حكم العباسيين الذى اشرنا اليه من قبل حين تصدى للبس السواد الذى فرضه الخلفاء على الرعية . وهذا منه موقف سياسي واضح يدل على انه اكتشف زيف الدعوة العباسية وخداعها وانهم كسابقيهم طلاب سلطة لاغير .

ونستنتج من هذا ان ابا دلامة كان يظهر عكس مايبطن ، فهو اذاً يتبع مبدأ التقية الذى ساد في ذلك الوقت لاسباب سياسية . وكان هذا الموقف ينطبق على جميع الاحداث والامور التي عاشها لانه كان مضطرا ومدفوعا الى ان يطرق ابواب الخلفاء وهو غير راض على طريقة حكمهم . لكنه قبل ذلك انسان يتفاعل بما يدور حوله ويتأثر به وهنا تجدر الاشارة الى موقفه من القضاة الذين يمثلون جانبا من الحكم العباسي في ذلك العصر حيث كان الخليفة ونوابه هم الذين يعينون القضاة . لقد بينا من قبل ان القضاء تطور كثيرا في العصر العباسي بحيث اصبح للقاضي سلطات اكثر من ذى قبل وبالمقابل لم يعد بعضهم يحكم حسب الشريعة الحنيفة بل صاروا يتبعون في كثير من احكامهم شيئا من الهوى بحيث يؤثر ذلك في اغلب الاحيان على المستضعفين الذين لاحول لهم ولاقوة .

كان القضاء في ذلك الوقت رمزا من رموز السلطة العباسية وهيمنتها على جميع الامور فماكان من ابي دلامة الا ان ينتقد السلطة نفسها في هذا الجانب الحساس ، ولم يستطع ان يفعل ذلك مباشرة كما فعل غيره من الشعراء فلجأ الى طريقته وهي السخرية والتصوير الكاريكاتورى ليدل على فساد القضاء في ذلك العصر حين يلجأ الى ايحاءات ذكية بحيث يكشف ذلك الفساد دون ان يعرض نفسه لمكروه اوضرر ومن ذلك موقفه من القاضي ابي ليلى . (١)

---

١) الاصفهاني : الاغاني ١٠ / ٢٣٨ مصورة عن دار الكتب والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٨ / ٤٨٠ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٢ ومابعدها واليافعي : مرآة الجنان ١ / ٢٩٠

ان من يتخذ مثل هذا الموقف من الشعراء يكون في الاغلب مسالما وهذه ظاهرة عامة نجدها لدى اغلب شعراء هذه الزمرة . وهذه الملاحظة تسوقنا الى ان نحكم عليهم بالسلبية وبعدم الثقة في انفسهم . ان الخوف احد اسباب هذا الموقف ولانعني الجبن لان نقدهم لبعض الظواهر حتى وان كان ذلك في اطار من السخرية يدل على انهم ليسوا جبناء ، وهذا يعني ان الخوف لم يكن متأصلا فيهم بل نتج لاسباب اخرى، فهم كما نعلم اصحاب عيال وفقراء اى ان ارتباطهم اقتصاديا بالاغنياء وبالتالي بالسلطة ، جعلهم يخافون من فقدان مصدر الرزق الوحيد الذى وجدوه، مع العلم ان فرص العمل كما ذكرنا من قبل لم تكن متوفرة . ولهذا كله اكتفى اولئك الشعراء من زمرة ابي دلامة بالاشارة الى الوضع الاجتماعي السائد وغير العادل نتيجة الظلم والقهر والحرمان الذى تلقوه من ذلك المجتمع لكن دون ان يرفعوا السلاح لانهم لم يجدوا الاطار الذى يستطيعون ان يثوروا من خلاله لان اية ثورة لابد ان تتوفر لها ظروف كالسخط الاجتماعي العارم مثلا زيادة على وجود قيادات تستطيع ان تصل بتلك الجماهير الى غاياتها . لم تسنح لهم الفرصة حتى يجتمعوا ولم تقيض لهم الظروف رجلا اورجالا يجمعونهم تحت لواء واحد ويوحدون كلماتهم ، وبالتالي يقودونهم الى الثورة بالسلاح على تلك الاوضاع . ان غيرهم قد سنحت له تلك الظروف فثاروا كالاعراب في مناطق عديدة وكالمصريين في الخوف وكالزط وثورة الزنج وماشابه ذلك .

يتضح مماسبق ان من طبيعة من يتخذ هذا الموقف اللامبالي الساخر ان يكون مسالما وبالتالي ان يأنف من الحرب والقتال ، فهذا ابو دلامة يشير صراحة الى ذلك في صيغة ساخرة، فهو لم يثر ابدا في وجه واقعه ، ولاننس ان هذا الموقف ربما نتج ايضا عن تلك الفكرة السائدة في ذلك الوقت والتي كان يعتقد بها قطاع كبير من الناس وهي ان هذا الواقع مقدر عليهم وان مايحدث لهم هو من مشيئة الله ، مع العلم ان السلطة كانت تروج مثل هذه الامور حتى تستتب لها الاوضاع .

لقد كان ابو دلامة يكره الحرب كما ذكرت بعض المصادر ليس جبنا ولكنه كان

يرى انها لن تعود عليه وعلى امثاله بالفائدة لان الحرب التي شارك فيها لم يكن موءمنا بها وهي حرب الخلافة ضد الخارجين عليها من شيعة اوخوارج ،وهذا موقف حيادي منه،ويمكن ان نستغل امتناعه عن القتال هذا لنشير الى انه ربما كان في قرارة نفسه يناصر اولئك الخارجين على السلطان الذين وجدوا الشجاعة الكافية لاعلان الثورة صراحة عكس مافعل اذ بقيت ثورته جيشانا في صدره فقط .

ان ابا دلامة يرى بعد هذا ان الحرب ليست حلا للمشاكل لانها مهلكة للنفوس لاغير ،فها هو ذا مرة يرفض المبارزة التي فرضت عليه بأسلوب ساخر كعادته وذلك بقوله : (١)

اني اعوذ بروح ان يقدمني ... الى القتال فيخزى بي بنو اسد
ان المهلب حب الموت اورثكم ... ولم ارث قط حب الموت من احد
ان الدنو الى الاعداء اعلمه ... مما يفرق بين الروح والجسد

وهذا الموقف عموما يتسم بالسلبية لانه في النهاية بقي متفرجا على مايجرى من امورفي ذلك المجتمع الهائج . كان اصحاب هذا الموقف يوهمون انفسهم بانهم سيتغلبون على معاناتهم بالتجائهم الى هذه الطريقة التي تجعلهم لايشعرون بما حولهم ولكنهم لم يستطيعوا لان مشاكل المجتمع لحقتهم وارقتهم وجعلتهم يشيرون اليها بالرغم من انفسهم التي لم ترد ذلك .

. . . . . .

---

١) الاصفهاني : الاغاني ١٠/٢٤٤ (مصورة عن دار الكتب) وياقوت : معجم الادباء ١١/١٦٧-١٦٨ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/٣٢٣ واليافعي : مرآة الجنان ١/٣٤٣

٢ ـ الموقف الحيادى (الزاهد) : محمد بن حازم الباهلي :

والان ننتقل الى الموقف الثاني الذى اتخذه مجموعة من شعراء ذلك العصر وهوموقف كان في الاغلب الاعم موقفا سلبيا متفرجا على مايدور من احداث . لقد كان الزهد عبارة عن انسلاخ عن المجتمع حيث كان الزاهد يحاول دون جدوى ان يخرج من هذه الدنيا وهومازال فيها ،ولهذه الظاهرة كثيرة هي نفسها التي اوجدت النوع الاول اوالموقف الاسبالي .

ويمكن ان نعد الزهد نقيضا للموقف الاول ،كلاهماهروب من الواقع الا ان الاول ، اى الاسبالي ، كان هروبا الى الامام وهذا كان هروبا الى الخلف . ان الزاهد يجسد ظاهرة الخضوع وقابليتها ايما تجسيد : الخضوع لمايحدث له في هذه الدنيا دون مقاومة ولاحتى محاولة للخروج من الورطة التي وجد نفسه فيها .

ان الزهد ظاهرة نتجت في البداية ردا للاحداث السياسية التي شهدتها المنطقة اعقاب مقتل الخليفة عثمان بن عفان لكن هذه الظاهرة تطورت في العهدين الاموى والعباسي بحيث اصبحت ذات مدلول اجتماعي اضافة الى بعدها السياسي . (١)

وسوف نحاول ان نكشف هذه الامور في موقف محمد بن حازم الباهلي بن عمرو المكنى ابا جعفر والذى سكن بغداد وكان مولده ومنشوءه بالبصرة . (٢)

لانعرف شيئا عن حياته سوى انه كان زاهدا وكان قليل المدح للناس ولم يمدح من الخلفاء الا المأمون . (٣) لانعرف متى ولد ولامتى توفي الا انه عاش عمره كله في العصر العباسي الاول على مايبدو .

---

١) : انظر: حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ / ص ١٤٩ ومابعدها

٢) الاصفهاني : الاغاني ١٤/ ٩٢ والقفطي : المحمدون من الشعراء ١/ ٢٧٩ تحقيق محمد عبد الستار ط اولى ـ مط مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الهند ١٩٦٦ وتاريخ بغداد ٢/ ٢٩٥ والورقة ص ١١٧

٣) الاصفهاني : الاغاني ١٤/ ٩٢وتاريخ بغداد ٢/ ٢٩٥

ولكي نعرف اتجاهه الى الزهد لابد ان نضع بالحسبان حالة البصرة في ذلك الوقت والتي ولد بها الشاعر وترعرع فيها . فقد كانت البصرة في ذلك الوقت تمثل خليطا من الاجناس تتصارع فيه المصالح والمذاهب والاهواء وتتمثل فيه جميع الطبقات التي عرفها ذلك العصر من اغنياء وفقراء ومايلحق ذلك من المعبرين عن هذه الطبقات اوتلك . (١)

ومجتمع كمجتمع البصرة لابد ان يخلق مختلف الانماط والانواع والاشكال التي يفرزها مثل تلك المجتمعات . ولعل محمد بن حازم كان من اسرة فقيرة لان الزهد ارتبط في اغلب الاحيان بالطبقات الفقيرة التي لم تستطع ان تجد لنفسها موضعا في خضم المضاربات الاقتصادية فما كان منها الا ان تعلن انهزامها امام ذلك المد المادى الذى اجتاح الدولة الاسلامية في ذلك الوقت كنتيجة للتطور الذى عرفه ذلك العصر .

ان الظروف الاقتصادية والسياسية اضافة الى التيارات الفكرية والدينية هي من اهم الاسباب التي ولدت ظاهرة الزهد التي هي تعبير سلبي عن السخط العام ، ونحن نستثني من السلبية هذه اولئك الشواذ الذين لم يكتفوا بالزهد على الطريقة المعهودة ، اى بطريقة النزوع عن كل شيء ، بل كانوا يجمعون بين الزهد وبين طلب الحياة وذلك بالمشاركة الايجابية في حياة المجتمع كعبد الله ابن المبارك الذى ذكرناه سابقا . (٢)

ان لشعراء الزهد السلبي جميعا صفات مشتركة ومتشابهة ، فهم بالدرجة الاولى مبتعدون عن المجتمع وكأنهم يقفون من احداثه ومايجرى فيه موقف المهزوم المنسحب من المعركة. ولذا اكتفوا بنقده بطريقة تخفرة تتجلى في الحكم التي اشتهروا بها .

---

١) انظر : احمد كال زكي : الحياة الادبية في البصرة .

٢) انظر شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٤٠٣

ان الحكمة هي عنوان الزهد في ذلك العصر بحيث لايوجد شاعر زاهد الا وكان يحاول ان ينقل الينا تجاربه واحاسيسه في اطار من الحكمة رصين ، فمحمد ابن حازم هذا كغيره من الزهاد اشتهر بحكمه المتعددة التي تتناول القناعة والحرص والطمع والشرف وكرامة النفس والحلم وذم الدنيا والناس والفقر والعقل والجهل والصداقة وماشابه ذلك من قضايا وامور .

اننا نستطيع ان نصل الى نفسية هؤلاء الشعراء من خلال الموضوعات التي تناولوها في حكمهم ، وسوف يتضح لنا ذلك في شعر محمد بن حازم الباهلي فهو يقول مثلا في القناعة : (١)

جعلت مطية الامال يأسا ... فأواني الى كنف وسيع
فتلك مطية الآمال غفل ... بلارجل يشد ولانسوع
لعمرك للقليل أصُوبُ وجهي ... به في الاوحدين وفي الجميع
أحَبُّ الي من طلبي كثيرا ... تمد اليه اعناق الخضوع
فعشربالقوت يوما بعد يوم ... كعض الطفل فيقات الضروع
ولاترغب الى احد بحرص ... رفيع في الانام ولا وضيع

ويقول في القناعة مرة اخرى : (٢)

اللهُ احمد شاكرا ... فبلاؤه حسن جميل
اصبحت مستورا معافى ... ما بين انعمه اجول
خلو من الاحزان خف ... الظهر يقنعني القليل
لم يسقني طمع ولا ... حرص ولا امل طويل
سيان عندى ذو الغنى ... المتلاف والرجل البخيل

---

١) الشابشتي : الديارات : ص ١٨٢ تحقيق كوركيس عواد . مط المعارف بغداد ١٩٥١
٢) المصدر نفسه ص ١٨٢

ونفيت بالناس المنى عني فطاب لي العقيل
والناس كلهم لمن خفت مؤونته خليل

ان هذا الشاعر ، دون ان يريد ، يساعد الظروف التي انشأته على ان تبقى لاننا لوحللنا شعره هذا لوجدنا القناعة في الحقيقة دعوة الى الركود والى الرضى بكل ما يجرى للانسان ، ولكن تجدر الاشارة هنا الى ان هؤلاء الزهاد كانوا فعلا شديدي التدين وهذا بالطبع ينفي عنهم التهمة التي توجه اليهم من الوهلة الاولى اى انهم دون وعي منهم ، دعاة للحكم القائم الذى كان هو الاخر يروج للقناعة ويشجع انتشارها بين الناس . كان هدف هؤلاء الشعراء مخالفا لاهداف السلطات القائمة لكن موقفهم هذا كان من الناحية العملية يساعد السلطة وذلك بتشجيع تلك الاوضاع على البقاء على ماهي عليه . وبالطبع فان موقفهم هذا كان مناقضا لحالتهم لكن دون ان يدركوا ذلك كما اشرنا سابقا .

ان هذا الموقف المرتكز على الدين ، يشل هؤلاء الشعراء الزهاد بالدرجة الاولى ثم يشل باقي الناس المتأثرين بهم . انهم ساخطون على وضعهم لكنهم لم يجدوا حلا الا في سلوك هذا السبيل اى في الابتعاد عن هذا الوضع قدر الامكان ولو ان عملهم هذا لم يغير شيئا في النهاية لانهم لم يستطيعوا ابدا ان يبتعدوا عن هذا الوضع او ان يفلتوا من قبضته .

ان سلوكهم هذا احتجاج الكرامة الانسانية التي طحنتها كلاكل الظروف الاجتماعية المتداخلة ، ولذا راحوا يوجهون ذلك الموقف المزرى بهذا السلوك السلبي .

ان القناعة هي بكل بساطة اعتراف بذلك الوضع وتقبل له ولو على مضض . لقد حدث لهؤلاء الشعراء ماحدث لغيرهم من النوع الاول اى اللامبالين الذين لم يجدوا مخرجا الا في السخرية من ذلك الوضع والقفز فوقه . ان السلبية هي صفة هذين الموقفين وهي في النهاية لن تغير شيئا لان التغير لن يكون الا بالحركة .

لكن الخطر في هذه القضية يأتي من كون هؤلاء الشعراء الزهاد متدينين وبذلك يؤثرون في الجماهير من ناحيتين :

اولا من ناحيـة كونهم شعراء والشاعر كما نعرفكان له في ذلك العصر صـدى كبير في نفوس الناس ، وثانيـا من حيث كونهم متدينيـن لان الجماهير تحترم الديـن ورجاله احتراما كبيـرا وتتأثر بهم ايما تأثر . والذى يشفع لهؤلاء الشعراء ان دعوتهم لم تكن مبيتة هذا الغرض بل كانوا يفعلون ذلك عن حسن نيـة .

ان القناعة التي يدعو اليها هؤلاء الشعراء تدعو في بعض جوانبها الى اليـأس من وجود مجتمع احسـن مما هو كائـن ، فهذا محمد بن حازم الباهلي يقول فـي هذا المجال : (١)

من اعمل اليأس كان اليأس جاعله ... معظما ابدا في اعين الناس
اليأس خيـر ومالناس من ثـر ... هات امرأً ذل بعد اليأس للناس

من هنا تأتي اشارة الخطر لان هؤلاء الشعراء كان لهم نفوذ كبير على الناس زيـادة على اهميـة دور الشعر في ذلك العصر وتوجيهه للجماهير .

والناس عادة يقيسون الامور بعضها ببعض فحين يرون هؤلاء الشعراء يذمون الجرى وراء الدنيـا فان هذا الذم عندهم سوف ينتقل الى مختلف مناحي الحيـاة بحيث تصبح هذه الدعوة دافعة للناس الى الركود في جميع انشطتهم والـى السكـوت عن الظلم والقهر والرضى بالحرمان والفقر .

ان دعوة هؤلاء الشعراء كانت تدفع الى الخمول وتقلل بطريقـة غير مباشـرة من اهميـة العمل ، هذا العمل الذى يعطي الانسان قيمته الاجتماعيـة .
لقد اتخذت هذه الدعوة اشكالا متعددة وصيغا كثيرة فهم مثلا يحبذون الصبـر ويمدحونه ويعللون من قيمته وشأنه ، وصحيح ان للصبر فوائد كثيرة لكن ليس في جميـع المجالات .

---

(١) الشابشتي : الديارات ص ١٨٢

ان كلام محمد بن حازم يدعوعمليا الى الكسل حتى وان كان الشاعر لايقصد ذلك اذ ماذا تفهم اوماذا يفهم الانسان البسيط في ذلك العصر والذى كان يتأثر بالشعر ويحترم اقوال الشعراء ويطبقها احيانا وخاصة اذاكانوا زهادا ، ماذا يفهم من بيت كهذا : (١)

وفي اليأس من ذل المطامع راحة وفي الناس من لاتحب بذيل

والشطر الاول هوالذى يهمنافي هذا البيت ،لان الانسان كان دائما يسعى الى تلبية حاجاته المتعددة من ملبس ومأكل ومسكن وماشابه ذلك . وان هذه الامور لم يكن يحصل عليها بسهولة اوتنزل عليه هبة من السماء بلكان لابد من شقائه وتعبه حتى يجلبها لنفسه وهذه الحاجات تكوّن في مجموعها طموح الانسان في الحصول عليها وكلام الباهلي يرفض هذا السعي ويدعو الى الصبر والقناعة وبعبارة اخرى يدعو الى الكسل والخمول .

ان خطورة شعرهم تكمن في انه صادق فعلا وفي انه مرتكز على تجارب واقعية فعلا عاشها الناس ويعايشونها باستمرار ،اذ من مايعترض على الصبر ومن مايعترض على القناعة ؟ ان كلامهم صحيح من عدة نواح لكن كان من المفروض ان يدعم بالحث على العمل والتحرك والمواصلة لا ان يجعل الناس وكأنهم متفرجون على مايحدث لهم . هذه النظرة عندهم ربما كانت من رواسب المذاهب والتيارات الفكرية والفلسفية السابقة مثل الرواقية والابيقورية وغيرها .

واذا بحثنا عن الاسباب المعنوية التي دفعتهم الى هذا المسلك زيادة على الاسباب الاجتماعية التي ذكرناها فسوف نجد ان الجانب العاطفي عندهم كان له دور كبير في هذه الظاهرة . ان هؤلاء الشعراء معتزون جدا بانفسهم وبعبارة اخرى

---

(١) : الشابشتي : الديارات ص ١٨٠

كانت الكرامة النفسية عندهم فوق كل شيء وهم لايرضون ابدا ان تذل نفوسهم لاحد ما اولا مرا . انهم حساسون الى درجة ان ابسط الامور التي تجرى ضمن حياتهم تؤثر فيهم تأثيرا كبيرا .

ان هؤلاء الشعراء وجدوا انفسهم في مجتمع معقد العلاقات متشابك المصالح ، ظروفه الاقتصادية صعبة الوطء عليهم وظروفه السياسية قاهرة لهم وكان عليهم اما ان يواجهوا هذا المجتمع بمختلف الاساليب الموجودة فيه او ان يندحروا امامه فاختاروا الطريق الثاني وبذلك ضمنوا لانفسهم كرامتها وصانوها عن كل مايمكن ان يلحقها من اذى في الطريق الاول .

ولمحمد بن حازم تجارب من هذا النوع ،فقد سأل مرة صديقه سعيد بن مسعود القطربلي حاجة فرده عنها فأثر ذلك في نفس الشاعر تأثيرا شديدا فانقطع عن هذا الصديق لكن ذلك الرجل رجع وبعث الى الشاعر بالف درهم يترضاه بها الا انه رفضها وقال : (١)

متسع الصدر رحيب لها	يضيق عنه الحول القلب
راجع بالعتبى فعاتبته	وربما اعتبك المذنب
اجل وفي الدهر على انه	موكل بالبين ،مستعتب
سقيا ورعيا لزمان مضى	مني وسهم الشامت الاخيب
قد جاء منك موئل فلم	اعرض له والحر لايكذب
ابيت ان اشرب عند الرضا	والسخط الا مشربا يعذب
اعزني اليأس واغنى ،فما	ارجوسوى الله ولا ارهب
قارون عندى في الغنى معدم	وهمتي مافوقها مذهب
فأى هاتيك تراني بها	اصبو الى مالك اوارغب ؟

---

١) الاصفهاني : الاغاني ١٤/٩٣ والديارات : ص ١٨٢

هذه القصيدة تبين مدى احساس محمد بن حازم فهو لا يرضى ان تهان نفسه حتى وان جاءه ذلك من صديق له .

ان الانسان الحساس لا يستطيع ان يحيا حياة عادية بين الناس لان اختلاطه بالناس سوف يسبب له حتما مشاكل عديدة ولان شعوره سوف يتأثر لاول معارضة من المحيط ولذا نتج عن هذا الاحساس المرهف انطواء على النفس حاد جدا . وهذه صفة نجدها لدى اغلب شعراء الزهد ، فهم يتزهدون من الدنيا وكل من فيها وينعزلون بعيدا عن الناس في جميع الاور . انهم بعبارة اخرى قطاع من الناس مشلول لا يقدم للمجتمع اى فائدة ، بل عكس ذلك نجدهم يؤثرون في المجتمع تأثيرا سلبيا لانهم يودون ان يقلدهم الناس في تصرفاتهم هذه .

ان رد الفعل الحاد من الاوضاع السائدة التي قهرتهم جعلهم ينطوون على انفسهم وينفرون من الناس الذين لا ينهجون نهجهم ، ولذا كثر ذم الدنيا والناس في اشعارهم ، فهاهو ذا محمد بن حازم يقول في ذم الناس: (١)

وقالوا قد مدحت فتى كريما	فقلت : وكيف لي بفتى كريم؟
بلوت الناس مذ خمسين عاما	وحسبك بالمجرب من عليم
فما احد يعد ليوم خير	ولا احد يعود على حميم
ويعجبني الفتى واظن خيرا	فاكشف منه عن رجل لئيم

ولقد كان ابو العتاهية يعبر بالكلام نفسه في صيغة اخرى وكذلك معظم شعراء الزهد . انها صفة النفور البشر وبعبارة اخرى انه الانطواء الناتج عن خوفهم من مواجهة الواقع بكل مشاكله .

لكن القضية عند بعضهم لا تقف عند هذا الحد بل تتعداه الى كراهية

---

١) الشابشتي : الديارات : ص ١٧٨—١٧٩

الناس جميعا ، وربما كانت هذه الكراهية ناتجة عن انهم رأوا ان الناس استطاعوا ان يفعلوا ماكان هؤلاء الزهاد يتمنون في قرارة انفسهم ان يفعلوه اي انه حسد على شجاعة اولئك الذين استطاعوا ان يواجهوا الواقع ويقفوا امامه متحدين جبروته .

ان محمد بن حازم من هذا النوع الاخير الذي جعله موقفه السلبي يكره الناس، فقد طلب منه الحسن بن سهل مرة ان يكف عن هجاء الناس فقال : (١)

وهبت القوم للحسن بن سهل ... فعوضني الجزيل من الثواب
وقال : دع الهجاء وقل جميلا ... فان القصد اقرب للصواب
فقلت له : برئت اليك منهم ... فليتهم بمنقطع التراب
ولولا نعمة الحسن بن سهل ... علي لسمتهم سوم العذاب
اكيدهم مكايدة الاعادي ... واختلهم مخاتلة الذئاب
وما مسخوا كلابا غير اني ... رأيت القوم اشباه الكلاب

ان الشاعر لم يستطع هنا ان يتحكم في زمام نفسه الباطنية ولم تستطع اصباغ الحكمة ان تخفي مشاعره الحقيقية . انها كلمات انسان عاجز لم يجد من وسيلة يقلل من شأن تلك الجماهير الشجاعة الا بوصفها بأحقر الصفات .

وبعد هذا فان هؤلاء الشعراء كانوا يقللون ايضا من قيمة الدنيا ويرون انها فتنة يستحسن بالانسان ان يبتعد عنها وعن كل مغرياتها . وربما كان هؤلاء الشعراء صادقين فيما يقولون لان قوة الايمان عندهم قد تجعلهم ينفرون من متع الحياة ويرون فيها منقصة لدينهم الا انه يجب الا ننسى ان الحياة في مفهوم الدين الاسلامي نعمة من عند الله لابد للانسان ان ينعم بها وكأنه يعيش ابدا دون ان يقصر في واجباته الدينية .

---

١) الشابشتي : الديارات ص ١٧٩

لكن هؤلاء الشعراء يرون الدنيا فتنة في جميع حالاتها فهذا ابن حازم يقول : (١)

الا انما الدنيا على المرء فتنة　　على كل حال اقبلت ام تولت

ان عجزهم هوالذى جعلهم يصلون الى هذه النتيجة .

ومما لاشك فيه ان هؤلاء الزهاد كانوافقراء محرومين ، دفع بهم فقرهم الى اتخاذ هذا السبيل في الحياة بعد ان اكتشفوا ان جميع الطرق التي جربوها لم تنفعهم شيئا . لم يستطيعوا التكيف مع تلك الاوضاع ولم يالفوا ذلك المجتمع ولم يتأقلموا معه . ولنستمع الى شاعرنا وهو يقول : (٢)

رزقت عقلا ولم ارزق مروءته　　ومالمروءة الاكثرة المال

اذا اردت مساماة تقاعد بي　　عما ينوه باسمي رقة الحال

كانوافقراء اذا ولكنهم لم يدركواتمام الادراك ان المجتمع الذى نفروا منه هو السبب الرئيس في حالهم تلك . تنبهوا طبعا الى هذا الامر فراحوا يشيرون الى ذلك في شيء من الغموض وتجلى ذلك في ذم المال .

ومن هنايمكن ان نعرف لماذا اشتهر الزهاد بالبخل ، فما بخلهم هذا الا نتيجة لمجمل ظروفهم ، فقد اعلنوا انهزامهم كما اشرنا من قبل وتجلى هذا الانهزام في الابتعاد عن الناس وفي الهروب من متع الحياة ومنها المال طبعا .
ونتيجة لذلك كله بقوا مكتوفي الايدى امام تلك الاوضاع ، يرضون بالقليل اليسير . ولذا راحوا كلماجاء هم مال بطريقة ما ، يحافظون عليه اشد المحافظة لانهم يعرفون اولا صعوبة الحصول عليه وثانيا ضرورته لعيشهم .

---

١) النويرى : نهاية الارب في فنون الادب : ج ٣ ص ٨٨ (مصورة عن دار الكتب)
٢) الشابشتي : الديارات : ص ١٨٢

ان مجمل هذه الظروف قد جعلت نفوسهم تضطرب وتتعقد ونستنتج ذلك من كثرة التناقض في تصرفاتهم واقوالهم ، فقد رأينا محمد بن حازم وهويدعو الى الصبر والقناعة لكنه يقول مرة اخرى (١) :

اخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته ومدمن القرع للابواب ان يلجا

ففي الشطر الثاني يناقض كل ماقال من قبل لانه هنايدعو الى المواصلة والاستمرار وبعبارة اخرى يدعو الى الحث على العمل وان من يواصل دون ملل ولاكلل سوف يصل الى مايريد .

ان هذا التناقض انتشر الى جميع الموضوعات التي طرقها الشاعر ، وقد تنبه ابن المعتز لهذه القضية وان عمها على مجموعة من الشعراء ، فقد قال فيمايخص شاعرنا : " كان محمد الباهلي من الحف الناس اذا سأل والحهم اذا استماح مع كثرة ذكره للقناعة بشعره ، وهو احد جماعة كانوايصفون انفسهم بضد ماهم عليه حتى اشتهروا بذلك . . . . وابن حازم يصف نفسه بالقناعة والنزاهة وكان احرص من كلب . . . " (٢)

لاندرى اكان وراء كلام ابن المعتز هذا امر شخصي ام لا ؟
الا انه قد اصاب الموضوع فعلا ، فهؤلاء الناس كانوايظهرون عكس مايبطنون ولنتذكر ابا العتاهية الذى اشتهر ببخله على كثرة ذمه للحرص ومدحه للكرم . ويشار هنا الى انه قد مات وترك مبلغا كبيرا من المال .

ان هؤلاء الشعراء جربوا جميع الوسائل ، كما قلنا ، للتلاؤم مع مجتمعهم ولتوفير القوت لاولادهم ان كان لهم اولاد ، فقد هجوا ومدحوا وتقلبوا في امور كثيرة وحين لم يجدهم ذلك شيئا انعطفوا على انفسهم وتقوقعوا وراء الزهد وراحوا يبثون حقدهم على المجتمع في تلك الحكم التي نالت اعجاب الناس .

---

١ — ٢) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

ومحمد بن حازم كان يمدح هو الاخر فقد مدح المأمون بقوله : (١)

واذا الكريم اتيته بخديعة	فرأيته فيما يروم يسارع
فاعلم بانك لم تخادع جاهلا	ان الكريم بفعله يتخادع

وكأني به اراد ان يقول ان هؤلاء الاغنياء الذين يغدقون الاموال على المادحين يتظاهرون بالكرم حتى ينالوا ثناء الشعراء .

ويقول فيه مرة اخرى : (٢)

انت سماء ويدي ارضها	والارض قد تأمل غيث السما

وهوهنا ايضا يشير الى الفكرة السابقة اي ان الكرم عند هؤلاء الناس لم يكن سجية بل كانوا يفعلون ذلك ليحصلوا على ثناء الناس لان العطاء لم يكن ابدا بالمجان عندهم .

وليس في هذه المدح ،عدا ذلك ، اى جديد فهويكرر الافكار والصفات المتداولة بين جمهور المادحين كالكرم ووصف الكريم بالغيث الخ . . .

وكان ايضا كثير الهجاء للناس (٣) فقد مر به مرة احمد بن سعيد بن سالم وهوجالس على بابه فلم يسلم عليه سلاما مقبولا فكتب اليه رقعة وبعثها خلفه وجاء فيها : (٤)

وباهلي من بني وائل	افاد مالا بعد افلاس
قطب في وجهي خوف القرى	تقطيب ضرغام لدى الباس
واظهر التيه فتايهته	تيه امرئ لم يشق بالناس
اعرته اعراض مستكبر	في موكب مر بكناس

١-٢) الشابشتي : الديارات ص ١٨٣

٣ ــ الاصفهاني : الاغاني جـ ١٤ ص ٩٢ (مصورة عن دار الكتب)

٤) ــ المصدر نفسه جـ ١٤ ص ٩٣

ثم أن هذا الشاعر كان يشرب الخمر على مايبدو قبل ان يتحول الى الزهد ويصاحب الندمان وماشابه ذلك ،حين قال : (١)

ابعد خمسين اصبو ... والشيب للجهل حرب ؟
سن وشيب وجهل ... امر لعمرك صعب
يابن الامام فهلا ... ايام عودى رطب
وشيب رأسي قليل ... ومنهل الحب عذب
واذ سهامي صياب ... ونصل سيفي عضب
واذ شفاء الغواني ... مني حديث وقرب
فالان لما رأى بي العذال ماقد احبوا
وآنس الرشد مني ... قوم ،اعاب واصبو ؟
اليت اشرب كأسا ماجن للـه ركب

لم نورد هذه الامثلة من مدح وهجاء وغزل ولهو الا لنبين ان هذا الشاعر جرب كغيره من الشعراء امورا كثيرة قبل ان يتخذ الزهد مذهبا بعد ان رأى/تلك الامور لن تجديه فتيلا. ويمكن ان نقول ان شعراء الزهد فعلوا مثله فهم لم يتخذوا الزهد مذهبا مذ ولدوا لان الزهد يأتي كرد فعل لاوضاع لابد ان يعاني منها الانسان اولا حتى يتحول هذا التحول .

لكن هذا لايعني ان كلمن يعاني تلك الاوضاع يتحول الى زاهد كهؤلاء الشعراء بل تدخل هنا خصوصيات كل شاعر منهم ونفسيته المتميزة . وهذا ناتج عن تلك الفروق الفردية بين الناس بحيث تجعل بعضهم يتأثر وبعضهم الاخر لايتأثر مطلقا . ان وقع احداث ذلك المحيط الخارجي — وما اكثرها تنوعا — تختلف من فرد الى اخر وربما اختلف ذلك في الشخص الواحد بين حين واخر فهذا ابونواس يقال انه كان فقيها ثم تحول الى ماجن مشهور .

---

١) الشابشتي : الديارات ص ١٧٩ — ١٨٠

وفي النهايـة نكرر اننا لانعمم كل ماقلناه على جميـع شعراء الزهد بحيـث نجعلهم جميعا على شاكلـة محمد بن حازم الباهلـي بل هناك استثناءات لابـد من الاشارة اليها لكنها لاتؤثر في التيار العام لهذا المذهب ولهذا الموقـف من الشعراء .

. . . . . .

. . . .

٣ـ الموقف المتمرد (الثائر) : ابوعطاء السندى

وبقي الموقف الاخير للشعراء الشعبيين في العصر العباسي وهو موقف تلك المجموعة من الشعراء التي تمردت فعلا وقولا على الاوضاع السائدة ، لان تلك الاوضاع هي التي دفعتها الى هذا السلوك ، ان التمرد حصيلة تناقضات يعيشها الانسان ويرى بعدها ان الحل هوالا يكتفي بالنقد العادى كما فعل الشعراء الاخرون بل يحمل سلاحي القول والفعل ليحقق اهدافا يصبو اليها وهي اقرارالعدالة بين الناس في جميع المجالات لان القول ، وان كان احيانا ايجابيا كتوعية الناس وتبصير الجماهير بأمورها وحقوقها ،لن يغير شيئا كبيرا في قضية الكادحين .

ان الشاعر ،وهو انسان ،قد يتحول من موقف الى اخر ومن صف الى اخر ولكن لابد من وجود هزة عنيفة في حياته حتى يتم ذلك التغير ولابد ان يكون شعراء هذا الموقف عانوا من مثل تلك الهزات فأبو عطاء السندى والذى يمثل هؤلاء قد شهد الانقلاب العباسي وانتقال السلطة من بني امية الى بني العباس وكان هذا بمثابة الانقلاب في حياته وفكره وسلوكه مع العلم انه كان من قبل من شعراء بني امية فقد مدحهم وكان من منصبي الهوى اليهم (١) . وشاركهم في حربهم ضد بني العباس حتى ان غلامه الذى تكفن به قتل مع ابن هبيرة . (٢)

لانريد ان نتطرق للاسباب التي جعلته يحارب في صفوف بني اميه لكن المهم ان الشاعر حضر شخصيا ذلك الانقلاب وقد كان شجاعا وربما كان السبب المباشر

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٢٩ تحقيق علي محمد البجاوى ،طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ،القاهرة ١٩٧٠

٢) المصدر نفسه ج ١٧ ص ٣٣٠

في ذلك هوخوفه من الفقر والافلاس فقد قال في هذا المعنى : (١)

اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه	شكا الفقر اولام الصديق فأكثرا
وصار على الادنين كلا واوشكت	صلات ذوى القربى له ان تنكرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى	تعش ذا يسار اوتموت فتعذرا
ولاترض من عيش بدون ولاتنم	وكيف ينام الليل من كان معسرا

في هذه الابيات جواب على الاسباب التي جعلته يشارك في تلك الحرب.

ولكن بعد انتصار العباسيين كان من المباركين كغيره من الشعراء وكان يأمل خيرا من هذا العهد الجديد فراح يمدح الحكام الجدد الا انهم نبذوه و حاول عدة مرات وعاود الكرة ولكن بدون جدوى (٢) .

من هنا انطلق ابوعطاء واظهر كل سخطه على الحكام الجدد فقد قال : (٣)

بني هاشم عودوا الى نخلاتكم	فقد قام سعر التمر صاعا بدرهم
فان قلتم رهط النبي وقومه	فان النصارى رهط عيسى بن مريم

ان الشاعر هنا بدأ بموضوعين حساسين للغاية وهوان العهد الجديد لم يحقق ماكان منتظرا منه فقد قام العباسيون بدعاية كبيرة قبل انتصارهم وراحوا ينتقدون الوضع السائد ايام بني امية وخاصة الظروف الاقتصادية المتردية التي كان يعاني منها الانسان . وهذا من اهم الاسباب التي تركت الناس يدخلون في حزب العباسيين ويحاربون الى جانبهم املا في تحسن تلك الاوضاع بعد ان يتولى العباسيون الحكم ،لكن الخيبة كانت كبيرة جدا ويكفي البيت الاول الذى قاله ابو عطاء ليعطينا فكرة عن تلك الخيبة . فقد ارتفعت الاسعار عوض ان تنخفض وهذا في حد ذاته مصيبة كبيرة لاولئك الفقراء والمستضعفين الذين ماشاركوا في

---

١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٢٦ (طبع الهيئة المصرية ١٩٧٠)
٢) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٣٢—٣٣٣
٣) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٤٣٩

الحرب الا لكي يحصلوا على ماكانوا يطالبون به وهو الرخاء العام .

و يتناول بعد ذلك اهم عنصر في الدعاية العباسية بالنقد ويقوضه وهو قرابتهم من الرسول (ص)، ونفهم من كلامه ان الرجل كان مقتنعا بان القرابة لاتنفع في شيء بل الاعمال هي التي تقرر قيمة هذا الفرد اوذاك . وقد كانت الحرب الدعائية قائمة بعد انتصار العباسيين بينهم وبين عمومتهم حول هذه القضية بالذات قضية القرابة من الرسول والتي تخول لهم حق استلام السلطة دون غيرهم .

ونجد ابا عطاء يشارك في كل امر لينقد الحكام الجدد ، فعندما فرض العباسيون لبس السواد على الناس قال في ذلك : (١)

كسيت ولم اكفر من الله نعمة سوادا الى لوني ودنا ملهوجا
وبايعت كرها بيعة بعد بيعة مبهرجة ان كان امر مبهرجا

وهو هنا يثير قضية الاكراه في البيعة التي كان يفرضها العباسيون على الناس .

ان السبب الرئيس الذى ثار من اجله هذا الشاعر هوانعدام العدل في فترة حكم بني العباس وخاصة بعد تلك الدعاية الضخمة التي قام بها دعاة بني العباس بين الناس من ان الرضا من آل محمد الذى يجب ان يحكم هوالذى سيملاء الارض عدلا كما ملئت جورا وهذا ماذكرناه سابقا . الا ان الواقع كذب هذه الدعاية فقد كشف الناس هذه اللعبة في وقت مبكر من العهد العباسي واكتشفوا انهم كسابقيهم يطلبون السلطة فقط لينعموا بالخيرات التي تصبح ملك من يتولاها . وهكذا ضاع الامر مرة اخرى على يد سلطة شارك الشعب في ارسائها

---

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٣٥ (طبعة الهيئة المصرية ١٩٧٠)
الدن : القلنسوة المحدودة الاطراف ، الملهوج : غير المحكم .

لكنها تنكرت له ولم تف بوعودها وفي هذا يقول ابوعطاء : (١)

اليس الله يعلم ان قلبي ... يحب بني امية ما استطاعا
ومابي ان يكونوا اهل عدل ... ولكني رأيت الامر ضاعا

وهنا تجدر الاشارة الى ان الجماهير التي شاركت في تلك الحرب والتي انتصرت على بني امية كانت تنتظر من الحكام الجدد ان يمنحوها العدل والمساواة والرخاء تعويضا على مالحقها في الايام السابقة من قهر وظلم وحرمان،لكن هيهات، لم يكن بنوالعباس الابني امية جددا ولذا فلاغرابة ان نجد بعض الناس يندبون العهد السابق كما فعل ابو العطاء وغيره من الشعراء مع ما اشتهر به ذلك العهد من بطش وجبروت .لكن الذى يشفع لهم هذا التفكير الغريب ان السلطة التي كانت تثقل كواهلهم من قبل لم يشاركوا في وضعها في ذلك المكان اما السلطة الجديدة فقد وجهت اليهم الطعنة مرتين لانهم هم سبب وجودها ، ولان السلطة السابقة لم تكن تخدعهم بل كانت تواجههم صراحة وتستغلهم صراحة ومن هنا نفهم جيدا قول ابي عطاء السندى : (٢)

فليت جور بني مروان دام لنا ... وليت عدل بني العباس في النار

ان ثورته على بني العباس لم تكن فقط لانه يحب بني امية ،وهم اعداء بني امية ، بل لان الشاعر كان قبل كل شيء من الفئة المستضعفة فهو مولى وهذا يعني انه كان يشعر بالقهر منذ البداية وخاصة في عصر بني امية الذين كانوا فعلا لايعطون الموالي ان منصب هام وزاد الطين بلة ان العباسيين لم يفوا بوعودهم فماكان من هذا الشاعر الا ان يثور لانه لم يجد حلا احسن من الثورة على تلك الاوضاع .

---

١ — ٢) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٣٣ (طبعة الهيئة المصرية ١٩٧٠)

وهنا تجدر الاشارة الى اننا ذكرنا من قبل ان الشعر الشعبي عموما كان مهملا ولم يرد منه في المصادر الا القليل لكن الاهمال الكامل لحق هذا الجانب الثورى المتمرد منه لانه يمس السلطة الحاكمة انذاك مباشرة .
ولولا الحصار الذى ضربته السلطة على الشعر المتمرد لتبين لنا بوضوح موقف الناس من العباسيين .

ان شعراء الموقف المتمرد كانوا شجعانا لان من يتجرأ على نقد الحكام في ذلك الوقت كان مهددا بالموت الحتمي ، فعلى الرغم من علمهم بهذه الحقيقة فانهم لم يسكتوا ، وتتمثل هذه الشجاعة ايضا في صبرهم في الحروب واحتقارهم لمن يفر منها كما فعل رجل من بني مرة كان يحارب السودة مع ابي عطاء واسمه ابو زيد وكان قد عقر فرسه فطلب من الشاعر ان يعطيه فرسه ليقاتل به لكن هذا الرجل مضى على وجهه هاربا فقال ابو عطاء في ذلك : (١)

لعمرى انني وابا يزيد ... لكالساعي الى لمع السراب
رأيت مخيلة فطمعت فيها ... وفي الطمع المذلة للرقاب
فما اعياك من طلب ورزق ... وما اغناك عن سرق الدواب

واخيرا فان هذا الجزء من الشعر الشعبي قليل جدا للاسباب التي ذكرنا وحسبنا منه هذه اللمع المتناثرة التي تدل على ان الشعراء استطاعوا ان يتكلموا بالرغم من القمع والجبروت .

وطبعي ان تلجأ السلطة في ذلك العصر الى محاربة هذا النوع من الشعر وحصاره حتى لا يؤثر في الجماهير ويؤلبها عليها .

---

١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٣٥-١٣٦
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — طبع دار السعادة — بدون تاريخ .

وفي ختام هذا الفصل نقول ان تلك الظروف التي تحدثنا عنها في الباب الاول كان لها وقع ، مهما كان نوعه ، على مواقف الشعراء هذه ان مواقفهم هي نتيجة انصهار تلك الاوضاع مع نفسيات الشعراء اوتكيف هذه النفسيات مع تلك الاحداث ، وهذا من ذاك .

٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭٭

٭٭٭٭٭٭٭٭٭

٭٭٭٭٭

٭

الخاتمـــــــة

ان بحثنا هذا يهدف في مجمله الى نفي تهمة كانت ومازالت توجه الى شعرنا العربي القديم على انه شعر مناسبات وبلاطات وان حضور الشعب فيه كان غائبا . ولهذه التهمة اساس صحيح ذلك ان الشعر المعروف والمتداول بين الناس كان اغلبه من نوع المناسبات ، ولكننا نعرف ان هذه التهمة باطلة لان شعرنا القديم لم يكن كله من هذا الطراز بل كان شعرا يتناول جميع هموم الانسان وكانت تنعكس فيه جميع القضايا المطروحة على فكر العربي القديم ووجدانه .

ان هذه التهمة لم تكن وليدة عقلية منافية للمبادىء العربية ومجمل حضارتهم فحسب بل الادهى ان نجد العرب انفسهم يوجهونها الى شعرهم القديم والدليل على ذلك ان بعض طلبة الجامعات واساتذتها يؤكدون هذه التهمة باستمرار . ولقد ساعدت المناهج التعليمية في الاقطار العربية على انتشار هذه التهمة لان الشبان يتعلمون في مدارسها ذلك الشعر الذي سميناه شعر البلاطات من مدح وهجاء وفخر وما الى ذلك . وهذا كله على حساب جانب اخر من ذلك الشعر وهو الشعر الشعبي .

ليست هذه التهمة جديدة علينا اذ نجدها حتى في اقدم عصورنا حيث كانت النخبة المثقفة آنذاك والتابعة للعقلية السائدة في ذلك العصر تضرب حصارا كبيرا على الشعر الشعبي ، فقد كان مؤرخو الادب يترفعون عن ذكره ظنا منهم بانه ليس في مستوى النقل والتدوين وهذا ما ادى الى قلة نصوصه التي وصلت الينا وتخطت كل الحواجز .

ونحن لا نلوم القدامى بقدر ما نلوم المحدثين لان الاولين كانوا مشدودين بتلك العقلية السلفية التي اشرنا اليها سابقا ولا يمكن ان نطلب منهم اكثر مما قدموا . اما في عصرنا فان الامور قد تطورت والعقول قد تفتحت وتنورت واصبح لفكرة الشعب مكانة هامة في تفكير هذا العصر وجب معها ان يهتم الباحثون بكل انتاجه الفكري .

ويمكن ان نعمم هذه الفكرة على مجالات اخرى غير الادب كالتاريخ مثلا ، فقد دون هو الاخر على طريقة الشعر اذ كان المؤرخون ينتقون مناسبات واحداثا معينة ليبرزوها اكثر من

غيرها فكان ان اصبح ذلك التاريخ تاريخ مناسبات واشخاص وحوادث مجردة من كل معايشتها . واللوم هنا يوجه الى المؤرخين المحدثين كذلك لانهم تشبعوا بالمناهج العلمية الحديثة ولانهم ساعدت الاكتشافات الحديثة على تزويدهم بمعطيات لم تكن متوفرة لدى القدامى الامر الذى يفرض على هؤلاء المؤرخين ان يؤرخوا للمجتمعات وليس للاشخاص ، وان يمللوا الحوادث تلك الحوادث والاحداث والا يكتفوا بنقلها عارية من كل محتوى اجتماعى او سياسي اواقتصادى .

والحقيقة ان هناك بعض الدراسات حاولت ان تخرج عن تلك الطريقة القديمة لكنها غير كافية لانها تاتى مبتورة وسط خضم من تلك المناهج القديمة ولذا وجب ان تعاد كتابة تاريخنا العربى كله على ضوء المناهج الجديدة حتى تأخذ كل تلك الامور التي حدثت حقها ومكانتها وقيمتها اللازمة .

ان المصادر القديمة تحتوى على اشارات بالغة الاهمية فى هذا المجال بدليل ان الشعر الشعبى استطاع ان يصمد امام المواجهات العديدة بالرغم من الحصار الذى قوبل به لسبب بسيط وهو ان الجماهير حافظت عليه لما فيه من امور تمس حياتها وواقعها .

وتجدر الاشارة هنا ان الشعر الشعبى الذى نقصده ليس ذلك الشعر العامى وحده ، كما نفهم اليوم من هذا المصطلح بل ان فهمنا له يتعدى الى كل ما يمس الجماهير سواء كتب بالعربية الفصحى ام بغيرها من اللهجات المحلية التي ان هي الا امتداد للفصحى وتطور طبيعي وحتمي لها لان مجتمعا كالمجتمع العربي الاسلامي المتنوع في مكوناته البشرية والطبيعية كان لابد ان يفرز مثل هذه اللهجات ، فرقعته كانت واسعة جدا فى ذلك العصر وهذا يعني ان المناطق والاقاليم التي انضوت تحت راية الخلافة العباسية كان من المنتظر ان تطبع اللغة والعادات العربية بعادات وطبائع جديدة بالرغم من ان تلك الاقاليم تتقارب في همومها — اى تنطبق عليها الظروف نفسها تقريبا — وهذا التنوع كان له دور كبير في تطور الحضارة العربية في جميع ميادينها. والذى يهمنا فى هذا ان الشعر الشعبي الناتج عن ذلك المجتمع المتنوع اسهم في تطور الشعر العربي عموما فقد اصبح الشعر يتسع ليتناول جميع الموضوعات التى يفرزها ذلك المجتمع الجديد ، وهذا ما ولد بدوره القصيدة الجديدة .

التي تختلف عما قبلها في العصرين الجاهلي والاموى ، فقد صارتقصيرة ولم تعد بذلك الطول الذى اشتهرت به قصائد العصرين السابقين . والسبب في هذا ان العقلية قد اختلفت كثيرا ، فقد كان الشاعر الجاهلى وتبعه الاموي في ذلك ، ينظر الى الامور نظرة شمولية ولذا كانت القصيدة تأتى عنده ملخصة لكل تجاربه فى الحياة . وكان بامكان الشاعر ان يكتفى بقصيدة واحدة لانه ان نظم غيرها فسوف يكرر ما قال من قبل في صيغة جديدة . اما الشاعر العباسى فقد اصبح ينظر الى الامور نظرة تفصيلية اذ لم يعد يصب فى القصيدة كل ما عنده من تجارب بل صار يكتفى بتناول الموضوعات واحدا واحدا ،وهذا بدوره جعل القصيدة العباسية وحيدة الموضوع وهذا لا يعنى طبعا ان القصيدتين الجاهلية والاموية لم تكونا وحيدتى الموضوع بل انهما كانتا كذلك الا ان الموضوع فيهما ينطلق من تلك النظرة الشمولية لدى الشاعر .

كانت الوحدة اذا وحدة نفسية تخرج فى اطار متنوع فيما كانت العباسية وحدة حالية تخرج في اطار واحد لان تلك المقطوعا تتناول موضوعا واحدا او فكرة واحدة وهذا ناتج عن ان تطور الحياة فى العصر العباسي الاول لم يعد يسمح بتلك المطولات التي تشبه امتداد الصحراء . ان وتيره التطور اصبحت سريعة جدا مما انتج اشكالا فنية تتسم بالسرعة هى الاخرى وهذا ما طور الاوزان بحيث طوعت حتى اصبحت تتماشى مع هذا النمط الجديد من القصائد ،ولذا كثرت الاوزان القصيرة والمجزأة والمنهوكة الخ ..

كانت القصائد الجاهلية عامة في نظرتها الى الامور اما العباسية فقد صارت تأخذ الموضوع وتشيراليه دون توسع وتكتفى بذلك في بيتين او اكثر قليلا .... هذا اضافة الى عوامل اخرى شاركت فى ظهور هذه الاوزان كالموسيقا والغناء الذي ازدهر هو الاخر فى العصر العباسي ازدهارا كبيرا،فقد صار الشاعر ينتقى الاوزان الخفيفة والكلمات الجميلة وهو ينظم القصيدة لانه كان يدرك انهاقد تغنى من قبل الناس بعد ان يلحنها احد الملحنين . ونحن هنا لا نتحدث عن الغناء الذى ازدهر فى القصور بل الغناء الاخر الذى كان حتما موجودا بين الجماهير .

ومن هنا فلا غرابة اذا وجدنا أن خصائص الشعر الشعبي لذلك العصر تتشابه مع خصائص شعره الرسمي ولهذا اسباب كثيرة منها ان الفاصل بين الشعرين لم يكن دائما واضحا وثابتا فكم من شاعر يتقلب بين عشية وضحاها بين الاتجاهين وهنا يجب ان نتذكر اولئك الشعراء الذين كانوا يأتون الى بغداد لينشدوا الخليفة مدائحهم فيه ثم يعودون الى قبائلهم ومدنهم ليعاودوا حياتهم كما كانوا من قبل . ان الاختلاف في المحتوى هو الذى يجعل شعر الشاعر شعبيا أو رسميا وليس في الشعراء فالقسمة اذا قسمة شعر وليست قسمة شعراء . لان الاتجاهين وليدا مجتمع واحد تتفاعل فيه طبقاته وتؤثر بعضها في بعض تأثيرا متبادلا .

ان الاختلاف في المحتوى يولد بطبيعة الحال اشكالا مختلفة لكنها ليست منفصلة أو متناقضة الى درجة تنعدم فيها المقارنة بينهما .

ومن خصائص الشعر الشعبي المغرقة له عن غيره من الشعر ان اهم موضوع يدور حوله هو تلك الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كان حضورها مسيطرا فيه ، ففي جميع الاغراض التي تناولها الشعراء الشعبيون تطل علينا تلك الاوضاع ، سواء في المدح ام الهجاء ام الرثاء أم الوصف الخ . . . .

وبعد نرجو ان نكون قد وفقنا بعض الشيء في ابراز هذا الاتجاه الذى كان مطموسا والذى لم يعط حقه الا قليلا ، ولا ندعي ابدا اننا بلغنا الغاية فيه بل نحن نعرف مسبقا ان هناك بعض النقص في جوانب عديدة نرجو ان يغفرها لنا القارىء .

طاهر حجار

فهرس المصادر والمراجع

- حرف الالف -

١ - ابراهيم ،نبيلة : اشكال التعبير في الادب الشعبي .
طبع دار نهضة مصر - بدون تاريخ .

٢- الابشيهي : ابوالفتح شهاب الدين محمد بن احمد : المستطرف في كل فن مستظرف .
طبع دار الفكر - بيروت ، مصورة عن طبع الاستقامة ، مصر ١٣٧٩ هـ

٣ - ابن الاثير : ابوالحسن عزالدين علي بن محمد (- ٦٣٠ هـ) - الكامل في التاريخ . طبع دار صادر بيروت ١٩٦٥ م

٤ - ابن آدم القرشي يحيى : كتاب الخراج ،تحقيق احمد محمد شاكر
طبع المطبعة السلفية ،القاهرة ١٣٤٧ هـ .

٥ - الاصفهاني : ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموى (- ٣٥٦ هـ)-
كتاب الاغاني - طبعة مصورة عن دار الكتب .
- (ج ١٧) طبع الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف
تحقيق علي محمد البجاوى القاهرة ١٩٧٠
- (ج ٢٠) طبع دار الثقافة - بيروت ١٩٦٠

٦ - الالوسي ،محمد شكرى : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، شرح وتصحيح محمد بهجة الاثرى ،طبع المكتبة الاهلية ،طبعة ثانية - مصر ١٩٢٤ م .

٧ ـ انيس ،ابراهيم : موسيقى الشعر ،طبع مكتبة الانجلو المصرية ،طبعة خامسة ،القاهرة ١٩٧٨ م

ـ حرف الباء ـ

٨ ـ بازيار العزيز بالله الفاطمي : ابو عبد الله الحسن بن الحسين : البيزرة . تعليق محمد كرد علي . طبع مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ ١٩٥٣ م

٩ ـ بدوي ،عبده : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ١٩٧٣ م.

١٠ ـ البهبيتي ،محمد نجيب: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجرى طبع دار الكتب ـ القاهرة ١٩٥٠ م

١١ ـ البيهقي : ابراهيم بن محمد (٣٨٥ هـ ـ ٤٧٠ هـ)

آ ـ تاريخ البيهقي ،ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت (عن الفارسية) طبع مكتبة الانجلو المصرية ـ ١٩٥٦ م

ب ـ المحاسن والمساوىء ،طبع دار صادر بيروت ١٩٧٠ م

ـ حرف التاء ـ

١٢ ـ ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ـ ٨٧٤ هـ) ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع دار الكتب المصرية ،طبعة اولى ،القاهرة ١٩٣٠ م

١٣ ـ تيزيني ،طيب : مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط طبع دار دمشق ١٩٧١ م

ـ حرف الثـاء ـ

١٤ـ الثعالبي : ابو منصور عبد الملك محمد بن اسماعيل (ـ ٤٢٩ هـ)

آـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ،تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيـم طبع دار نهضـة مصر القاهرة ١٩٦٥ .

ب ـ خاص الخاص تقديم حسن الامين طبع مكتبة الحياة ،بيروت ١٩٦٦

ـ حرف الجيـم

١٥ـ الجاحظ : ابوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ـ ٢٥٥ هـ)

آـ البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق محمد مرسي الخولي طبع دار الاعتصام للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٧٢ م

ب ـ البيان والتبيين ،تحقيق فوزي عطوى ،طبع دار صعب ،بيروت ١٩٦٨م

جـ ـ الحيوان ،تحقيق عبد السلام هارون طبع البابي الحلبي ،طبعـة ثانيـة القاهرة ٦٥ ـ ١٩٦٦

د ـ القول في البغال ،تحقيق شارل بللا طبع مصطفى البابي الحلبـي طبعة اولى القاهرة ١٩٥٥ م

١٦ـ ابن الجـراح : ابوعبد الله محمد بن داود (ـ ٢٩٦ هـ) الورقـة ،تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج ،طبع دار المعارف بمصر طبعة ثانيـة القاهرة ،١٩٥٣ م .

١٧ـ الجمال ،احمد صادق : الادب العامي في مصر في العصر المملوكي . طبـع الدار القوميـة للطباعـة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦ م

١٨ـ الجهشياري : ابوعبد الله محمد بن عبدوس : الوزراء والكتاب ،تحقيـق مصطفى السقا وجماعته ،طبع مصطفى البابي الحلبي ،طبعة اولى القاهرة ١٩٣٨ م .

— حرف الحاء —

١٩— حجاب ،محمد نجيب : معالم الشعر واعلامه في العصر العباسي الاول ، طبع دار المعارف بمصر ،طبعة ثانيـة ،القاهرة ١٩٧٣م

٢٠— حسن ،ابراهيم حسن :

آ— تاريخ الاسلام الاجتماعي والسياسي والثقافي الخ ...
طبع مكتبة النهضة المصرية ،طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٤

ب — النظـم الاسلامية لطبع النهضـة المصرية طبعة اولـى القاهرة ١٩٣٩ م

٢١— الحصرى القيرواني : ابو اسحاق ابراهيم بن علي (— ٤٥٣ هـ):جمع الجواهر في الملح والنوادر (ذيل زهر الاداب) تحقيق علي محمـد البجاوى طبع البابي الحلبي ،طبعة اولى القاهرة ٢٩٥٢م

٢٢— ابوحيان التوحيدى : (٤١٠ او ٤١٤ هـ) — الامتاع والمؤانسـة — تحقيق احمد امين واحمد الزين — طبع مكتبة الحياة (مصورة عـن دار الكتب) — بدون تاريخ)

— حرف الخـاء —

٢٣— الخطيب البغدادى : ابو بكر احمد بن علي بن ثابت (= ٤٦٣ هـ) تاريخ بغداد ،طبع مكتبة الخانجي طبعة اولى القاهرة ١٩٣١ م.

٢٤— ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) المقدمـة . تحقيق علي عبد الواحد وافي ، طبع لجنة البيان العربـي طبعة اولى القاهرة ١٩٥٧ م

٢٥_ ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر(٦٠٨ – ٦٨١هـ) – وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان . تحقيق احسان عباس – طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ .

٢٦_ خليف ،يوسف : حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجري. طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ،القاهرة ١٩٦٨ م

٢٧_ ابوخليل ،شوقي : هارون الرشيد ،طبع دار الفكر طبعة اولى ،دمشق ١٩٧٧ .

_حرف الدال _

٢٨_ دعبل بن علي الخزاعي (١٨٤–٢٤٦ هـ) – ديوانه . جمع عبد الكريم الاشتر – طبع مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

_ حرف الراء

٢٩_ الراغب الاصبهاني : ابو القاسم حسين بن محمد (– ٥٠٢ هـ): محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء والبلغاء – بدون ذكر للتاريخ او للطبع .

٣٠_ ابن رشيق القيرواني : ابوعلي الحسن بن رشيد (٣٩٠–٤٥٦ هـ): العمدة في صناعة الشعر – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبع حجازى ،طبعة اولى القاهرة ١٩٣٤ م

٣١_ رفاعي ،احمد فريد : عصر المأمون ،طبع دار الكتب المصرية ،طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٨ م

٣٢_ الرفاعي ،انور : الاسلام في حضارته ونظمة طبع دار الفكر ١٩٧٣ م

٣٣ـ الرقيق القيرواني : ابراهيم بن القاسم : المختار من قطب السرور في اوصاف الانبذة والخمور ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، طبع مؤسسات عبد الكريم عبد الله ـ تونس ١٩٧٦ م

٣٤ـ رياض حسين مظلوم ومصطفى محمد الصباحي : تاريخ ادب الشعب،طبع مطبعة السعادة ١٩٣٦ م

٣٥ـ ريجاردكوك : بغداد مدينة السلام،ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، طبع مطبعة شفيق ،طبعة اولى بغداد ١٩٦٢ م

٣٦ ـ الريس ،محمد ضياء الدين : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، طبع مكتبة الانجلو المصرية ،طبعة ثانية القاهرة ١٩٦١ م

ـ حرف الزين ـ

٣٧ ـ زكي ،احمد كمال : الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجرى ، طبع دار المعارف بمصر القاهرة ، ١٩٧١ م

٣٨ ـ زيدان،جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ،طبعة دار الهلال ـ بدون تاريخ

ـ حرف السين

٣٩ ـ سيديو : خلاصة تاريخ العرب ،ترجم بأمر علي باشا مبارك ،طبع محمد افندى مصطفى ،طبعة اولى ،القاهرة ١٣٠٩ هـ

٤٠ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ـ ٩١١ هـ)

آـ تاريخ الخلفاء ،طبع دار الفكر ١٩٧٤ م

ب ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها ،طبع محمد علي صابيح واولاده ،بدون تاريخ .

- حرف الشين -

٤١- الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد : الديارات ،تحقيق كوركيس عواد، طبع المعارف ببغداد ١٩٥١ م

٤٢- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن احمد (- ٧٦٤ هـ) فوات الوفيات، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع دار السعادة ، بدون تاريخ .

٤٣ - الشريف المرتضى : علي بن الحسين : امالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، طبع دار الكتاب العربي ،طبعة ثانية بيروت ١٩٦٧ م

٤٤- شعبان،بهيج : اثر المعدة في الادب العربي ،طبع منشورات عويدات ، طبعة اولى بيروت ١٩٦٦ م

٤٥ - الشكعة ،مصطفى : الشعر والشعراء في العصر العباسي ،طبع دار العلم للملايين طبعة ثانية بيروت ١٩٧٥ .

٤٦ - شلبي ، احمد : في قصور الخلفاء العباسيين - طبع مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤ م

٤٧ - شلبي ،سعد اسماعيل : الشعر العباسي ،التيار الشعبي ،طبع مكتبة غريب - بدون تاريخ .

- حرف الصاد -

٤٨ - صالح ،احمد رشدى : الادب الشعبي ،طبع دار المعارف ،بدون تاريخ .

٤٩ - الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى (- ٣٣٥هـ) - كتاب الاوراق ،نشره هيورث دن ،طبع مطبعة الصاوى ،طبعة اولى ،القاهرة ١٩٣٤ م

— حرف الضـــاد —

٥٠ — ضيف ،شوقي :
آ — العصر العباسي الاول — طبع دار المعارف ،طبعة سادسة القاهرة ١٩٧٦ م
ب — الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور . طبع دار المعارف بمصر طبعة اولى القاهرة ١٩٧٧ م
جـ الفكاهة في مصر طبع دار الهلال ،العدد ٨٣

— حرف الطـــاء *

٥١ — الطبـــرى : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ):تاريخ الرســـــل والملوك — تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم طبـــــع دار المعارف ١٩٦٧ .

٥٢ — ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبـا : الفخرى في الاداب السلطانية، طبع المطبعة الرحمانيـة مصر ١٩٢٧ م

٥٣ — ابن طيفور : ابو الفضل احمد بن طاهر (— ٢٨٠ هـ):بغداد في تاريخ الخلافـة العباسـية ،طبع مكتبـة المثنى ببغداد ومكتبـة المعارف ببيروت ،طبعة اولى ١٩٦٨ م

— حرف العيـــن —

٥٤ — ابن عبد البر القرطبي : (٣٦٨ — ٤٦٣ هـ):بهجة المجالس ،تحقيق محمد مرسي الخولي . طبع الدار المصرية للتأليف والترجمـــة— بدون تاريخ .

٥٥ — عبد الحكيم ،شوقي : الفولكلور والاساطير العربية ،طبع دار ابن خلدون طبعة اولى بيروت ١٩٧٨ م

٥٦ — ابن عبد ربه : احمد بن محمد (— ٣٢٨ هـ) : العقد الفريد ، طبع لجنة التأليف والنشر والترجمة .

٥٧ — ابو العتاهية : (اسماعيل بن القاسم (— ٢١٠ هـ) : الديوان ، تحقيق شكري فيصل . طبع جامعة دمشق ١٩٦٥ م .

٥٨ — ابن عرنوس ، محمد بن محمد : كتاب تاريخ القضاء في الاسلام، طبع المطبعة المصرية الاهلية الحديثة بمصر بدون تاريخ

٥٩ — عصفور ، جابر احمد : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ، طبع دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٨ م

٦٠ — عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الاول ، طبع دار المعارف القاهرة ١٩٧٤

٦١ — ابن العماد : ابو الفلاح عبد الحي (١٠٨٩ هـ) ؛ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، طبع مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٠ هـ

٦٢ — عمارة محمد : نظرة جديدة الى التراث ، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، طبع ثانية بيروت ١٩٧٩ .

٦٣ — عيد ، رجاء : الشعر والنغم ، دراسة في موسيقى الشعر ، طبع دار الثقافة للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٧٥ .

— حرف الغين —

٦٤ — غرنباوم ، غوستاف : شعراء عباسيون ، ترجمة محمد يوسف نجم ، طبع مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩ م

ـ حرف الفـــاء ـ

٦٥ـ ابو الفداء : الحافظ بن كثير الدمشقي (ـ ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، طبع مكتبة المعارف ببيروت ومكتبـة النصر بالرياض ـ طبعـة اولى ١٩٦٦ .

٦٦ ـ فهد ، بدري محمد : العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ـ طبـــع مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٦٧ م

٦٧ ـ فريحـة ، انيس : الفكاهة عند العرب ، طبع مكتبة رأس بيروت ، طبعـــة اولى ١٩٦٢ .

ـ حرف القـــاف ـ

٦٨ ـ القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم (ـ ٣٥٦ هـ) ، كتاب الامالي وكتـــاب ذيل الامالي والنوادر ـ طبعة مصورة عن بولاق ١٣٢٤ هـ

٦٩ ـ ابن قتيبة : ابو محمد بن عبد الله بن مسلم (ـ ٢٧٦ هـ) : الشعر والشعراء ، طبع ليدن طبعة اولى (١٩٠٢ م)

٧٠ ـ القفطي : ابو الحسن علي بن يوسف ، (ـ ٦٤٦ هـ) المحمدون من الشعراء ، تصحيح محمد عبد الستار ، طبع مجلس دائرة المعارف العثمانيـة ، حيدر اباد ، الهند ـ طبعة اولى ١٩٦٦ م

ـ حرف الكـــاف ـ

٧١ ـ كراتشكو فسكي ، اغناطيوس : دراسات في تاريخ الادب العربي (منتخبـات) ترجمة محمد المعصراني ـ دار النشر ، موسكو ١٩٦٥ م

٧٢ ـ الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف : القضاة والولاة ، تهذيب رفن كســت طبع الاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ م

ـ حرف اللام ـ

٧٣ ـ لوبون ،غوستاف : حضارة العرب ،ترجمة عادل زعيتر ،طبع البابي الحلبي ، بدون تاريخ .

ـ حرف الميم ـ

٧٤ ـ ماجد ،عبد المنعم : العصر العباسي الاول ـ طبع مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة اولى القاهرة ١٩٧٣ .

٧٥ ـ المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد (ـ ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللغة والادب ،طبع مكتبة المعارف ،بدون تاريخ .

٧٦ ـ مجموعة من الاساتذة السوفييت : بحوث سوفييتية في الادب العربي ،ترجمة خيرى الضامن ـ دار التقدم ،موسكو ١٩٧٨ .

٧٧ ـ مجموعة من الاستاذة السوفييت : في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ،ترجمة خيري الضامن ،دار التقدم ،موسكو ١٩٧٥

٧٨ ـ المرزباني : ابوعبيد الله محمد بن عمران (ـ ٣٨٤ هـ) : الموشح ،تحقيق علي محمد البجاوى ـ طبع دار نهضة مصر ،القاهرة ١٩٦٥ م

٧٩ ـ مروة ،حسين : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ،طبع دار الفارابي طبعة اولى بيروت ج ١/ ١٩٧٨ ـ ج ٢/ ١٩٧٩

٨٠ ـ المرزوقي ،محمد : الادب الشعبي في تونس ،طبع الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٦٧ م

٨١ ـ المسعودى : ابو الحسن علي بن الحسين (ـ ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ طبع المطبعة البهية المصرية القاهرة ١٣٤٦ هـ

٨٢ - مصطفى، شاكر : دولة بني العباس (ج ١) طبع وكالة المطبوعات ،طبعة اولى ،الكويت ١٩٧٣ م

٨٣ - ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (- ٧١١ هـ) لسان العرب .

٨٤ - ابن المعتز : عبدالله بن المتوكل بن المعتصم (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) طبقات الشعراء ،طبع دار المعارف بمصر ،طبعة ثانية القاهرة ١٩٦٨ م

٨٥ - ابن المعذل ،عبدالصمد : شعر عبدالصمد بن المعذل ،تحقيق زهير غازي زاهد ،طبع مطبعة النعمان - النجف - العراق - ١٩٧٠ م

٨٦ - المقدسي ،انيس : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ،طبع دار العلم للملايين ،طبعة حادية عشرة بيروت ١٩٧٧ م

٨٧ - المنجد صلاح الدين : مآكل الخلفاء العباسيين ،مجلة الرسالة عدد ٦٥٨

- حرف النون -

٨٨ - النويرى : احمد بن محمد بن عبدالوهاب (-٧٣٣ هـ) : نهاية الارب في فنون الادب ،طبعة مصورة عن دار الكتب .

٨٩ - النيسابورى : ابو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب (- ٤٠٦ هـ) : عقلاء المجانين ،طبع المطبعة العربية بمصر - ١٩٢٤ م

- حرف الهاء -

٩٠ - هدارة ،مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى ،طبع دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٣ م

٩١ — هل — ى : الحضارة العربية ،ترجمة ابراهيم احمد العدوى ،طبع مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ١٩٥٦ م

— حرف الياء —

٩٢ — اليافعي : ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي (—٧٦٨ هـ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ،طبع دائرة المعارف النظامية ،طبعة اولى حيدر اباد — ١٣٣٧ هـ .

٩٣ — ياقوت الحموى : ابوعبدالله ياقوت بن عبدالله (—٦٢٦ هـ) معجم الادباء ،طبع دار المأمون .

٩٤ — ابويوسف : يعقوب بن ابراهيم : كتاب الخراج ،طبع المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٦ هـ

٩٥ — يونس عبد الحميد : دفاع عن الفولكلور ،طبع الهيئة المصرية للكتاب — القاهرة ١٩٧٣ .

×××××××××××××

×××××××××

××××